

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 01003 3235

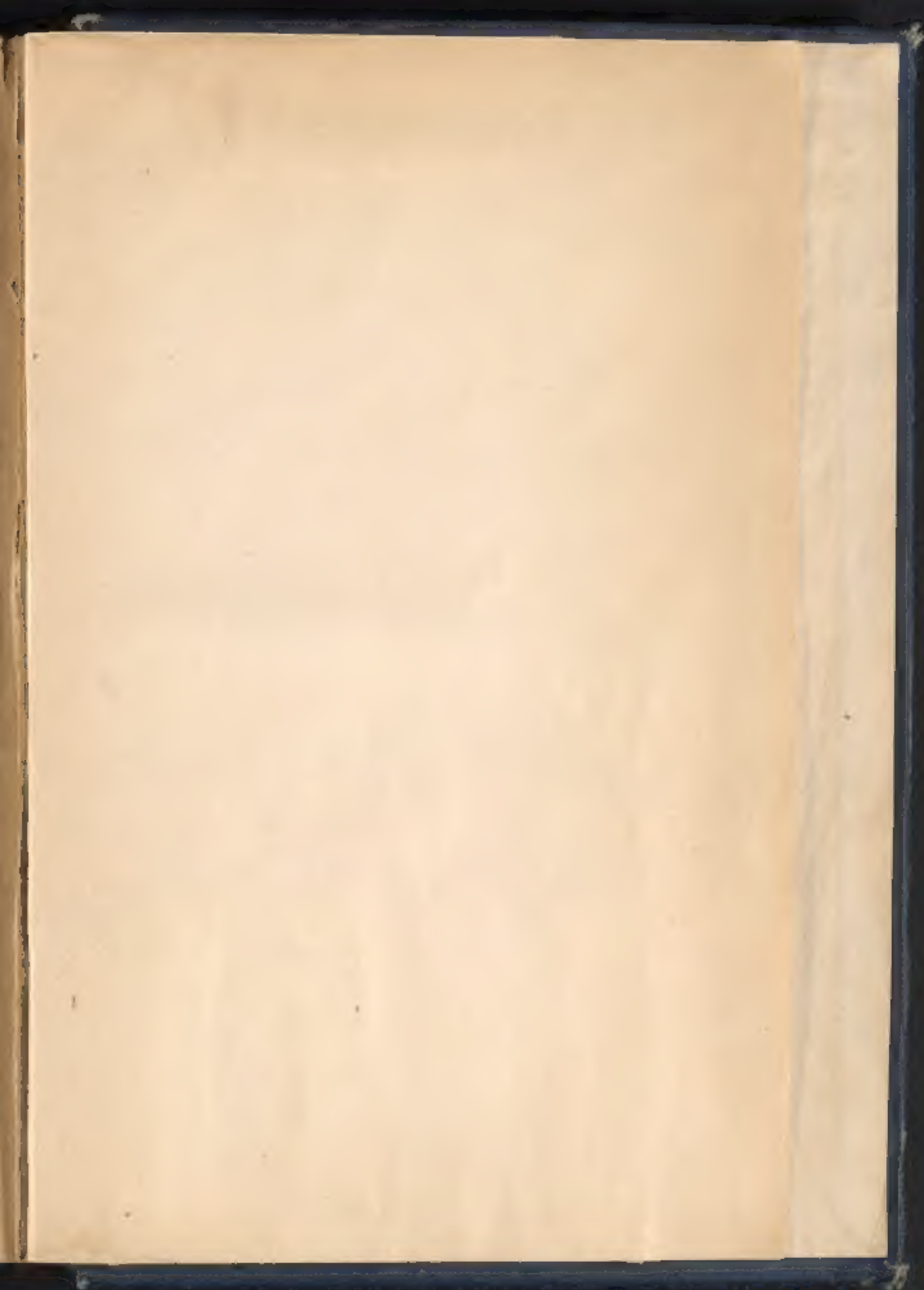
U
11
3
12



11 MAR 1973

14 JUN 1987

DT
104.5
J28
1934



DT
104.5
J28
1934

Jāmātī , Halab

ʾIbrāhīm fī al-maydān

إبراهيم في الميدان

تأليف

مريب جمامي

عنت بلشهره

ادارة الحيدال بنصر

١٩٣٤

923-1
Ib/3g

975, 1
ابراهيم ج

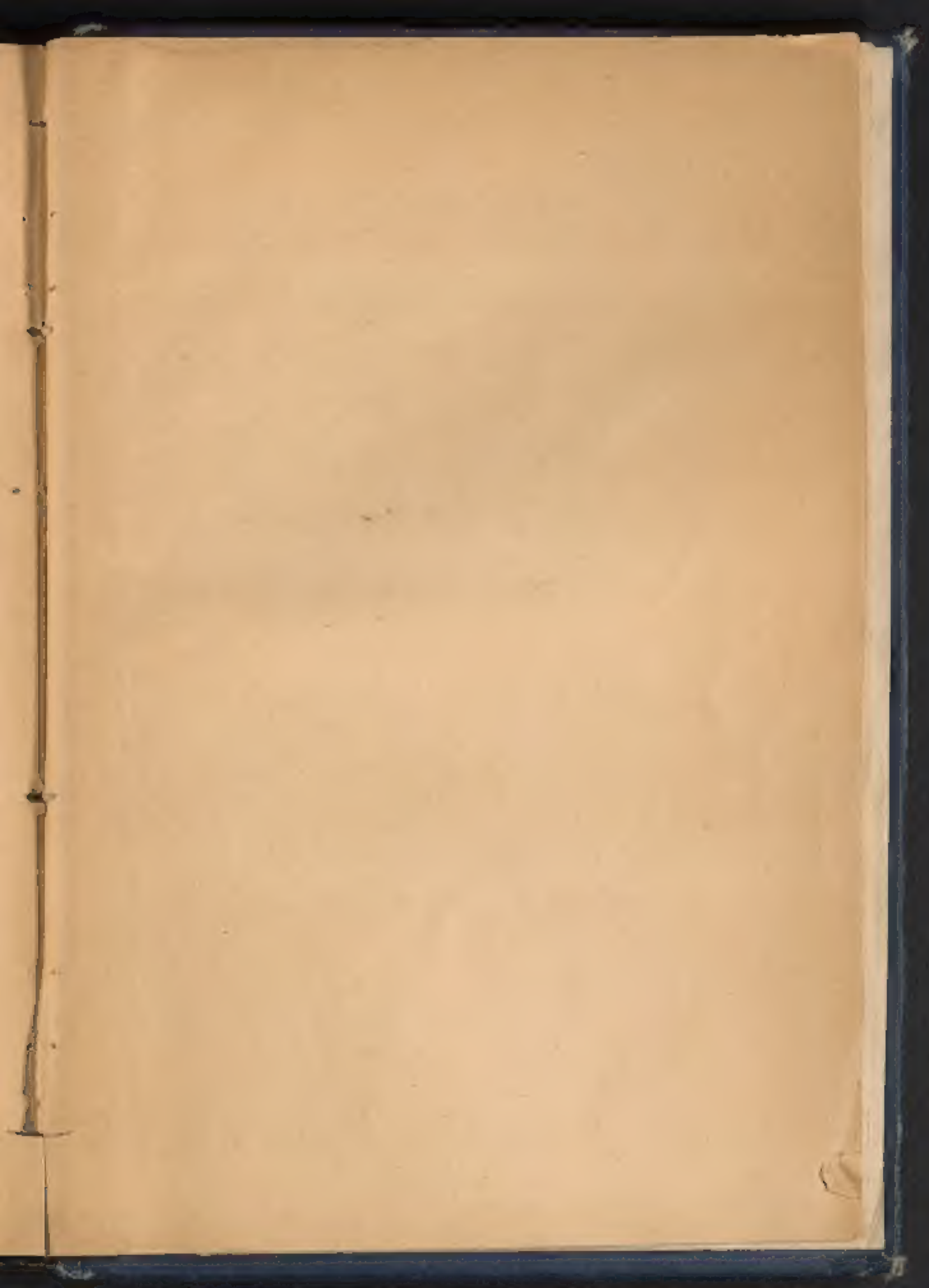
17241

اهراء الكتاب

الى الابطال الذين يشهرون السيوف في وجوه
الفاصبين، ويمحون الطغيان والعدوان، وينتقمون للمظلومين
من الظالمين، في حومة الوغى وغمرة الميادين
الى الابطال الذين يعيدون الى الشرق مجده الضائع،
وحقوقه المغتصبة، واستقلاله المسلوب
الى أبطال الحروب، هذه الاحاديث عن أبطال
الحروب

وعلى أبطال الامس السلام

والى أبطال الغد التحية !



تصدير لفقيه الصحافة العربية

المرحوم داود بركات

كان المؤلف قد طلب من المرحوم داود بركات تصديراً
لكتابيه « ابراهيم في الميدان » ومضت شهور ولم يكتب
التصدير . ثم بلغت الصحافة العربية بوفاة شيخها . وبينما
كان اخوه الاستاذ مركات بركات يجمع الاوراق المتناثرة
التي تركها الفقيه في خزائنه بجانب الفراش الذي قضى فيه
نحيبه ، عثر على التصدير الذي كان رحمه الله قد بدأ بكتابته
وهو على فراش الموت ، وقد فاضت روحه وحطم قلعه قبل
أن يأتي على نهايته . والمؤلف ينشر هذا التصدير كما تركه
كاتبه رحمه الله عليه ، ناقصاً غير كامل ، فهو آخر أثر كتابي
للراحل الكريم :

الى منشىء

العلم المصري في سورية ولبنان

طالعت رسالتك عن « ابراهيم في الميدان » او « العلم المصري
في سورية ولبنان » ثم أعدت هذه المطالعة العذبة التي يتنقل فيها الفكر
من القصة الى الاسطورة والحكاية والى الوصف والعادات والتقاليد
والاخلاق . ثم الى ما فوق ذلك كثيراً جداً وأسمى غرضاً وأنبأ قصداً .
الى ترابط نفوس هذه الطوائف والامم الشرقية ترابطاً روحياً ينتهي

مع تراخي الزمن الي ترابطها القومي الوثيق ، التي كانت عليه يوم
كانت مدنها عامرة وحضارتها زاهرة وعلومها باهرة ، فكانت تعرف أن
منافعها متحدة وانها واحدة كآدابها وفنونها وعاداتها واخلاقها . فلم
يفرقها سوى الضعف ولم يمزقها سوى الجهل ولم يقم الفواصل بينها
سوى هذين العاملين اللذين جملاها اقساماً واشطراً ، وجملا كل قسم
وشطر عبدا ذليلاً . الى أن نهض محمد علي بمصر ، فنهضت مصر الفتاة
بقيادته وهدية الى لم ذلك الشمل الممزق ، وازادة ذلك الظلام الخيم ،
وتوحيد تلك القوى المفرقة ، حتى تصير قوة واحدة تستعيد مجدها
وتعبي ذكرى تاريخ تل العمارنة ، وقد سطر على جدرانها تاريخ سورية
ومصر في وادي النيل ، وتاريخ بيلوس (جيبيل) وقد سطر على صخورها
تاريخ مصر والفراعنة ملوكها ووزرائهم وكهاناتهم . وقد ضمت مصر بين
ذراعيها الاثنين الشقيقتين واشترك الجميع في جهاد واحد وسلم واحد
تحت علم واحد انخلع له قلب أوروبا فتألبت جميعاً على تلك الامبراطورية
الحديثة النابتة وقطعت أوصالها . فكان عمل محمد علي والامير بشير بروح
قومية طبيعية . وكان عمل أوروبا المتألبة عليها بروح القوة العشوم .
والقوة تنتقل من جانب الى جانب . واما فعل الطبيعة فدائم خالد . فهل
أنت في أقاصبك التاريخية تسير اليوم فعل القومية وفعل الطبيعة
الحالد الدائم لتوقظ الهاجع وتدعو الى وصل ما انقطع ؟

انك اذن لموفق في عملك . وانك اذن لرافع بعلم مصر في سورية
ولبنان علم القومية في البلدين الشقيقتين . وهو أعز الاعلام يغالب الدهر
وأحكامه الى أن يغلبه ويمحوها اذا ظل خافقاً بأيدي الهداة المرشدين

.....
.....

لقد عرفوا الرواية ولا أدري من اخترع هذا الاسم لأنه لا ينطبق

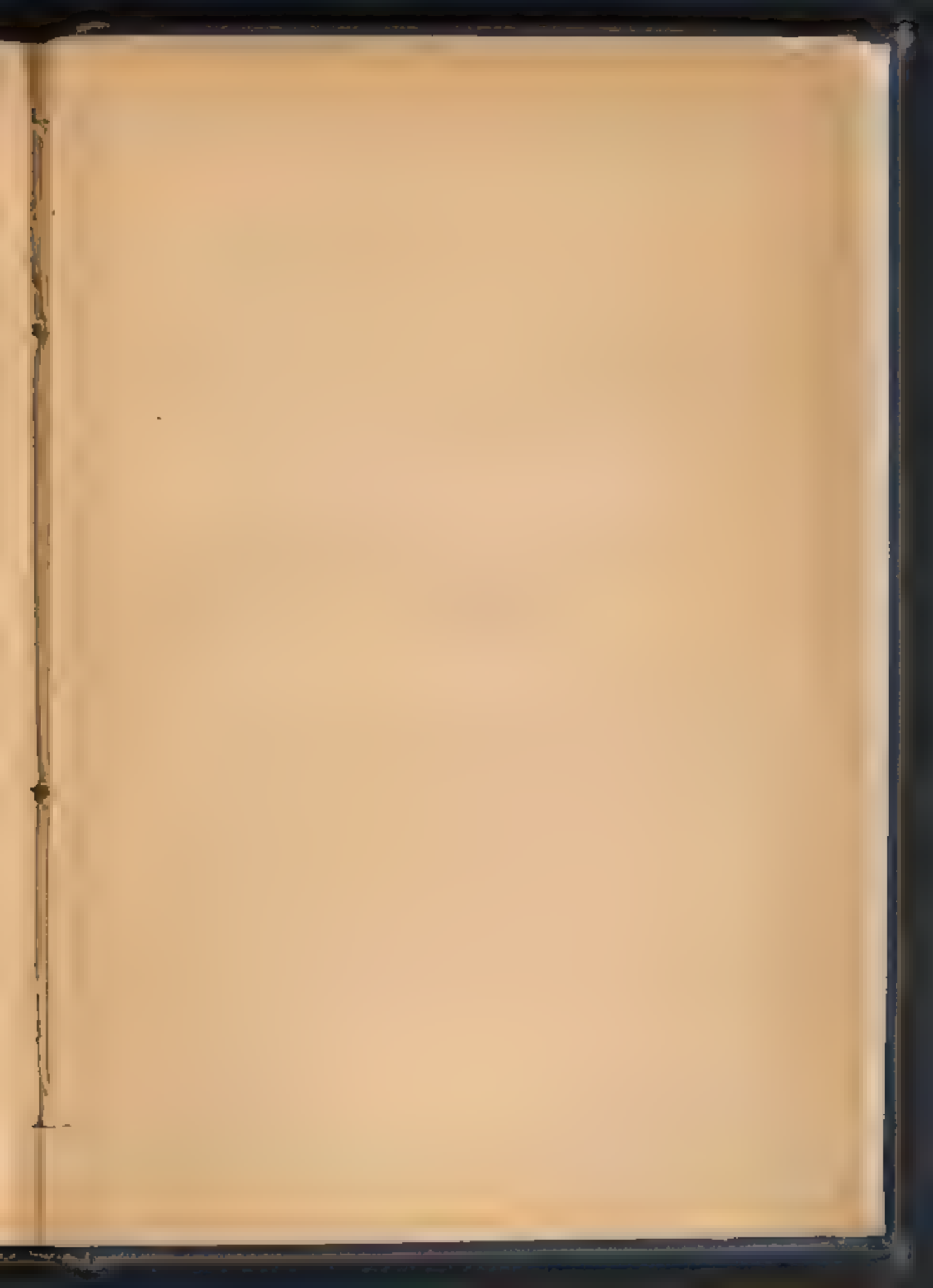
من جهة اللمعة على الحقيقة . والخليفة انها القصة أو الحكاية وتعريفها انها
مظهر تاريخي يسير الطريق بإيرادها مع الاهتمام، سواء كان بتحكيم الميول
والمواطف والأهواء أو بتعوير الاخلاق والعادات أو خرافة الحوادث
لذلك كانت هذه القصص والحكايات على ضروب شتى كالرواية
الادبية والرواية المضحكة والرواية الفلسفية والرواية التاريخية . . .

حتى إنهم أطلقوا هذا الاسم على ما لا يسلم العقل به . . .
ولقد عرفت أن الشرقيين هم الذين استدعوا هذه القصص وكانوا
يظنونها شعراً كالزجل عند العرب والقصيد . وتدشأ كل قصة عن
شجاعة وفجر وتصوير عواطف الانسان فيها هو سام عال . وهي تورت
العواطف في اعماق نفس الانسان . والمراد منها أن تثير لافسها نظاما
للحوادث أكثر سها من نظامها الذي نلسه ونعرفه

والعرض الذي كان يرمي اليه السلف هو معنى الحكاية الادبي
أما التاريخ فهو رواية الوقائع أو هو درس الماضي والبحث عما
فعل الدين تقدموا في الحياة . ومثل كل جبل مع من تقدمه في الحياة
كمثل الطفل بحاجة الى ما وصلت اليه حيرة والديه . والنليذ الى خبرة
معهم . حتى قالوا انه لا يشاد بحرفة أو عمل أو شئ في الاجتماع اذا لم
يراجع في كل أمر ما تقدم منه وما سبق . التاريخ ادن هو قرارة اختبار
الانسانية . . .

وما هي الحكمة في أعمالنا اذا لم تكن مكونة من خبرة آياتنا
.
.
.

داود برطانت



مقدمة

آليت على نفسي منذ سنوات أن ابحث في بطون التاريخ، ومخطوطات
المكاتب الخاصة والعامة، والمخطوطات القديمة، وصحائف الذكريات
ومكدون الذكريات، عن الحوادث التاريخية المجهولة أو المبهمة. وقد
عثرت على الكثير منها ووصفتها في قالب قصصي. وشرت بعضها
فوجدت من اقبال القراء عليها ما شعني على المص في عملي
وكان لعهد محمد علي باشا نصيب كبير من تلك المباحث والجهود.
وعلى الخصوص تلك الصفحة المحيطة التي سطرها ابراهيم باشا في سجل
التاريخ. واعني بها حملته على سورية والاناضول ووقوفه متصراً على
مقربة من لبواعيز التركية متحصراً للوثوب على الاستانه
وهذه مجموعة من الاقاصيص التاريخية التي وقعت حوادثها في ذلك
العهد الراهق، وكانت ربوع الشام وهضاب لسان ميداناً لها. وما هذه
الاقاصيص في الواقع غير تاريخ تلك الحملة العسكرية التي حطت العلم
المصري المطهر بمحقق عالياً بين الاعلام الخفاقة المطهرة
وتتناول هذه الاقاصيص أعمال العروسية والشجاعة التي قام بها
حمود ابراهيم باشا وأبصارهم في سورية ولسان، ونعارك التي اشتركت
فيها النساء مع الرجال حساً الى حنب، والدسائس التي حاكت السياسة
حيوطها في ذلك العهد على دولة مصر الفتية، والادوار التي لعبها
الجواسيس، وغير ذلك من الحوادث المجهولة أو المبهمة

في سنة ١٨٣٢ ، دخل ابراهيم بن محمد علي باشا الى مصر ،
سورية ولسان فانكا ، وسار بجيشه المظفر وألوية النصر حفاقة
أمامه ، الى الاناضول والوعاء ، فتراجعت حفاق الانراك مرتكة
مدعورة أمام العراة العائين . وحاولت أن توقف ذلك التيار المتدفق
الحار في مواقع ناريجيه دموية . فكان القتل صببها ، وهرمها ابراهيم
شر هزيمة ، من عرة الى عكا ، الى دمشق الى الزراعة الى حمص وحماء
فاط كبة فحبت فيلان ففوسة فغيرها وعرها من المارك ، التي مطش
فيها المصريون محصومهم بطشاً دريماً ، وأظهر فيها ابراهيم سوعاً جعله
منذ ذلك الوقت رجل عصره وفريد دهره

كانت سنة ١٨٣٢ سنة حرب وكفاح وكر وفر ، فقد بدأها
ابراهيم بن مصر مبعي وحنمها بنصر مبعي . ولم يمض شهر من شهورها ،
بن أسوع من أساييمها ، دون أن يطعمه ابراهيم بطاعه ، وبدون
ذكره في التاريخ مقروناً بفوز جديد

ووقفت أوروبا مدهولة لاهته ، تنظر الى ذلك الاسد المائح في
وشانه ، والى شلاله اللاحقين به . وقد ملأوا الشرق الادنى رثراً ،
ورفعوا اعلامهم على الافطار العربية ، وتنطعوا الى الاستانة الحائمة على
صاف الوسفور ، وتحمروا للانفصاص عليها ورفع أعلام محمد علي
على أسوارها

عقد محمد علي باشا الية ووطد المزم على عرو سورية في سنة ١٨٣١
وحمل بعد المدة لتسيير الحملة في صيف تلك السنة . لكن تفنى
الامراض في مصر حال دون تعيد رغبته فاصطر الى تأجيل الزحف
الى الحريف

وفي نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٨٣١ ، تحرك الجيش والاسطول

كانت الحملة مؤلفة من ثلاثين ألف حدي ، معهم أربعون من مدافع الميدان وعدد كبير من مدافع الحصار ، ومن ثلاث وعشرين سبعة حربية وسبع عشرة سبعة نقل . فصار الجيش رآ بقيادة ابراهيم باشا الصغير . وسار الاسطول محرآ بقيادة عثمان نورالدين بك . وعين ابراهيم باشا الكبير ابن محمد علي باشا قائداً عاماً للحملة . وسافر محرآ من الاسكندرية الى يافا ، ونزل هناك الى البر وقصد الى حيفا ومعه أركان حربه ومدافع الحصار الصالحة

وحمل ابراهيم باشا مدينة حيفا قاعدة لاعماله الحربية ومركزاً للقيادة العامة . وما ان وطئت قدماه أرض المدينة حتى تواجد عليه الرعماء ورجال الدين وقدموا له خضوعهم وعرضوا عليه مساعدتهم وقبل أن يبدأ ابراهيم باشا بمحاصرة عكا الحصينة ، التي كانت عبد الله باشا قد جمع فيها جيشاً قوياً استعداداً لمقاومة ، أراد القائد المصري أن يثق من ولاء الأمير شير الشهابي الكبير ، أمير لبنان وسيد المطاع . فدارت بين الاثنين معاوصات ودية ، ذكر في حلالها ابراهيم لأمر لبنان ما قطعه من عهود لأبيه محمد علي باشا ، والخطبة المشتركة التي وضعها الخليفان في مصر لطرد الأتراك من سورية والاستيلاء على الاناضول

وأكد الأمير للقائد المصري ولاءه وولاء قومه . وجاء الى حيفا حيث أكرم ابراهيم باشا وفادته ورسم بالانفاق معه خطه السير في مستقبل الأيام

وكان الجيش المصري قد احتل عرة هاشم ويافا وحيفا دون أن يلقى مقاومة ما . وفي اليوم السابع والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٨٣١ شرع ابراهيم باشا في محاصرة عكا ، وحمل بها حياً برآ وبحرآ لكنه لم يحصر جهوده في ذلك ، بل سير جيوشه الى الشرق

والشمال لاحتلال المدن واحصاع الحاميات التركية في السهول والجبال .
وتمكن في بضعة اسابيع من عزل عكا عن سواها من قواعد الدفاع
في سورية عزلاً تاماً

ففي ١٤ ديسمبر (كانون الاول) سار أربعة آلاف فارس وراجل
من حيفا واحتلوا صور وصيدا والقدس وطرابلس . وكان مع المصريين
عندما دخلوا طرابلس ورفضوا عليها اعلامهم الف مقاتل من أبناء
لسان بقيادة الامير حبل . بن الامير بشير الشهابي الكبير . وذلك في
اليوم العشرين من يناير (كانون الثاني) سنة ١٨٣٢

أما بيروت فقد استقلت المصريين بالترحاب وسر متطوعوها معهم
الى طرابلس مهللين مكبرين

وسعد أن ورع ابراهيم حوده على المدن والقرى والقلاع ، ضيق
الحنق على عكا برأ وعمرأ ، وفي اليوم السابع والعشرين من شهر مايو
(يار) سنة ١٨٣٢ دخلها بحبشه ضافراً مدسوراً ، وأرسل حاكمها عبد الله
باش اسيراً الى مصر حيث أكرمه محمد علي باشا وعامله معاملة العدو
الباسل الذي عمس القدر في وجهه وحانه الخط في الميادين

ولا أنسى هنا في ذكر الحوادث السياسية التي وقعت في أثناء تلك
الحرب الشمواء والدسائس التي حيكت في الجهر والخفاء في الاستانة
ولندن وطرسبرج وغيرها من عواصم العرب ، لمع الحىوش المصرية
من التقدم الى الامام ، والفصاء على الخطة التي رسمها محمد علي باشا للاستيلاء
على السلطنة العثمانية وتأسيس الامراطورية المصرية على انقاضها

ففي شهر مارس (آذار) سنة ١٨٣٢ رحف القائد التركي عثمان باشا
الديب بضعة آلاف مقاتل على طرابلس لاتزاعها من حاميتها المصرية

واللبنانية ، بعد أن عينته الدولة العلية حاكماً عليها . فهاجم المدينة لكن
الحامية الباسلة ردت عليه خائفاً خاسراً

وبلع الخبر ابراهيم وهو امام عكا فعادها الى طرابلس للقاء عثمان
باش اللبيب . لكن « اللبيب » أدرك انه يسعى الى حتمه بظلمه ففر
هارباً قبل أن يدركه ابراهيم بجيشه

غير ان المصريين تعقبوه . وادا كان القائد العثماني قد تمكن من
الوصول الى حماه فإن جيشه قد وقع في قبضة العائدين

ومنذ ذلك الوقت تناهت المعارك بسرعة وحقت الوية النصر على
الجيوش المصرية بلا انقطاع

دخل ابراهيم حمص فاتحاً

ثم عاد الى بعلبك حيث أخذ لجيشه ما يحتاج اليه من مؤونة
ودخيرة

وتبعه الجيش التركي إلى هناك فلاقاه ابراهيم في سهل الزراعة ، في
١٤ اربيل (بيسان) ١٨٣٢ - ١٤ ذي القعدة ١٢٤٧ ، وعهد إلى
سليمان باشا العرنساوى في ادارة المعركة ، وكان عدد الأتراك أصغى عدد
المصريين . لكن سليمان باشا أحرر في ذلك اليوم انتصاراً عظيماً فاهزم
الجيش التركي تاركاً مدافعه وخيوله

والتقى ابراهيم باشا في بعلبك بعساك باشا ابن طوسون باشا ،
واستراح قليلاً

ثم عاد إلى عكا ، فاقنعه أسوارها وحصونها في مايو (أيار) سنة

١٨٣٢

وفي ١٦ يونيه (حزيران) دخل المصريون دمشق وعرض ابراهيم
في السهل الواسعة حول المدينة فرق المتطوعين الذين التحفوا بجيشه
من لسان والبادية

ومكث اراهم في دمشق ثمانية عشر يوماً ، ثم سار شمالاً إلى
حمص حيث هزم الأتراك في معركة دموية في اليوم الثامن من يولييه
(تموز) ١٨٣٢

وعد أن نظم شؤون الإدارة في حمص ، واصل الرجف إلى حلب
فاجدها في ١٥ يولييه ١٨٣٢ بلا مقاومة . وأحد الجيش نصيبه من الراحة
استعداداً للقاء الأتراك في ييلان

وفي ٢ ربيع الأول سنة ١٢٤٨ هجرية ، أي في ٢٩ يولييه سنة
١٨٣٢ مسيحية ، اشتبك الجيشان في معركة ييلان الشهيرة

وفي ٢١ ديسمبر ١٨٣٢ - الموافق ٢٩ رجب سنة ١٢٤٨ سحق
اراهم البقية الباقية من جيوش الأتراك في قوبة . وكان انتصاره في
هذه المعركة أعظم انتصار أحرزه منذ اليوم الذي بدأ فيه حملته على
سوريه والآناسول

قف بك الآن عند هذا الحد لأنني ما أردت إلا أن أتحدث عن
سنة ١٨٣٢ دون أن أتجاوزها إلى السنوات التي تلتها والتي بدأ فيها
عهد الحكيم المصري في سورية ولسان ذلك العهد الذي دام عشر سنوات
لا يزال أبناء البلاد يذكرونها بالخير

مرت السنوات على تلك الحوادث الحسام والمواقع التاريخية والعهد
السعيد المجيد ، ومصر الآن تحول في ميدان الجهاد وتتجهز للوثوب
من حديد نحو تلك القمة التي سعتها في وقت من الاوقات ، وهي اليوم
كما كانت بالأمس حדרه بان تتولى رعايته هذا الشرق الناهض ، كما
تولتها في عهد محمد علي و ابراهيم

فان سنة ١٨٣٢ من السنوات التي يحق للمصريين أن يفأحروا
وعطوا أرقمها في تواريخهم بأحرف من ذهب ، فهي سنة قلنا نحود

الاقدار والظروف عنها على الامم . واذا كان لاوريون لا يرلون الى
اليوم يحتفلون بايام معلومة من سين معينة ، لان جيوشهم في تلك الايام
قد احرزت نصراً أوردت عن الوطن عدواً ، فان المصريين في استطاعتهم
أن يحتفلوا على الدوام بذكرى سة كاملة كانت من أولها الى آخرها سلسلة
انتصارات باهرة وأعمال مجيدة زاهرة

لو راجعنا حوادث سة ١٨٣٢ ، الكبيرة والصغيرة ، من شهر
يناير الى شهر ديسمبر ، واحصينا المواقع والمعارك والمناوشات التي حاص
الحيش المصري عمارها في الاثنى عشر شهراً التي تتألف منها السة ،
لوجدنا ان اراهيم باشا وقواد جيشه وحلفاءه قد انتصروا في أكثر من
مائة موقعة وممركة ومناوشة ، أي بمعدل انتصار واحد لكل ثلاثة أو
أربعة أيام . وهذا ما لم يذكر له التاريخ مثيلاً ، حتى في أعظم الحروب
شأناً وأبعدها مدى

فإذا حق للمصريين أن يحتفلوا بذكرى انتصار نابوليون في وهران ،
وللاخبر أن يحتفلوا بذكرى واقعة واترلو أو الطرف الاعر أو غيرها .
والامم الاوربية الاخرى أن تحتفل بأي يوم من أيام تاريخها الذي طبع
بسطح النصر . فان الامم المصرية بحق لها أن تفاخر أمام تلك الامم جميعاً
بمركة عظيمة دامت سة كاملة ، وانتصار باهر حققت اعلامه مدة اثني
عشر شهراً بلا انقطاع ، ثم استقبلت السة التالية ، سة ١٨٣٣ ، وطلت
فيها اعلامها حاففة على رموس الحدود النواصل الدين قادم اراهيم من
ضفاف النيل الى شاطئ البوسفور ا

كان لسان يعد ولاية عثمانية وان كان يتمتع باستقلال ذاتي واسع .
وقد بدد الاثراك جهدهم للتأثير على الحياة السياسية من وحيثها السياسية
والاجتماعية لكسهم فشلوا . وعهد الاثراك الذي ظل مئات السنين لم

يترك في لسان من هاتين الوجهتين أثرًا يذكر ، بهكس عهد المصريين
الذي لم يسم غير عشر سنوات

كان السانيون في القرن الثامن عشر يتخذون عهد أمير مصر وخر الدين
المعني قاعدة لتواريخهم . لكنهم بعد إقامة المصريين بين طواريهم أبدوا
القاعدة القديمة بأخرى جديدة . فصاروا يقولون : « الحوادث الغلبي
وقع بعد وصول المصريين ، كندا أو بعد رحيلهم ، كندا . . . »

بل انهم دعوا إلى أحد من ذلك فانخذوا في أواخر القرن الماضي
حوادث الاسكندرية وحركة عراقي باشا قاعدة لتواريخهم أيضًا . فصاروا
يقولون - ولا يرلون كذلك : « فلان ولد سنة عراقي أو قبلها أو
بعدها بكندا . . . »

وم يضررون الامثال بعدل المصريين . فإذا أرادوا إنشاء على أحد
القصة قالوا عنه : « انه كإبراهيم في عدله وإضافه ا »

ولا يرلون إلى اليوم يقولون عن المعني : « عده مصاري كثير أو
مصريات كثير . . . » وذلك إشارة إلى القود التي كانوا يتداولونها في
عهد إبراهيم والتي كانت القطعة منها - أي البارة - تسمى « مصرية »
والسابق الطويلة لانرا ترف في بعض أنحاء لسان بالساق أو
« الواريد الازهيبي » وذلك لان الساق التي كانت يحملها حود
إبراهيم كانت من الساق الطويلة . ووجد كثير منها إلى الآن في
البيوت اللبنانية مع انها قد انقرضت في مصر

هذا قليل من كثير مما تركه من أثر في الحياة اللسانية مرور المصريين
في تلك البلاد وأقسامه فيها عشر سنوات فقط

عبيب جاماني

مصر - يولييه (تموز) سنة ١٩٣٤

ربيع الاول سنة ١٣٥٣

نحية ورجاء

عندما دخل ابراهيم اشامدية بيروت في سنة ١٨٣٢ ، وقف في
عابة الصويف على ابواب المدينة ، وحاطب بشيراً الشهابي امير لسان قاتلاً :
— ها نحن يا بشير ! لقد حشا نهرم بالدم ميثاق المودة والاحاء الذي
قطعناه على انفسنا ، عندما زلت علينا في « شرا » ضيقاً مكرماً !
فاشار بشير الى من كان يحف به من رعماء الحبل وكماه ، وأحاط :
احبي انطالك باسم هؤلاء الانطال يا ابراهيم . وادا كانت الظروف
والاحوال قد أقامت بين بلدنا الحدود ، فتق أن ليس هناك من حدود
تفصل بين القلوب !

ثم صاح أحد ازعماء قاتلاً :

و إذا ما ارتقت السماء في مصر ، سمعنا هريم ارعود في لسان !
هكذا كان القوم يتحاطون في ذلك العهد . ولم يذكر التاريخ في
صفحة حماسة كالتى استولت على اللسانيين يوم وافام ابراهيم نكتاته
المظفرة . ففد اعذر المتطوعون الاشداء من أعلى حناهم اعداء اليل
الحاروف ، للانصمام الى العرافة الفاتحين ، يشاركوهم في عرواتهم
وفتوحاتهم . فمتزحت دماء أولئك الخلفاء من مصريين وسوريين
ولسانيين ، في وهاد الاناصول وعماده ، وكانت أساساً لهذه الاحاء
والمودة والاحلاص

وقد لعبت الاقطار الثلاثة - مصر وسورية ولسان - في القرن الماضي
دورا سياسياً وحرباً الى الرعب في اورنا، وبعث القلوب في قلقها.

وطنا شهدت العصور الخوالي من قبل، ادواراً عديدة مثل ذلك الدور،
عنها أيضاً الامم الشقيقة الثلاث .

مصر أم المدينة مد عهد المراجعة الحارة . وسورية مهدبة الصحراء
ومشيده لندن وسط الرمال . ولسان ناقل الحصار إلى ما وراء البحار
في عهد الفينيقيين ذوي المم القمصاء

مصر التي تغط معاندها إلى اياما هذه بقايا الارز القديم - ذلك
الارز الخالد الذي استوردته من عذات لسان . وسورية التي تصم في شايها
سهولها آثار المراجعة العراء . ولسان الذي يحمل رسومهم منقوشة
على صخورهم الصماء

مصر درة العاطمين . وسورية حة الامويين . ولسان معقل
«المردة» وحسنهم الحمين

مصر وسورية العاربتان بقيادة الاسد صلاح الدين . ولسان وكر
الصقر شر دين المعى الكبير

سلام على الافطار الثلاثة ، وحقق الله آمان مصر وسورية ولسان،
في الحرية التامة والاستقلال الكامل ا

درة بنت النصيرى

عصى عبد الله ناشا والى عكاء أوامر الدولة العلية ، واصلهم اليه الأمير
شير الشهابى أمير لبنان . فاصدر السلطان إرادته السنية بجزل الاثنين .
ولحق الأمير اللسانى إلى عزيز مصر محمد علي باشا ، وسافر الى القاهرة
في سنة ١٨٢٢

نزل في صيافة صديقه وحليفه ، في قصر شاهق فاحر الرياش ، على
ضفاف النيل ، حيث توافرت له أسباب الراحة . وأقام في ذلك القصر
ضيافاً كريماً مكرماً

كان محمد علي باشا في ذلك الوقت قد وطد دعائم حكمه في مصر ،
حيث استتب له الامر ، وبدأ يفكر في توسيع دائرة سلطته ، وامتداد
القاهرة عن تخوم السلطة المنية ، باقامة حاجر حصين يسه ويمن
الاستانة ، وإشياء دولة مستقلة في وادى النيل

لم تكن مصر في مأمن من العروات . فقد عمرتها حيوش الفاعحين
مقلدة عليها من طريق واحد لم يتغير : سورية وصحراء سيناء
ذلك هو الطريق الذى سلكه قميز والاسكندر

ومن هذا الباب دخل الفاعحون المسلمون ، وتبعهم الحوافل التركية
لكن سورية كانت أيضاً طريق القراة للصريين من وادى النيل
الى ممالك الشرق في عهد الفراعنة . وهى كثيرة الجبان والوديان . وكان

القدرة الإلهية قد أوجدت هناك سداً مبرحاً في وجوه الظالمين
 وضع محمد علي ثابته بنافذ ربه جميع تلك الاعتبارات في كفه
 انبرون . واتضح له أن لا سبيل إلى الاطمئنان على حدود ولايته ، إلا
 بقل تلك الحدود إلى وراء قمم لسان . وبدل أن يكون حط لدفاع
 عن مصر في السويس ، لابد أن ينتقل إلى حال طوروس
 سيبرو إذن محمد علي ذلك الفطر كما عراه المرعسة من قبل ،
 ويستجد من أهله الأقوياء الأشداء ، حلفاء يزداد بهم جيشه عدداً وقوة ،
 ويحبب بذلك وطأة التحديد عن الملاح لمصري . كما أنه سيجد في
 نبات لبنان ووهده . الخشب والعجم والبخاس وغيرها من منتجات
 الطبيعة ، التي تفتقر إليها مصر في مهنتها الحربية والصناعية والتجارية
 ثم إن سورية طرق الحجاج إلى بيت الله الحرام . ومحمد علي يرمى
 إلى السيطرة على ثواب مكة المكرمة والمدنية لمورة
 إن أملاك سورية ولبنان أمر لازم لا ماس من
 لذلك أقسم منقذ مصر من شر أهليها ، أن يبروها وينزعها من
 قبضة السلطان

ولكن ، لابد من حليف يعتمد عليه في تنفيذ هذه الخطة الواسعة
 البطاق
 وأي حليف أكثر صلاحية بذلك من سيد لبنان وممودة : لا مبر
 شر الشهابي ؟
 لقد أرسله العناية لأهله ، طريده يوم وشريد ساعة ، إلى مصر
 وليد . وفي صاحب الأمر والسي في مصر أن يعتم الفرصة السانحة .
 ويجعل من عدو السلطان صديقاً له ، ومن القائد انعوار والسياسي
 المحنك حليفاً في السراء والضراء

وهذا ما فعله محمد علي باشا
وطل كل من الصديقين مخلصاً لأخيه ، في أيام الضر وأوقات الاحن
على حد سواء

عقد محمد علي باشا وصيحه الامير اللساني في القاعة المشرفة على القاهرة
مجلساً سرى ، لم يحضره معهما غير ابراهيم بن محمد علي . ورسم الزعماء
الثلاثة خطة العمل بمخافيرها
قال محمد علي :

ان الدولة في اغلال مستمر . ومنى يست الشجرة أو نحر
فيها السوس ، وحب أن تقطع منها الاعضاء وتعرض في الارض ، فتسود
وتردهر وتصيح شجاراً فتية تحل محل الشجرة الدلية الشجرة . سوف
تقطع من ذلك الجسم المريض عصىين لم يذب اليهما الفساد بعد . وعلى
أقاص الدولة المتداعية ، نقيم دولتين قويتين . سأستقل في مصر كما
تستقل أنت يا بشير في لسان . واطلب منك عهداً على أن تكون في
الحرب إحدى دراعى . فطيك مد ولدى ابراهيم عتمد ، وأضع بك
نفي التامة الخالصة
فأجابه بشير :

— اقسم ان اسبر معك الى النهاية يا اخي . ومرحى للحرب
ما دامت في سبيل المجد يصرم سعيها . ان الحرب نار والامم وقودها .
لكن تلك الامم تخرج من انوسها كما تخرج الذهب من الوافد ، وقد
صهرته النيران . قل : ماذا تطلب مني ؟
فأجابه محمد علي :

— سأسعى للحصول من السلطان على العفو عنك . فتعود الى
لبنان ، وتعد للحرب المقبلة عدتها ، وتعد للحادث المنتظر سبيل النجاح .

إني اعتمد على رحالك الأشداء . ولن احشى عدواً ما دمت لي ملصاً
وم الانفاق بين رحلتين - وهما من اساع الدولة - على مهاجمة
الدولة ، وقصاع حرمه من ملاكها وولايتها

كان الامير دت ليلة حالساً في حفلة سر وطرب ، احياها القبايد
اراهيم بن محمد على اضيفه الكريم ، ودخل صاحب وقال له : ان فارساً
من رحل حاشيه بطلب الثول بين يديه
رس له الأمير دلدحوب . ودخل الشاب وقال :

مولاي . وصل رسول من الحبل يحمل اليك اخباراً
قضاة دثير قانلا :

- كنت في انتظار ذلك الرسول يا فريد . فدعه حتى يستعير قوام
ويأخذ له بعض الراحة . سأجتمع به الليلة في دار الضيفه
فالتفت محمد على الى ضيفه مبتسماً وقال مستفهما :
- أرحن هذا أم امرأة ؟ والله لو لم نصاده يا فريد ، لطنته فناء
فقال بشر .

ولكنك على صواب في طلبك ايها الأمير ! فريد فناء كما
تقول !

- كيف ذلك ؟ وما جاء بها الى هنا ؟

ايها لانفارقى خطوة واحدة منذ سنين . وستظل في معي الى
أن يفرق الموت بيننا . ألت صادقاً في قولي يا فريد ؟
فنظر الشاب إلى الامير نظرة حب وحنان وقال :
- ألت صادق يا أبي : لن يفرق بيننا غير الموت !

فأمر محمد على في أمر العتي - أو العتاة - وطلب الى ضيفه ان يقص على
الحسن قصة فريد . لكن الامير التفت الى الفارس وأمره بالطف قانلا :

- قص عليهم قصتك بمعك يا بني . فليس فيها ما يدعو الى السكتم

قالت الفتاة :

— ان اسم « فريد » الذي اطلقه علي مولاي الامير ، اسم ممتاز .
ابي ادعى « درة » . وكان ابي « ابو صرعام الصيري » من تحار
الحيل في بادية الشام . ربيت في كسفه ، بعد أن ماتت أمي وأنا في الثالثة
من العمر . وترعرعت في البراري والفقر ، تارة أرافق أبي في روحانه
وغدوانه ، وتارة أقيم عند الأهل والأصدقاء في سهول « حوران »
أو في وعر « اللحاء »

« وحدث يوماً أن سافرت مع أبي إلى الحجاز وعهد . وعدنا من
هناك ومعا مائة من حياض الحيل ، ووجهنا فلسطين وحال لسان . فطوبنا
القيافي والفقر . واحترنا حمل الدرور وحوران . وأوشكنا أن نصل
إلى نهاية رحلتنا . لكن ركنا من العربان فاحاًنا هجومه . ووقعت
مصادمة شديدة بين رجال القافلة وأبناء البادية

« دافعنا عن أنفسنا دفاعاً عييداً . وحاول رجالنا أن ينفذوا جزءاً
من الأموال والحيل . لكن المهاجمين كانوا أكثر منا عدداً ، ولئلا
الساثر يقول : « الكثرة تغلب الشجاعة ! »

« علبا على أمرنا . فمات منا من مات ونشئت الباقون في البراري .
وعاد البدو من حيث أتوا بعد أن سافوا معهم الحياض والأموال . أما
أنا ، فقد أصبت بجرح في حصى الأيمن ، وبقيت على الأرض مفشياً عبي
ساعات عديدة

« ولما استيقظت من ذلك الحلم المرعج ، وجدت نفسي وحيدة على
قيد الحياة ، بين جثث القتلى المبعثرة هنا وهناك
« هصت . . . وأخذت أعدو في ذلك الحميم ، باحثة عن أبي ،
منادية مستغيثة والدم يسيل من جرحي

« أني . . . وحدته . . . ولكن حنة هامة بين الحث الهامة
 الأخرى أقصى المسكين بطعة رمح سدتها إلى صدره يدحرم أقيم
 من أولئك الفتلة السعائين . فصعدت روحه إلى خالقها تشكو إليه
 طم الأسان لأحبه الأسان
 « وكدت أموت عما وكسراً ، لو لم يلتقطني الرعاة في ذلك السهل
 اللعين

« ثم أخذوني معهم إلى « وادي التيم »
 « وهناك ، نظرت في أمري ، وعولت بعد التمكير الطويل على
 الذهاب إلى سيد لبنان وأميره فقطت
 « وحسباً فعلت ! »
 فقاطعها بشير قائلاً :

« - حاسي درة في حالة يرثى لها . فأشفت عليها ، وأعادت بجرأتها
 ودكانها ، وأمرت بإدخالها القصر في « بيت لدين » حيث أقامت مع
 أهلي وأبناء أسرتي
 « لكنها رعت الي ، بعد شهر مصت على ذلك الحادث ، في أن تسير
 في معي وتدخل في سلك حرسى . فأحبتها إلى رعتها . لكنها حذرتها
 من الاحتلاط بالرجال . ولم أجد في نادى . لأمر لأحد ماها فاة . وهذا
 هو الداعي إلى نسيتها باسم رجل . فابى دعوتها مد ذلك اليوم باسم
 « فريد »

« أما الآن ، فالجميع يعلمون ماها فاة واسما في معيق ، تقوم بحديثي
 الخاصة ونحرس بابي . »

صدر المعو عن أمير لبنان بفصل الساعى التى بد لها صديقه محمد علي
 باشا . فعاد الى وطنه في شتاء سنة ١٨٢٣

ومضت عشر سنوات على ذلك اليوم الذي قصت فيه درة قصتها على
مسمع من عطاء مصر وقوادها ، في تلك الحملة التي أحيهاها ابراهيم
اكراماً لضيافته

وكان الخليعان - محمد علي وبشير - قد نهذا خطتهما ، فمشت حجاج
المصريين على سورية . وانضم اليها هالك عدد عظيم من المتطوعين .
وأصاب محمد علي هدفه ، فتم له ما أراد من سؤدد وسلطان
وكانت درة في أثناء ذلك تقوم واجها كحارس وحيدى ، تسهر
على راحة سيدها ، ولا تنجم أمام الاخطار ، فتحوض عمار الممارك عندما
تقتضى الحال

لكنها أحست قى لم يبل خطوة في عين ولي نعمتها . فأسها الأمير
على ذلك ، وحاول عشاً أن يشترع من قلبها حرثومة ذلك العرام ، الذي
كان يوجس منه خيفة لأسباب لم يسبح بها لأحد
لكن الحب ، متى غلبك قلباً وبسط سلطانه عليه ، كانت له العلة
وفشل أمامه كل سلطان !

أحسن الأمير بأنه لم يمد وحده مالم كقيادة الفتاة . وان هالك قوة
اعظم من قوته تسيطر عليها ، ويعوداً أهد من بعده يسير خطاها . وفي
صباح يوم من أيام شهر يونيو (حريران) سنة ١٨٣٩ ، نادى بشير الشهابي
صديقه الباسلة ، وكانت أمارات القلق والاضطراب نادية على عيانه .
وبعد أن نهى مراراً وحقق النصر طويلاً في درة ، قال لها :

- درة . أني مرسلك في مهمة خاصة اعلق على نجاحها أهمية كبرى .
وبعملى على اختيارك دون سواك لما وضعت فيك من ثقة لا حد لها .
خذى هذه الرسالة واسرعى الى دمشق . وهناك ، عند قوس النصر
القديم التهدم ، تجددين رجلاقي رى بدوى . اقتربنى منه وقولى "بشارا" ،

وعند ما يحبك الرجل : « بشير ! » ادفعى إليه هذه الرسالة وعودى
إلى بلا ابطاء

— لا حياة فيها

— من تكون هذه الفتاة ؟

— من يدري ؟

— فاة متسكرة بملابس الفرسان

— أمر غريب !

كانت تبادلها المارة عندما عثروا على حثة الفتاة المسكينة ، مطعومة
وطهرها ، وملقاة على الحصيص في أسفل « قوس النصر القديم المتهدم »
هكذا ماتت « درة بنت النصيري »

من هو ذلك البدل الحسن ، الذي نادر فتاة طعنة حاجر في طهرها ،
سما كانت تبحث عن الرجل الذي أوقعها إليه الأمير ؟ هل يكون لرجل
المشود هو نفسه الذي فعل تلك القطة الشقاء ؟ وما هو مضمون الرسالة
ياترى ؟

هل يكون الأمير الشهابي قد أرسل صديقه إلى الموت متعمداً ؟
هل في الأمر حياة أو مكيدة ؟ أم كسب لتلك الفتاة على صفحات القدر ،
ان تموت بحجر سراح زعيم ، بعد أن عجزت عن البيل منها في ساحات
الوعى رماح الفرسان وصوارم الابطال ؟

دموع سليمان

حاف عبد الله باشا على نفسه من اتساع سلطة محمد علي باشا . وداحله
 الحسد من نجاح عزيز مصر الستمر ، وازدياد قوته وبموده . فقرر البقاء
 في طاعة الدولة العلية ، وماصرتها عليه . وكان يعجز أن عكاه ، مدينته
 الحصينة ومعقله المسيع . لا تنال أسوارها ولا تدرك أبراجها ، وبطل
 النفس بأن يرى حيوش المهاجرين ترند عن تلك المدينة حائرة ، كما ارتدت
 عنها من قبل حيوش بوارت ، وحارت أمامها عزيمة ذلك القائد العظيم
 أما محمد علي باشا ، فكان قد أعد للهجوم عدته ، بعد أن مهد له
 السبل ، وعقد مع حليفه الأمير بشير اللساني معاهدة أرمب بالنم
 والأقسام المملطة ، ودرب على القتال ثلاثين ألفاً من حدوده الواسل ،
 رودم بأربعين من مدافع الميدان ، وعدد كبير من مدافع الحصار .
 وجهز للسير محراً إلى السواحل السورية ، أربعين من مراكب النقل
 وسفن النقل

لم يبق غير تخمين العرصة للهجوم ، وتعبيد الخطة المرسومة منذ عشر
 سنوات

كان محمد علي ينشط زراعة التوت وتربية دود الحرير في مصر .
 وكان يحلب البذور من لبنان . حال عبد الله باشا دون ذلك ، واستولى
 عنوة على المؤن المرسلة من بشير إلى صديقه وحليفه

وكان محمد علي باشا قد مع هجرة العلاحين إلى خارج القطر
فراراً من الخديوية . ففتح لهم عبدالله باشا أبواب ولايته ، ورحب بأقاربهم
في كنفه ، مكابة بخضمه وتشفيأته

فكان ذلك كافياً لاشغال بار الحرب

وبدأ ارحف في اليوم الثاني من نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٨٣١
سارت الحلة ، بصهار بطريق العريش وبأفا حيفا ، بقيادة ابراهيم
باشا الصغير . وببصها محراً من الاسكندرية إلى يافا وحيفا ، بقيادة
ابراهيم باشا الكبير .

وكان أمير البحر غزن بور الدين بك يقود الأسطول ويشرف
على نزول الجنود إلى البر

وهناك - في حيفا - الفت القويون ، ووحدت الصفوف ، ووضع
قهر الوهابيين ومدوخ المورة الحطة الهائية للبحوم

حصص له في الأدي . الأمر مشاع القدس وببسن وطريق ، لاستيائهم
من عبدالله باشا . فاست الفاع المصري حكمه على المقاطعات المحيطة بعكا
بلا قبال . فأصبحت طرق مواصلاته في م من من سمحات

وشخصت الأنظار إلى عكا

عكا الحصن الحصين ، الذي طابا تعظمت تحت سواره الصخرة
هجت ابحمين . وتنددت ثم رجة الشاهقة حلام المانحين
عكا التي تحوم حولها في سكون الليل زواج الأنظار السعيد ،
الدين أهرقت دماؤهم في حادقها ، وتكدست اشلاؤهم في أرقمها ، من عهد
الاسكندر قاهر العرس والماديين ، إلى عهد عودودوا ، فقد
الصديبيين ، إلى عهد صلاح الدين فجر المسلمين ، إلى عهد بوابرت تابعة
الفرنسيين !

عكا الشاعرة التي لا بد من دلاها

كانت مبيعة مرادها ، الحرار ، مائة بعد ارتداد الفرنسيين عنها ،
وطوقها بسلسلة ثانية من الاسوار والحدائق
وبدل عند الله ثاب جهده في اعدادها مقاومة الحصار المستمر .
فوزع فيها حوده من دالانية والبايين وعرب . وكان لديه من الدخيرة
والؤن والمياه ما يكفيه للمقاومة سنوات

شرع المصريون في الحصار رآ وعمرآ ، في الساح والعشرين من
نوفمبر سنة ١٨٣١

وفي الثامن من ديسمبر (كانون الاول) ، اطلقت المدافع للمرة الاولى
على المدينة من جميع جهاتها فقام لها رجال عند الله نار حامية
وشدد ابراهيم على عكاء الحصار ا

أقل عليه التطوعون من كل صوب ، وحمل اليه بشير الشهابي
وأبازة - نعمهم كواكب الفرسان - تحية الحل الابيض ، ودعاء
البنانيين بفتح قريب وفوز مبين

وزع ابراهيم حوده على المدن المحتلة ، وفق معه عشرون ألفاً من
الرجال ، وستة وثمانون من مدافع الحصار

واستقبل عند الله باشا في المدافع عن أسواره . فأرسل اليه ابراهيم
يعرض عليه التسليم ويعدّه معاملة بالحنى . لكنه أبى وعهد الى مدافعه
في الاجابة عنه

فشدد ابراهيم على عكاء الحصار ا

وقلق السلطان . فأوفد الى محمد علي باشا رسولا يعرضه في الداء
السلاح ، لان الحرب تحول دون وصول الحجاج الى بيت الله الحرام
فأبقى محمد علي رسول السلطان شهراً كاملاً في محجر الصحن ، محجة

أن في الاستانة وباء، وأن الرسول قد يكون حامله جراثيم قاتلة من ذلك الباء

وكانت يرن الحرب تشتد في تلك الاثناء سعيًا . فعطن السلطان الى الحيلة . وأصدر أوامره الى حكام البلاد بأن يحدوا حيوشهم لملاقاة ابراهيم ورده على أعقابهم

فاشد ساعد عبد الله ماشا ، وتصاعف عاده في المقاومة

وشدد ابراهيم على عكاه الحصار !

وفي الثالث والعشرين من ديسمبر ١٨٣١ أحدثت المدفعية المصرية النفرة الاولى في سور المدينة الشرقي

واحد المصريون بمساعدة السابيين مدن صور وصيدا وطرابلس وفي أول شوان ١٢٤٧ هـ - الموافق ٣ مارس ١٨٣٢ م - صدرت المدفعات النهائية ، حلبة من دكر مصر . ووجه السلطان الى محمد علي وانه ابراهيم انذارًا مهائبا بالرجوع الى الطاعة فضرب محمد علي بالانذار عرض الحائط وشدد ابراهيم على عكاه الحصار !

كان يعقد الجنود سعة . ويشرف على الاعمال الحربية في الليل والنهار . وفي العاشر من شهر مارس (آذار) أحدثت المدفعية المصرية في الاسوار ثغرة ثاية . فدخل منها الى المدينة قسم من الجيش ، ودارت معارك دموية هائلة في الشوارع والمارل ، واصحرت الالعام تحت أقدام الجنود ، فاضطروا إلى العودة الى ماوراء الاسوار . . .

لكم لم يقدوا قوتهم المعوية ووثوقهم من النصر، فتهعوا لقائهم وجددوا له ايمانهم فيه وثقتهم به

وشدد ابراهيم على عكاه الحصار !

وفي أواخر مارس ، عين الباب العالي وريه حسين باشا قائدا عاما

للجيوش المصرية . وولاه حكومة مصر وكريت والحشة . وصدر الأمر
بعزل محمد علي باشا من ولايته

فاستصدر محمد علي من الشريف محمد بن عون فتوى بتكفير
السلطان محمود . وطلب من ولده أن يدرك نار الحرب سعيراً
فشدد إبراهيم على عكاه الحصار !

وسار بنفسه إلى طرابلس وجعل يحمي . وسلك بالاعداء في
مواقع عديدة

ثم عاد إلى المدينة المحاصرة ، وعقد في السادس والعشرين من شهر
مايو (أيار) ١٨٣٢ مجلساً حربياً ، تقرر فيه القيام بهجوم عام للاستيلاء
على عكاه

وفي اليوم التالي ، تمكن قائد المدفعية ، سليمان بك الفرنساوي ،
من إحداث ثغرات جديدة في الأسوار

فجرد إبراهيم باشا سيفه ، وهجم في طلعة الحدا كأنه الريح المهبوب
أو البلاء المصوب . فاندفع الجيش في أثره وتدفق إلى داخل المدينة
كالأمواج الهائجة المربدة . ودارت رحى القتال بين الفريقين . فالت
السماء عزيرة ، وبيعت الأرواح رحيله ، وكان إبراهيم يرى في كل
ناحية من ذلك الحميم ، وقد صدق فيه قول القائل :

كأن سيوفه صبت عقوداً تحول على التراب والحدود !

دافع عنده الله باشا عن مقله دفاع اليانس الستيت ، وحاول عشاً
أن يصد عنه هجوم « أبالة الميادين » وأن يتقدم في آن واحد أسرته
من الموت ، وثرثرونه من السلب ، وولايته من الصياح
كانت الحصون تحمي جيشه أثناء الحصار . أما في مصار القتال ،
فإن ذلك الجيش كان أصعب من أن يقوى على الثبات أمام الحدود

المصرية المطمعة. وحدث أن دكت أسوار المدينة ، وأهزم المدافعون عنها ،
سقط ذلك الحصن الحصين في فصة العراء ، وفر إبراهيم باشا المصري
بما عجز دونه القائد العظيم بوناپرت الفرنسي
طن القنار الى ما بعد منتصف الليل . وعلى صوء الشاعل ، تقدم
عبد الله باشا طالباً بالعمو والأمان
فمعا ابراهيم عنه ، وأمنه على حياته ، وأرسله الى مصر حيث أسكنه
محمد علي قصراً فخماً في جزيرة الروضة

كان معظم الفصل في ذلك الانتصار الدهر لقائد المدفعية لمصرية
« سليمان بك العرساوي » الذي أحدث الثمرة الاولى في تلك الحدران
المائلة المحيطة بالمدينة احاطة السوار بالمعصم ، وحطم بقذائفه الصائفة
الابواب الصلبة المنيعة ، ومكن الحدود من اقتحامها وزيادة حاميها
والفصل على عبد الله باشا وسوقه الى الأسر دليلاً
وقد هب ابراهيم قائد مدفعيته ، وثنى على مهارته ، وعهد اليه بقيادة
سنة آلاف من أبطاله الواسل . عار بهم من ميدان الى ميدان ،
والغور حليبه وحليهم . فهزم الأتراك في بيلان واسكندرونة ، ومهد
السبل للمصر في وقعة قوية المصلحة ، كما مهده من قبل أمام أسوار
عكا .

فكافأه ابراهيم بأن أتم عليه برتبة « باشا » وخصه بثقة ومحبة دون
سواه من القواد والاصار

القدس الشريف . . . أورشليم . . . بيت المقدس . . .
فم حاشعاً أمام تلك القرية الكبيرة المهدمة ، وبمها ما شئت ،
وهي في نظر لادبان الثلاثة مهبط الوحي وموضع الاحلال والاكرام

ثم نحول في طرقاتها ، وتوغل في ثايات أرقتها ، وتصفح تلك الوحوه
التي تلاقيها في طريقك ، تجد فيها أعموداً من كل بشرة وسحة
ذلك لأن المدينة المقدسة ، التي اتخذها الأدياء والرسل موطناً
ومقاماً لهم ، كانت ولا تزال في أعين البشرية وعرفها ، موطناً ومقاماً
لكل إنسان مهما يكن مذهبه أو جنسه !

وهذا الاحتلاط العريب الذي نشاهده اليوم في أورشليم ، كان
من قبل وسوف يظل من بعد على كثر الدهور ، صفة خاصة بالمدينة
السورية ، وطابعاً يميزها عن أحوالها في مختلف الاقطار والامصار

تمتعت أورشليم في عهد المصريين براحة لم تمهد لها من قبل . وساد
بين سكانها روح وثام لم يألفه أسلافهم في العصور الخوالي . فعم الهدوء
والخمر ، وارتفعت الاصوات بأيات المدح والثناء ، تترنم بمدح ابراهيم
وتضرم الى الله يبقائه وتثبيت سلطانه

وكان سليمان باشا الفرنسي ، ممن يحملون في طيات صدورهم
احلالاً خاصاً لتلك المدينة الباريحية العظمى . فكان يتردد عليها أثناء
إقامته في أرض الشام ، وبطوف فيها باحثاً متفرحاً سائلاً
دخولها ذات يوم بعد عودته من قونية ، محتطاً بصهوة حواده العربي ،
وجعل يتفقد بيت المقدس كمادته

وصل الى قبر المسيح ، وقف أمامه حاشعاً ، وسرح بصره بعبا
ويساراً ، وم بتابعة السير

لكنه أحمل فجأة ، وترجل مسرعاً ، وقد ارتاحت على وجهه أمارات
الدهشة والحيرة

ذلك لانه أبصر ، على مقربة منه ، شخصاً لم يكن ينتظر لقاءه في ذلك
المكان . شخصاً أعاد الى دهره ذكرى أيام حلت ، وحوادث تركت في
نفس ذلك الجندى أثراً عميقاً !

اقترب سليمان من ذلك الشخص مضطرباً مرتجفاً ، يحدق فيه
البصر ، ولا يدري أفي حلم هو أم في يقظة
ونتمه سائلاً :

— ماري لويز ؟ —

رفع الشخص رأسه . . .

هي امرأة في الخامسة والأربعين من عمرها ، لب الثيب في
رأسها ، وحمرت الشجوحة في وجهها الاحديد قبل الاوان
نطرت الى الرجل الشاحص أمامها بمبين قد أطفئ فيها بريق
الدكاه . وراد حبيبها تقطاً ، كأنها تبحث في سجل ذاكرتها ، عن اسم
سبق لها أن طعته فيه . ثم اخافت شمتها وسقط من يديها هذا
الاسم :

— سيف ؟ —

هو اسم سليمان باشا المرساوي ، قبل أن يهجر وطنه فرنسا ، ويحط
رحله في مصر ، ويستعص عن فرنسيه ومسيحيته ، بمصريته واسلامه
سأل المرأة :

— كيف وصلت الى هذه الافطار ومادا تصنعين ها ؟ —

— اقيم في هذه المدينة مع زوجي ، وهو خادم في كيسة اللاتين

— زوجك ؟ أتعنين الضابط شارل جيرار ؟

— أجل —

— هل شفى من جرحه ؟ —

— نعم ، لكن الاطباء قد بتروا ذراعه اليمنى

— ممكن جيرار ! —

وعاد سليمان بذاكرته الى الماضي ، الى ثلاثين سنة خلت ، حيث
كان جندياً في البحرية الفرنسية

كان يحب الفتاة « ماري لويز » وهي من مدينة « ليون » مسقط رأسه . وكان الثمن والعتاة قد تعاهدا على الزواج

لكن الصابط « سيف » كان شرساً رجعاً الى الحرية والاستقلال في الرأي والعمل . فقامت ذات يوم مشاحرة بينه وبين رئيسه ، في السفينة الحربية التي كان يخدم فيها ، فبهجم سيف على عريته ، واهمال عليه ضرباً ، وكاد يودي بحياته لو لم يدركه الجنود

وتمثل سيف أمام عمكه عسكريه حكمت عليه بالاعدام
لكن أحد اصدقائه المعجبين بشجاعته واقدامه ، بدل نفوده لدى الامبراطور نابوليون . فأبدل حكم الاعدام بنفوذه اخرى وقطعت اسيرة العتاة بعد ذلك الحادث كل علاقة بالجندي الشرس المحكوم عليه

ثم مرت الايام . وارتقى سيف في سلك الحربية من رتبة الى رتبة ، مشتركاً في حروب نابوليون وعرواته ، بلى في الميادين البلاء الحسن ، ويصاب بجرح اثر حرج ، وينتقل من مصر الى مصر
وكانت حروب روسيا سنة ١٨١٢ . فاحد سيف نصيبه منها ،

وقطع مرحلة جديدة في مراقى الجند وهناك ، في تلك الاصقاع الثلجية ، بدأ كان جيش نابوليون عائداً أدراجه الى فرنسا ، والاعداء يمدقون به من كل صوب ، والجنود يسقطون في الطريق جوعاً واعياء ، هناك التقى سيف ثابته بالمرأة التي احبها وأحبته

كانت ماري لويز قد التفتت بالحيش ، تخدم الجنود وتواسي الحرحى ، وقد ارعها اهلها على الزواج بالصابط حيرار ، من رجال المدوميه أصيب اروج بشطايا قسلة هشتت دراعه البهي ، اثناء احتيار الحيش جسر « البريبا » ولولم يدركه سيف ويعمله وراه على سرح

حواده ، الى مركز الاطباء وامر صين ، لفصى الرحل نجبه في ديار الغربية ،
بين التلوج المتراكمة

وهكذا ، قد سيف الرحل الذي حل مكانه في قلب حبيته !

ففت ماري لوير على سليلها باشا قصتها . وأحبرته كيف خرج
روحها من الجبش بعد رواة الامراطورية من فرنسا ، وقبولة العمل في
دير الرهبان للاتين بالقدس الشريف ، بعد أن سدت في وجهه أبواب
الرزق في وطنه

أصغى اليها القائد واحداً حزيناً . ولما أنتمت حديثها سألتها :

— وأنا . أما زلت تذكرينني بالحير يا ماري لويز ؟

فصكت المرأة لحطة ، ثم نظرت اليه بعينها ، وقد عاد اليها بريرة هما

الاول ، ورفرفت فيهما الدموع ، وقالت بصوت متمدح حزين :

— لقد أحسنتك يا سيف ولم أحب قط سواك . لكن ذلك الحب

قد أمسى من آثار الماضي ، فانتقل من القلب إلى الذاكرة !

وأحد سليلي باشا يد ماري لوير ، ووضع عليها قلعة حارة

م ثم لك الفسلة عن حب وهيم . ولكنها كانت رمر احترام

و حلال

واعرورفت عيناها الدموع . وهي الدموع الاولى التي سقطت من

مقلة ذلك القائد المعوار !

خبط العنكبوت

دمبر سنة ١٨٣١ . . .

دخلت الحيوش المصرية بيت المقدس . ففتح في الانواق و ادى
النادى داعياً وحوه المدينة وأعيانها الى الاجتماع أمام المسجد الأقصى .
على الجميع النداء ، ووقف فيهم رسول ابراهيم يصي اليهم بمشيئة العائد
العام ، وبتلو عليهم «مرسوماً» يوجه فيه ابن محمد على الخطاب الى الناس
باسم آية عزيز مصر :

«الى شيخ الحرم القدسي ، الى مفتي هذه الديار ، الى النائب وحنا
الاموال وغيرهم من حكام ومشايخ ورعما في ولاية صيدا وبيت المقدس
والناصرية والنادية . يقول ابراهيم بن محمد على : بامى أنت اليهود
والنصارى لا يعاملون بالحق ، فأمر بالناسخ في معاهلهم . وأمر أيضاً
برفع النكاليف عنهم لأنها تؤخذ منهم ظلماً وحقوراً . وسواء لى أكل
أولئك النصارى واليهود من أبناء هذه البلاد أو من الاعراب المقيمين
فيها أو الحجاج الذين يعدون على بيت المقدس راشرين متركين . وأمر
أيضاً بالغاء رسوم الخمر التي تحبى من النصارى الذين يقصدون الى
صفاى نهر الشريعة للاعتال في مياهه المقدسة ، أو الى كبسة القيمة
لأداء فروض العبادة والصلاة . وأمر أيضاً بأن تكون حرية الأفراد
محترمة في أعمالهم ومعتقداتهم وروحانهم وغدواتهم . وأمر أيضاً بالآ

باسم الحق بالغال . وسأشهر على راحتكم جميعاً وأحصى نوا
الاصناف برزوف فوق هذه البرموج وبحق حموق أعلامنا المنطرفة في
ميدان القتال . هذا ما يأمر به ابراهيم بن محمد على ويكوبوا له طائعين .

بويه (حرران) سنة ١٨٣٢ . . .

عقد اليهود في المدينة محسناً . فصدر الخادم « كوهين » الشردي
ذلك المحس . وألقى على الحاصرين بعد أن أكمل عقد هذا
السؤال :

« كلفت بأن أحمل إلى قائد المصريين شكوى أبناء إسرائيل . فهل
يسمكم من لديه شكوى يرفضها إليه ؟ »
فأجابوا جميعاً وبصوت واحد : « لا »

وهي « حاتم الحداد » وبعد الاستئذان والسبح له بالكلام قال :
« أنا من أبناء الشعب فيها الاحوان . أحترف مهنتي في هذه البلدة
عدد . أكثر من عشرين سنة . ولم تمر علي أيام أفضل من هذه الايام
فقال الخادم كوهين :

كان الحكام من قبل يهتمون تأمين الحقوق وإقرار الكيفية .
فكان حل الامن مصطرباً . والساس على أموالهم خانقين . ولهم
والسب معرضين . ألم يشبهوا الحكام السابقين برمال الصحراء
الذئبة السماء ؟ كانت أموالها تنسرب إلى جيوب أولئك الطغاة كما
تنسرب المياه إلى حواف الرمال . أما الآن فقد تبدلت الظروف وتغيرت
الاحوال . إن ابراهيم المصري قد صرب على أيدي المفسدين ودفع عن
الناس شرهم . لقد أمر حدوده رد الاسلاب والعائث التي أحدها من
الاهل في عكاه إلى أصحابها . وأمن الجميع على أملاكهم ومقولاتهم .
فصرع إلى الله أن يحفظ ابراهيم من الاديء وأن يصير حيوشه على

اعدائه ، ويدلن في طريقه الضعاف ، ويصوبه من كيد الكائدين ،
ويهص الجميع ، ورفعوا الى السماء اكف الصراعة قائلين صوت
واحد : « آمين ! آمين ! »

عاد حاتم الحداد الى منزله في المساء ، فحقت ابنته واستيرت للعائنه ،
وضمها الرجل الى صدره ، ودخل الاثنان الى العرفة الوحيدة التي
يتألف منها المنزل الخفير
وسألت الفتاة أباهما :

— لماذا تأخرت في العودة الليلة يأتى ؟ ألا تعلم اني أخاف عليك ،
وان وجود المصريين في هذا البلد يعلأ قلبي رعباً ، ويتمع عني الراحة
مادمت بعيداً عن البيت ؟

فطسح حاتم قبلة على جبين وحيدته وقال :

— لا نخشى شيئاً أينما الحنية . فان المصريين يحافظون على أموالنا
ويحترمون حرمتنا ، وقد قيل لى ان قائدهم ابراهيم باشا بن محمد علي
والي مصر ، يشدد المراقبة على حنوده ، ويخرج ليلاً متسكراً للوقوف
بفسه على حركاتهم وسكناتهم . وما تأخرت ليلة إلا لأني كنت أصع
في مكان أمين النفود التي حامى بها حظيتك « الياهو » وأودعها أمانة
بين يدي

— وأين وضعتها ؟

في حفرة أعددتها لهذا الغرض في الخانوت . وقد وصفت فيها
أيضاً جميع ما أملك من مال

— ولكن ، ألا تخاف أن يسطو اللصوص على الخانوت ؟

— كلا . فان العسس يطوف بانتظام في الأسواق . وأموالنا تكون
في أمان هناك أكثر منها في منازلنا

وبعد سكوت قصير ، مضى حاييم قائلاً :

— دعينا من هذا كله الآن وعلينا بالتوراة . . . فاستمرى في

قراءة الفصل الخامس من سفر تثنية الاشتراع

فنهض العشاء ، وتناولت الكتاب المقدس ، وفتحته في الموضع

الذي أشار إليه والدها وجعلت تقرأ :

« احفظ يوم السبت وقدمه كما امرك الرب إلهك . في ستة أيام تعمل
وتسبح جميع أعمالك . واليوم السابع سنت للرب إلهك . لا تعمل فيه
عملاً أنت واسك واسك وعبدك وامتك وثورك وحمارك وسائر
بهائمك ونزيلك الذي في داخل أبوابك ، لكي يستريح عبدك وامتك
مثلك »

« وادكر أنك كنت عبداً في مصر فأحررك الرب إلهك من هناك
يد قديرة وذراع مبسوطة . ولذلك امرك الرب بأن تحفظ يوم السبت .
أكرم أباك وامك كما امرك الرب إلهك لكي تطوب أيامك وتصبح حياً
في الأرض التي يعطيك الرب . لا تقتل . لا تزني . لا تسرق . »

فتح الباب فجأة وظهر فيه « الياهو » حطبت استبر مضطرباً
قلقاً . وما وقع نظره على حاييم حتى صاح به :

— أنت هنا يا عماء والاصوص في حانوتك ؟

صدم الحداد بهذه الكلمات صدمة عبيقة ، وحل دهاشاحص
الصرقاعراً فاه والعرق الأرد ينصب من جبينه . ثم رفع يده ببطء
ومررها على رأسه قائلاً يحاول أن يدفع عنه كابوساً مرعباً
وحشي الياهو عاقبة معاذاته تلك ، فاقترب من الشيخ وحمل يعزبه
وطيب خاطره قائلاً .

ما الداعي الى القنوط يا عماء ؟ فليحمل أولئك الاصوص

ما يجدونه في حانوتك من حداثد يعلوها الصدا . لا يحمل لك ان
تسلم لئأس من اجل ذلك . ولو علمت ان الباسيؤز في نفسك الى
هذا الحد لما حملته اليك

ثم التفت الشاب الى اسير وأوما اليها فاقربت من ايها وطوقت
عقه بذراعها وقلت :

— صدق الياهو يا ابني . فلما من داع إلى اليأس

وقاطعها الشاب قائلا :

— كنت ماراً على مقربة من الحانوت في طريقى اليكما . فتبعت
الى حركة غريبة أمام باب الحانوت ، واقترت فاذا بثلاثة رجال قد
خرجوا من الباب وابتعدوا مسرعين . فادبهم ولكنهم احتموا مهرولين
في الارقة الصيقة تحت حبح الطلام . وأسرعت الى البيت أحمل الخبر
وهنا رفع حاييم رأسه متعتما :

— الياهو ... الويل لي اني لشي تس ... النقود ... جميعها ...
نقودك ونقودى ... كل ثروتنا ... هبك ... في الحانوت ... لقد
سرقوها ...

فاتفق الياهو وقد داخله الخوف على أمواله ، وسأل الشيخ مستعهما :

— ماذا تقول : النقود ؟ هل وضعتها هناك ؟

.. كلها ... في حفرة ... الى عيين السندان ... تحت البافذة . .
ولم ينتظر الياهو أكثر من ذلك ، بل وثب الى الخارج وأخذ يعدو
كالحمون في الأرفة المظمة ، راکصاً الى الحانوت الذى كان يظه حاليأ
حاويا الا من لحدث الصدنة ، والذى كانت جدرانها تصم ثروته ونمرة
أتعابه على غير علم منه ا

عاد الشاب بعد حين بمقع الوجه شاحب اللون ، ودموعه تسيل
غليظاً وكمدأ

ولما دخل عرفة الثرب ورآه حام على هذه الحالة ، أدرك ان المصيبة قد وقعت ، وأن التماس قد اهدوا الى الخدأ وعثروا على الماء ووروا به عابدين
سقط الثاب على الارض ما كبا . لكن الحداد بهن واقرب منه ،
وقال له بلهجة الأمر :

انهض يا الياهو . كنت مد ساعة تأخذ علي استسلامي لليأس
والمسوط . فلا تقع في الصمم الذي كنت تؤنس عليه . انهض ولسرع
الى قائد المصريين ، روع اليه شكواها . ونظت اليه اصافا واعادة
اموالنا اليها

وحرج الانسان الى منزل القائد اراهيم بن عمدة علي ، الذي كان يحتل
البلاد عيشه المظمر ، ويقع في مدينة أورشليم عاصمه الاراضي المقدسة ،
وقبله اليهود والنصارى والمسلمين



وصل الرحلان الى باب الامير فوقفهما الحراس . ولكهما طلبا
بالحاح اشول بن يدي القائد . وكان اراهيم في ذلك الوقت لا يرد راسراً
أو طاب حق عن بانه . فأمر بادخالهم ودخلا . وبعد النجوة حاطب حام
القائد قائلاً :

— مولاي . ان شكوى لا تنطب كلاماً كثيراً . فدعني أبطها
لك وأوجه اليك عتاباً
فابتسم الامير وأجاب :

— قل ما شئت ايها الشيخ فليك الامان ا

— مولاي . بك نعى بالنظام . وتكثر من ذكر الشريعة . وتدعى
بك ما دخلت هذه البلاد إلا لاقامه العدل ولاصاف . ونظمت اليها
ان سام مظلمين على ارواحنا واموالنا ، لانك انت ساهر على الجميع .
فدعني عاك يا مولاي : لقد قضيت عشرين سنة في هذه البلاد

نحت حكم الاترك . الذين حثت بحارهم . دون أن ينفع علي صرر ، او
يعد احديده سوء الى اموالي . اما الآن فقد تعرت الاحواص .
بالامس حثه فاتحا مؤما . واليوم فتحه انصوص حاوتي ، وسرقوا
ما فيه من نفود . فان كنت حامى حيا كما بدعي ، فقص على السارق
واعد اب مالي ؟ هذا ما حثت ارفعه اليك . فاعطيا رهبا إما على قدرتك
وعذلك ، وإما على عجزك وظلمك

ولما انتهى الرجل من كلامه ، قد اراهيم :

— عد الى بيتك ايها الشيخ . وعدا سنفص على السارق ورد

اليك مالك ا

أفاق الناس في صباح اليوم التالي على صوت المادى يقول :

— يا اهل اورشليم وسكان القدس . بأمر القائد العام ، ولامبر
العظيم ، والعماري المظفر اراهيم باشا المصري ، ادعوكم الى الاجتماع
اليوم في منتصف النهار . في سوق المدينة امام حاوت حاييم الحداد .
فان معجزة عظيمة سظهر هناك . . . لا تتخلعوا عن الحضور . . .
يا اهل اورشليم وسكان القدس ، بأمر اراهيم باشا . . .

وما انتصف النهار حتى كان سكان المدينة جميعهم قد توافدوا
ررافات ووحدا على السوق ، أمام حاوت الحداد حاييم ، لرؤية
المعجزة التي وعدهم بها المادى . وبينما هم كذلك ، إذا باراهيم باشا
تقدمه كوكبة من العرس الدروز الذين اتخدم حرسا خاصا ، وبعده
كوكبة أخرى من العرس الارمناء ووط الذين ساروا معه من مصر ،
يخرج من داره ويحترق جموع المحتشدين في السوق ويقف أمام حاوت
حاييم

وهناك التفت القائد الى الناس وقال :

— يا قوم . إن الشرائع تنص على إرث المصاب بكل من يقترب
عملاً شيئاً ، أو يرتكب جريمة ، أو يقصر في أداء الواجب عليه ، سواء
أكان للقصر في أداء الواجب أساساً ثم جوازاً أم في شيء آخر غير مطلق
أو عدول . وقد حثت الآن لآراء العفان بهذا الباب الذي تزونه أمامكم ،
باب حياوت الحداد حاييم ، الذي عجز بالأمس عن حماية أموال صاحبه .
لقد اقتحم المصوص هذا الحياوت وقصر الباب في أداء واجبه ، فليحذر
مائة جلدة !

وطاف المبادئ بعد ذلك ، وأعاد على مسامع القوم أقوال مولاه .
ثم تقدم الجلاد وضرب الباب مائة جلدة !
ولما انتهى الحداد من عمله ، وضع ابراهيم يده على قلب الباب
مستناً ، والناس من حوله ، وأعناقهم متظاولة ، وأعينهم معلقة ، وآذانهم
مرهقة ؟

لكه مالبث أن رفع رأسه وصاح غاضباً :
— لم أفهم شيئاً . . . فليحذر الباب مائة جلدة أخرى !
فتقدم الحداد مرة ثانية ، وبعد في الباب حكم سيده . ولما انتهى
تقدم ابراهيم ووضع يده على القفل ثانية كما فعل من قبل
ثم قال في وسط ذلك الكون العميق :
فهمت الآن . تقول إن الناس الذي اقتحم الحياوت واقف
الآن بين هذه الجماهير ؟ وإن على رأسه حيط عنكبوت علق به أمس ؟
حسن حسن !

ولما أعاد المبادئ كلام الأمير بصوته الجمهوري ، رفع ثلاثة رجال
أيديهم إلى رؤوسهم باحثين عن خيط العنكبوت !
وكان حوود ابراهيم قد انتشروا بين الناس ، وهم على علم بالخيلة التي
عمد إليها قائمهم ، فقصوا على الرجال الثلاثة ، وانصح أنهم المصوص

الذين سطوا على حاوت حليم الحداد ، وسرقوا منه المال المودع في الخفرة
وحي . هم الى الامير ، فاعترفوا بنسبهم ، وحكم عليهم ابراهيم بذلك
الى صاحبه . ثم أمر محمدم كل واحد مائة حلقة ، اسم باب الحاوت الذي
اقتحموه بالامس !

ولما رأى حليم ذلك ، اقبل على الامير والقى بعسه على قدميه بقبلها
مرددًا :

- إنيك نامولاي حليمي حمانا ، ومقيم الاصاف بيدينا ، ورافع لواء
العدالة في ربوعنا !

فأخذته ابراهيم بيده وقال :

لن يذكر التاريخ أن ابراهيم بن محمد بن علي ، عامل الاصدقاء معاملة
الاعداء ، أو نام على صميم ، أو لم يستمع لشكوى ، أو ترك سيئة تركت دون
أن يقص من فعلها . فذهب يا حليم ، وعد الى حاوتك ، وم في بيتك
مطمئناً على نفسك وعلى أموالك . فان عبي ساهرة لانيام . وليعلم الملا
اننا نشهر ميزان العدل حتى أردنا ، ونجرد السيف حتى شئنا ، واتنا لمنصفون
في الرعية ، ومستصرون في الحروب لدموية .

كان ذلك اليوم يوم فرح وحنور في منزل حليم الحداد . ولما قص
الرحل على ابنته ماجرى في السوق أمام الحاوت ، قات العناء والدموع
تفرق في عيها :

كنت أصمر لأولئك المصريين شرراً ، وكنت أكرهم وأصرع
الى الله أن يقدنا من أيديهم كما أغد أحداً منا من العراصة أحداً .
أما اليوم ، فقد عدلت عن رأيي الاول ، وصرت اعتقد أنهم حكماء .
حسن جداً يا ابنتي . انك لاني صواب في اعتقادك ، وهل يحمل بها أن
سي . الوطن بعد اليوم في أولئك المتحيزين ، وأن يطلب منهم رضاء على حسن

بينهم وصدق طوبيتهم، سطع وأجلى من السى أدلى به الياس ابراهيم اليوم؟
ووجد سكوت قصير قال :

عليها بالوراثة يا اسير . واستمرى في قراءة الفصل الخامس من
سفر تثنية الاشتراع ، في اموضع السى وقعت فيه عن القراءة دخول
الياس حاملا اليها ذلك النبأ المزعج

فساوت الفتاة التوراة واستمرت في قراءتها :

« لا تذل . لا ترن . لا تسرق . لا تشهد على صاحبك شهادة زور .
لا تشته راحة صاحبك ولا تشته بيته ولا حقله ولا عده ولا أمته ولا
نوره ولا حمارة ولا شتاءها لصاحبك . هذه الكلمات كلم الرب بها
جماعتكم كلها في الجبل من وسط النار والعمم والدحن بصوت عظيم ولم
يزد . وكتبها على لوحى الحجر ودفنها الى . . . »

وصم حام الشاب والفتاة إلى صدره وقال :

— لقد عشنا معاً يا بى في السراء والضراء . وأوشكنا أمس أن
نصبح فقيرين معدمين . فصع على حين حظيتك أستير قلعة المحبة
والإخلاص . وعداً سيعقد لك عليها . وتبتسم لك الحياة عن نقرها ،
تسفلان معاً السعد والرغد والمساء .

زهرة المغرب

— اعد مات أنى ، ومات أنى ، ولم يبق لي في هذه الدلة من
أمت اليه بنسب . فخير ما أمنته أن أرحل عنها !
هذا ما كان يقوله الشاب : أحمد الدباع ، الحارث في مرق
على شاطئ البحر ، في مدينة غزة ، السورية
فأله الجار :

— وإلى أين تقصد يا أحمد ؟

— سألتحق بالجيش المصري متطوعاً . لعل حمى القمل وضوضاء
المعارك ورائحة البارود وصيل السيوف ... لعل كل ذلك يسبب بعض
ما أأنا فيه من حزن وكمد وأسى !

وفي اليوم التالي ، وضع الشاب فكرته موضع السعيد ، وحقق
رغبته في الالتحاق بجنود إبراهيم المظفرة

كان ذلك في شهر مارس (آذار) سنة ١٨٣٢ . فأرسل أحمد الدباع
مع فريق من المتطوعين إلى طرابلس ، التي استولى عليها العراة ، وأقاموا
فيها حامية مؤلفة من ألف وخمسمائة جندي مصري بقيادة الأميرالاي
أدريس بك ، وألف فارس من دروز لبنان بقيادة أحمد الخال
الأمير بشير ، وخمسمائة من متطوعي نابلس وغيرها

وهاجم الأتراك المدينة بعد وصول الشاب بثلاثة أيام . فوج أحمد

للمرة الأولى ييران المعارك ، وداق مع رفاقه الأشاوس لئلا القتال
ونشوة النصر !

دافعت الحامية عن المدينة دفاعاً جيداً . لكن القائد التركي عثمان
باشا اللبيب كان بها حياً محبش لحب ومعدات هائلة . وكان إبراهيم باشا
في ذلك الوقت يحاصر عكا . لمبة
رأى القائد المصري أن لاند من وجوده في ميدان الشهب . وشخص
لى طرابلس في اليوم الثاني من شهر ابريل (يسان) ١٨٣٢ ، على رأس
قوة من رجال الحرس وفرسان الجيش والبادية . وما علم عثمان باشا
بقدومه حتى ولى وحيشه الأدمير ليلا ، مهتماً بلا قتال ، نحو « حماة »
لكن إبراهيم باشا لم يعادر عكا لمشاهدة العدو هارباً خائب . بل
لإضافة انصار حديد إلى الانتصارات السابقة . فتعقب العادين بهرسانه ،
وصات السيوف تعمل في أقبعتهم ، واورماح في ظهورهم ، حتى تم له ما كان
يشده من قورمين ، وتشتت ذلك الجيش في السهول والحقول ، واستولى
المصريون على آلاف الأسرى وأكادس مكدسة من الأسلحة والمؤن
ذلك هي المعركة التي دوسها التاريخ باسم « موقعة حمص » ، والتي
كان في استطاعة المصريين أن يجعلوا عوقها أشد شؤماً على الأتراك
بما كانت ، لو لم تنقصهم دحائر القتال !
كانت لأسلحة منوارة لديهم ، لكن القذائف كانت غير كافية ،
فاضطرا إبراهيم أن يتفقر إلى بملك حيث يحارون الجيش ودخائره

طن العدو أن المصريين قد ارتدوا إلى الوراء خوفاً وحرعاً .
فاستعاد عثمان باشا رشده ، وأعاد الكرة بفلول حيشه والفيالق التي
وفته من الشهب ، وهاجم إبراهيم اعتماداً منه أنه سيأخذها على حين
غرة ، وذلك في ربيع عشر من ابريل سنة ١٨٣٢

كان عدد المصريين ستة آلاف جندى ، وعدد الانراك أضعاف ذلك .
 فعهد ابراهيم الى سليمان المرناوي بالاشراف على القتال . وصمد ذلك
 المداخية للعدو بجيشه الصغير في سهل « ابراعة » ، وما كاد ينتهي من
 التآهب للمعركة ، حتى كان لاراك قد أحاطوا به من الجهات الأربع
 طخوا أن الموز حليفهم . واعتقد عثمان باشا أنه سيعود في ماء
 ذلك اليوم ، سائفاً أمامه ابراهيم أسيراً دليلاً . لكن أحلامه تبددت .
 وماله تلاشت ، وما انقضت ساعات معدودات حتى كان ذلك القائد
 يطلق ساقيه للريح ، طالباً مسترحماً من حدوده أن يعبروه حواداً بمتطيه ،
 بعد أن قتل حواده تحتة في حومة الفمال

كانت هزيمة الاراك في ذلك السهل شعبة معية . ولم يقف عثمان
 باشا في قراره ، إلا بعد أن اطمأن على حياته في مدينة حماة

واشتدت عزائم الحود بعد ذلك العور العظيم . وزالت الشكوك
 من نفوس المترددين من أبناء البلاد . وتضاعفت بذلك قوى الجيش
 القامح ، وازداد عدد أسواره وحلفائه

عاد ابراهيم إلى طبلك ، حيث واهاه عباس بن طوسون باشا بمرقتين
 من المشاة والمرسان ، وهناك أقيم مهرجان نظم . احتمالاً بالنصر ،
 وانهاجاً ماهزاهم الاعداء

وورع ابراهيم على الحود والمتطوعين أسلاب المعارك ، وكان يحذر
 أمام كل واحد ممن أبوا في القتال السلام الحسن ، كلمة طيبة يقولها ،
 وثناء مشجعاً ينم به على أولئك الابطال

كان المتطوع العربي « احمد الداع » في عداد الرجال الذين قتلوا
 قتلاً مجيداً ، واسترعوا أنظار القواد والصباط ، فهذه ابراهيم على
 إقدامه ، وخصه في توزيع الهبات والعطايا بعنايته

فقطب ابراهيم جبينه وقال :

— انذكر هذا الاسم

وطن الشاب أن ماضيه سيجمع له . فقبل الارض بين يدي ابراهيم
وقال :

— نعم يا مولاي لقد تفصلت وأبديت ارتياحك الى سوكي
في الميادين

لكن القائد المصري كان يتبع في أحكامه مسجعا غير المباح المأثورة .
فصاح بالرجل غاضبا :

— أيها الشقي النفس . لو كنت حنانا لو حدث لك في حيك عذرا
يدفع عنك تقمقي ، ولأطلقت سراحك واكتفيت بطردك من الجيش .
لكنت شعاع ، وذهبك يتصاعف بالنسبة الى شعاعتك . لان الشعاع بعد
عبر ما تيمنا عند ما يفد على اعمال كالتي أدمت عليها

ثم سأل الجلادين :

— بأية عقوبة حكمت عليه ؟

وأحاطوه :

— عشرين جلدة !

صمت ابراهيم هنيئة . ثم قال بهدوء وتؤدة :

ليجند أربعين جلدة . غير أن يقال عن حودي إهم يعرفون
من الميادين ويتحبسون القتل ، من أن يقال عنهم إهم يلبون لارة
وينهون المنازل ويستندون على العزل المصفاء !
فخذ الرجل أربعين جلدة !

ثم أعيان أعوام مرت على ذلك الحادث

فر احمد الدباع من الجيش المصري . وهام على وجهه في العباسي

والفقر ، يقطع لغاور الشاسه ، ويعيش كما يعيش الشريد الطريد
وفي سنة ١٨٤٠ كان الرجل في الجزائر ، حيث رفع الامير عبد
القادر من محي الدين الهامشي نواه الثورة ، مستهصاً هم القبائل ، داعياً
أبناء قومه الى الجهاد في سبيل الدين والوطن
وكانت سل العيش قد صافت في وجه الجندي الغار ، فيئس من
الحياة ، وحدثه نفسه بأن يصم الى صفوف العرب ، كما اصم من قبل
الى صفوف المصريين

فذهب الى عبد القادر ، ولما مثل بين يديه قال :
— لست من أبناء قومك أيها الامير . لكنني من رجال الناس
الذين أموا الكر والعز في ساحات القتال . فأطرب منك سيماء أو
رمحاً ، وأضع حياتي رهن اشارتك
— هلا بك يا بني . لك ماتريد . على شرط أن يكون الدم لذي
يحري في عروقك دماً عربياً أصيلاً
فص الرجل على الامير قصته ، فأصمى اليه عبد القادر . ولما انتهى
من حديثه ، قال البطل الجزائري :
كفر ادن عن دسك الماصي ، وقابل في صفوفنا قتال الابطال ،
وتجنب أعمال اللصوص ا

يوليه - تموز - سنة ١٨٤١
فاحت كوكبة من الفرسان العربيين قافلة عربية ، كانت تنقضي
من مء ساقية ، في إحدى وحات المهوررة . فشتت رجالها في الصحراء ،
واسولت على ما كانت عمله لخل من أسلحة وأرر في
وأصيف انقاة رهرة بنت عبد الله ، بخرج في كنفها ، فحرت
نفسها إلى صفة الباقية حيث جعلت تعمل حرجها وتصمده

وهناك عثر عليها أحمد الدباغ ، عندما وصل إلى ذلك المكان ، بعد
يومين ، مع فرسان عشيرة « ضهره »
أسرع الشاب إلى الفتاة ، وكادت تن من الألم والجوع ، فسمعها
وتقلها إلى محباً أمين . ولما عادت إليها قواها أخبرته بما حدث لها :
لم يبق سواي في هذا المكان . فقد قتل من قتل وور من فر .
كنت وزوجى مع القافلة ، فأصيب برصاصة في صدغه ، ألقته عن
حواده صريخاً

— ومن هو زوجك ؟

— الشيخ سالم الهاشمي . أما أنا فاسمي زهرة . والقوم يدعوني
« زهرة للغرب »

فنظر إليها أحمد الدباغ ، وقال في نفسه :

— والله لم يحظنوا في النسبة ، فليست الارهار أبداً حملاً
وأسطع بهاء منك !

لكنها زادت على ذلك قولها :

— مع أي لست من سات الغرب ، وه أر الور في الحرائر

— من أية بلاد أنت إذن ؟

— من عكا

فانفص الرجل ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة فرح وحيور :

— من عكا ! أنت إذن من بنات وطني !

— كيف ؟ أنت أيضاً . . .

— ولدت في مدينة عرة هاشم . وأنا يقيم الابوين ، ولكن أنت ،
كيف جئت إلى هذه البلاد ؟

— وقع بطر الولي عبدالله باشا علي ، ورعب في ، ولقي القصر على
أبي ورعه في ظلمات السجون . ثم احتفظني من حدري ، وتركني في

قصره سحابة مع عشرات النساء ، الدواني كن يتعدن في ذلك احجيم .
لسكن ممة مغربية رقت لحي وساعد في على الفرار . فألتجأت الى الشيع
سء لهاشمى امعري ، وكان حيدك في عكاه ، فافقني من الأسر ، وحسن
الي الصنيع ، وطلب الي أن أصير زوجته فقبلت
— وعد ؟ —

— عدد روعي الى وطه الحرائر فتعته . وها قد مصت عشر
سواب على إقامتي في هذه البلاد ، أنفل مع روعي الذي يحارب
العرييين من ميدان الى ميدان ، ومن واحة الى واحة

من أحمد الدباغ من جديد بين يدي الأمير عبد القادر :
مولاي ، حشك في المرة الاولى طالباً مك السباح لي بالاضمام
الى صفوف المقاومين تحت نوائك . أما الآن ، فقد جئتك راحياً أن
تخلي من فسمى ، وأن تسمح لي بالعودة الى وطني مع هذه المرأة ؟
وأشار الى « رهرة » التي كانت وراءه في ثوب الرجال
— ومن تكون هذه المرأة ؟ —

— رهرة قطعتها يد عربية ، وحملها بعيداً عن مدينتها . فدخلت
ودهمت بصارنها
— افصح . —

— وردة نقلت من تحت ممانها البعيدة ، الى هذا الجو الذي تحرقها
حرارته . ثم يا مولاي ناعادتها الى حدائق وطها . إن « رهرة العرب »
عني الى سورية ، أرض آياتها وأجدادها
— لقد أنيت يافتي من ضروب الشجاعة والعروسية ، ما يجعل
رفص رجائك كركاً للحميل . فعد الى بلادك واصطحب هذه المرأة

فكر أحمد طويلاً ، وحيد اليه أن خير ما يفعله هو أن يقوِّحه إلى

الساحل ، حيث يسهل عليه الانتقال ولرحيل عن تلك الديار . فسار مع رفيقته ، ووصل الاثنان عند الطهيرة ، في يوم شديد الحر ، الى عانة كنيفة على مقربة من شاطئ البحر
فافتش كل منهما عباءته . وحاسا هناك في ظل شجرة وارفة ، على أن يقصيا بقية النهار واليلة في تلك العانة ، استعداداً لمناجاة السير في العدا

صرخة مفزعة تمزق سكون الليل ...
همس أحمد الدناع مذعوراً ، ومد يده إلى سيفه ، ورأى الحساء متصبية أمامه ، ماسكة عنقه بيديها
— زهرة ... مالك . ؟ . ماذا حدث ؟ .

فتمتعت الفتاة :

— ها ... ها ...

وإذا بقطرات دم تتساقط من خلال أصابعها :

... حية ... حية ... ها ...

شمر أحمد محركاً بين الاعشاب وراءه . فصاحت زهرة :

لا لا ... لا تقرب ... ستدعك الحية كما لدغني . دعني لكي أموت وحدي ... وعش انت ولا تكن ضحيتها
وسقطت على الأرض جثة هامدة !

فوقف الشاب المسكين أمام « زهرة العرب » والدموع تفرق في عينيه ، مستسلماً لحكم القدر
ثم احتفر حفرة في طلال ارضة معرية ، وألقى فيها حثة السكين ، وواراها التراب مردداً :

يا لقسوة القساء . ! . يحل بك الشقاء ونحن في طريق السعادة .
لا حول ولا قوة إلا بالله !

عاد أحمد الداع الى موطن آثائه وأجداده ، بعد عشرة أعوام من
رحيله عنه

لقد تبدلت أحوال باحوال ، وظروف بطروف ، ووجوه بوجوه
رحل المصريون عن البلاد ، فعادت اليها الموصى ، وعمها
الاضطراب ، وانتابتها القلاقل

مطامع الزعماء تلتطم كالأمواج ، وأنصارهم يتطاحنون في كل جهة
وباحه ، وشجع النؤس والشقاء يبدو جميعاً هائلاً ، وقد اهرم أمامه ملك
السعادة والمساء

كان أحمد الداع يذهب كل يوم الى شاطئ البحر ، ويجلس على
صحوره ، وينظر الى الأمواج تنتحب ، وتلفظ أنفاسها الاحيرة على
الزمان الناعمة ، فيحيل اليه أنها تسكى عهداً مضى وانقضى

لقد رحل منذ عشر سنوات عن وطنه ، حاملاً معه ذكرى مؤلمة .
لكه كان يؤثر أن يعود اليه ، فيرى أعلام ابراهيم خفاقة في ربوعه ، على
أن عدها حالية من تلك الاعلام ، ومن وقع سبيلك الحيل وقمعة السلاح
فمضى القية الناقية من حياته حزيناً كثيراً ، يفكر في المعارك التي حاص
عمرها ، ولاعداد الدين بكل هم ، والمرءة بليلة العانة التي أحبها ،
والمرءة احطمها ملك الموت من بين ذراعيه قبل أن يكاشفها بذلك الحب ،
لدى حلق صدره ، وصن يحالجه الى آخر سمة من حياته ؟

مات أحمد الداع في سنة ١٨٤٦ . ودون على شاطئ البحر ، بجوار
صحرة من تلك الصحور التي كان يحبها ويقضي نهاره حالاً عليها
طوحت به الطوحت ، ولعبت به الاقدار ، وتنادت شرقاً وغرباً ،
لكن روحه فست حيث فاست أرواح آثائه وأجداده من قبل .
ومن كانت مبيته بأرض فليس يموت في أرض سواها

السلطنة والمدة

يويه - حزيران - سنة ١٨٣٢

أصدر ابراهيم باشا أوامره إلى وحدات جيشه ، ومصائل المتطوعين من فرسان ومشاة ورماحة ورملة ، بأن يوافيه الجميع في سلك ، حيث تنظم الصفوف من جديد ، وتعين وجهة الرحل لكل فرقة من فرق الجيش الفاتح

وكان ذلك على إثر الانتصار الاهر الذي أحرره المصريون وحلفاؤهم في سهل « الزراعة »

ترك ابراهيم في عكا حامية صغيرة ، وأبواب عه في إدارة شؤون المدينة « صيب احمدي » رئيس ديوانه . وعهد إلى « حنا عري » بالإشراف على الأعمال التجارية والمدينة ، وراح يطلب من إله النصر المزيد !

وقع اختيار القائد على بملك لجمعها قاعدة لحركاته الحربية ، ومركزاً عاماً لقيادة الجيش ، لأنها تشرف على طريق الواصالات المنشعبة المؤدية إلى حلب وطرابلس ودمشق وعكا ، ولأن ملاصقتها لجبال لسان تضاعف أهميتها من الوجهة العسكرية

لبي زعماء الجيش دعوة قائدهم ، وبعثوا أوامره ، فتوافد الحوود والمتطوعون من كل حدب وصوب إلى الموضع الذي عينه ابراهيم ،

وماحت سهون ، البقاع العربر ، وهصيات معلث بكتائب العاتين
ومعدات الفلان

وكان اراهيم يقصد في النهار ، صحبه سليمان لفرساوى وعباس
باش وعبرهما من أركان حربه وحصاته ، إلى المصارب المصونة حول بقايا
المباكل الرومانية واليونانية فتلقى ما يرفع ليه من تقارير وما يحمله الرسل ،
من أخبار ومعلومات . ثم يطلب من الطبيب الفرنسي «علياردو بك»
أن يشرح للناس بعض ما تفصه تلك الآثار القديمة والاطلال الخفية ،
الرافعة نحو السماء أعينها ، من وقائع العصور الماضية ، وحوادث التاريخ
الرافعة

قال يوماً لضباط جيشه :

— لقد فعلنا اليوم ما فعله من قبلنا أولئك الفراء ، الذين شيدوا في
هذه السهول وعلى هذه الرنات لأهلهم المياكل ولقائدهم القصور .
وحودوا النوازل يصيغون اليوم صفحة جديدة ، إلى الصحائف التي
دوسها في سجل البارح أولئك الذين سقوم إلى هذه الافطار ، مند
أحبان عديدة . وكما أن قادة الرومان كانوا يماخرون بأبطالهم ، فانه
يحق لنا أيضاً أن نكون خورين محوداً . فقد احتاروا الرمال المحرقة ،
وتعرضوا لمهوب السموم ، وتحملوا الجوع والعطش ، وأنادوا في
طريقهم كل معترض ، ودلوا الصعاب ، وأرعوا الأنوف الشائعة ، وأدوا
الروس المتكررة . ولو طلبنا منهم أن يحولوا مجرى النيل إلى هذه
الأصقاع فيرونها ، أو يمدوا منه إلى هذه البلاد فروعاً ، لما كان ذلك على
همهم عسيراً .

وصاح سليمان لفرساوى وقد أحدثه نشوة الحماسة :
لو أرئت يا مولاي لنقطع الطريق الذي قطعه الاسكندر من
قبل ، ولأعينا العمل الذي لقي ذلك الفاتح حتفه قل انحره !

فقال ابراهيم :

عليما قل كل شيء . أيها الاخوان أن مدخل دمشق العراء .
وهي من الوهنتين الحربية والبحارية دت أغنية عظمى ، فصلا عن أيها
باب الكعبة وملقى القوافل . فلا مد لنا من الاستيلاء عليها قبل أن
نخطو خطوة أخرى إلى الامام

وبينا القوم يتبادلون الآراء ، ويتناقشون فيها ، ويتباحثون في مختلف
الشؤون ، اذا بكوكبة من فرسان الندية مقبلة عليهم من بطن الوادي .
تسب جبولها الارض بها ، وقد انعقد العار حولها مثل السحاب
وصل العرسان أمام مضرب ابراهيم ، فترحلوا وألفوا السجدة على
القائد . ودفعوا بين يديه رجلا غربيا ، منهوك القوى ، محرق الثياب ،
شاحب اللون

سأل ابراهيم :

— من هذا ؟

وأجاب رعيم الفرسان :

— حدي من الاعداء ، عثرنا عليه ضالا في الفقار ، على أثر اهرام
فرسانهم أمامنا . فحسبنا اليك أسيرا ، عملا بما أمرتنا به من المحافظة
على حياة الاسرى

فابتسم ابراهيم وقال :

— أحسنتم

ثم التفت إلى الرجل . وبعد أن حدى فيه الصرقل :
يخيل لي أنك لست من أبناء عمما الأتراك . فمن تكون أيها الغريب ؟
رفع الاسير رأسه . ورسمت على شفتيه ابتسامة معقبة الكتابة
والاسى . وقال بصوت ضعيف :
— أنا فرنسي أيها القائد

فقترب سليمان العرباوي ، وتقدم الطبيب غلياردو - وهو فرسي
أيضاً - ونظرا إلى لاسر بدهشة مخزوجة لكثير من العطف

ألا يقول المثل : « اللهم عني ؟ »

سأله سليمان :

— ما اسمك أيها السيد ؟

— جيرار دى بوك

فردد سليمان وغلياردو معاً هذا الاسم :

— جيرار دى بوك ؟

وساد الصمت في المحس . وتبادل القائد والطبيب العريسيان بطرات

الاستفهام !

فلترك الأسير يأخذ بعض الراحة في صياقة إبراهيم ورحاله . ولعد
قبلا إلى الوراق ، ونقل صحائف حياته ، إذ أن لأسرة ذلك الصابط
المرسى قصة أقرب إلى الحرافات منها إلى الحقائق

٢٥ مارس - دار - سنة ١٨١٦

وصلت إلى آستانة قافلة من التجار الفرنسيين ، ونزلت في
« حسن » على مقربة من القرن الذهبي ، وأسرع رئيس الجماعة إلى قصر
السلطان محمود الثاني ، وطلب من رئيس الديوان إيداً ماشول بين يدي
صاحب العرش ، قائلا إنه يحمل إليه كتاب توصية من الملك لويس الثامن
عشر ، ملك فرنسا في ذلك العهد

وسمى السلطان رئيس التجار الفرنسيين ، وشمل الجماعة عطفه ،
وأمر بأن تمهد لهم سبل الطواف في البلاد . وقصاه الأعمال التي حاولوا
من حلها ، وصعد إلى رئيسهم أن يطلعه على أسماء رفاقه
وكتب الرجل لأسماء في ورقة . وعندما إلى السلطان بطره عليها ،

بدت على وجهه دلائل الاهتمام ، وقال لمحدثه :

— إذا كنتم في حاجة الى شيء أيها العريب ، فانواب القصر مفتوحة أمامكم في كل ساعة

وفي اليوم التالي ، وصل عثمان آغا ، رئيس حجاب السلطان ، الى الخان الذي كان التحار نازلين فيه ، وطلب مقابلة أحدهم وهو يدعى « جيرار دي بوك » .

أسرع صاحب الخان الى التحار ، وأبلغهم رغبة رئيس الحجاب . وتقدم شاب في العقد الثالث من عمره ، طويل القامة ، بهي الطلعة ، وأجاب :

— أنا جيرار دي بوك !

خاطبه عثمان آغا بلهجة الأمر قائلاً :

— اتبعني !

— الى أين ؟

— الى السراي

وبعد نصف ساعة ، كان الشاب مائلاً في حصرة « السلطنة والدة » . وقف الشاب حائراً ، يسأل نفسه ما الداعي الى الخي . به الى ذلك المكان

لكن السلطنة مدت محاربه ، وأعدت إلى نفسه الاطمئنان بانتسامة لطيفة هادئة

هي امرأة في نهاية العقد الثالث من عمرها . نازعة الجمال ، هنية ساحرة

دعت الشاب الى الخلوس وقالت :

— لا تخف . ما جئت بك الى هنا لكي ألحق بك أذى

قلت ذلك ، وطرقت اليه نظرة ملؤها العطف والحنان . فاقرب

الشاب ، وناور يداً مدت اليه ، وطع عليها قلة احترام واحلال
ثم أشارت السلطانة الى عثمان آء بالانصراف ، خللا لها وللعريب
المكان

— ابن من أنت ؟

— أ.، بتم الابوين يا صاحبة الخللة . تماني ورسوا دي بوك دي
ريبري ، وسمح لي بان أحمل اسمه . فمروت منذ ذلك الوقت باسم « حيرار
دي بوك »

— وما جاء بك الى هنا ؟

تردد الشاب لحظة ، فقالت له :

لا بد هتشك سؤالي . قص على قصتك . وسوف أطعمك بعد
ذلك على أمر تجهله . فعم من المرأة الى تحاطك الآن ليست غريبة عنك
بعد ما تظن
فقال الشاب .

— ولدت في جزيرة مارتينيك ، الواقعة في البحر الامريكي ، والخاصة
للحك الفرنسي ، من أبوين فرسيين . لكنني قضيت حياتي في باريس
حيث تلقيت العلوم الحربية ، فأنخرطت في ذلك الجيش البحري ، وبلغت
رتبة ملازم . ولكنني تركت الجيش . ودوفاة ورسوا دي بوك ، وانصرفت
الى التجارة . وأنا قادم الآن الى هذه البلاد لاتباع كنية من الاسحة
الشرقية ، والاتجار بها في فرنسا

ثم سكت الشاب لحظة وقال :

— ولكن ، اية أهمية لهذه التفاصيل في نظرك يا صاحبة الخللة ؟
أهمية كبيرة

— لا أهم

— سوف تتهم

خيل للشاب أن « السطانة والدة » سوف تطعمه على أمر
رهيب . فشخص إليها لاهثاً ، وتمتم قائلاً :
- لقد وعدتني ...

فماطلته السطانة وقالت صوت عدب :

« انك تنتظر مني أن أفضي إليك بما وعدتك به . فاصغ إلي اذن :
ان المرأة التي تحاطبك لم تر النور تحت سماء هذه البلاد ، ولا يحرق في
عروفيها دم تركي . بل هي فرنسية مثلك ، ولدت في حرية مارتينيك
موطيك ، وهي تنتمي الى الدوحة التي شاء فرسوا دي بوك أن تصبح
عصاً من أعصائها

— الى أسرة دي بوك ؟

— أنا « ابيه دي بوك »

فانتفض الشاب وقال دهشاً :

— الرواية اذن صادقة ؟

— أجل . الرواية التي تناقلتها الالة صادقة لاريادة فيها ولا نقصان .
فاستمعها من حديد ، واحملها معك الى أهليك ودويك وأباء قومك
تكلمي . وهرقي الحجاب عن ذلك السر ، الذي طالما أقلقنا
وشغل بالنا وافكارنا

— عندما هاجم القرصان السبعة التي كانت تقبض من فرسا الى
حريرة مارتينيك ، مع حادى الرنهي ، لم يتمكن أحد من كانوا في السفينة
من النجاة . فقد وقعوا جميعاً في قبضة القرصان ، الذين ساقونا مكبلين
بالحديد الى مدينة « الجزائر » . وهناك أهدني أحد تجار الرقيق ،
وقدمني هدية الى سيد المدينة ، نانا محمد ، وكان يباهر في ذلك
اوقت الثمانين من عمره ، وكنت أما في الرابعة عشرة فقط

— وبعد ؟

— صمى بابا محمد لى فريق من النساء كان عرما على ارسالهن الى
عاصمة السلطنة العثمانية . وفي ذات يوم ، أفضت بنا سفينة كبيرة ، وما
مضت على أسابيع حتى وجدت نفسي في هذا القصر ، قصر السلاطين ،
وقيل لي إن بابا محمد قد اهداني إلى سيده ومولاه السلطان سليم
الثالث

— وبعد ؟

مكثت بضعة أيام في دائرة الحرم . ثم أرسل السلطان في طلبي ،
وما مثلت بين يديه حاضمي قائلا : « لقد دخلت هذا القصر يا اسحق ،
وود الآن ألا نخرجي منه . لن أحتفظ بك قوة وقسراً ، بل أريد
أن تقيمي فيه عن رضى وقبول ، وأن تصحبي سيدة النساء والحواري ،
ورهرة الحرم السلطاني العطرة . أريدك زوجة لاحارية ، وحررة لأمه .
فدهي الآن وفكري ، وبأى حق تصحبي . وإذا ما راق لك ما أعرضه
عليك الآن ، فاعتلى عداً ، وتطبي ، والبسي أوفر ما في القصر من
ثياب وتعالى !

— وبعد ؟

فعلت في اليوم التالي ما طلبه مني السلطان ، وذهبت إليه !
تهبت السلطانة ، ومسحت دمعها طمرت من عيها ، واستطردت قائلة :
— وأصحت منذ ذلك اليوم روضة السلطان المحبوبة ، وقرب سائمه
لى قلبه . وقد نبت في كنفه الى اليوم الذي سقط فيه قبلاً بدسيسة
من السلطان مصطفى الرابع ، الذي حلقه على العرش . ولكنه لم يحس
عاه أكثر من سنة واحدة . وحل محله في سنة ١٨٠٩ السلطان محمود
الثاني ، ابن السلطان عبد الحميد الاول

— وهو الجالس على العرش الآن ؟

نعم . ومحمود يحس ويحترمني . وهو الذي أطلق على اسم « والدة

سلطان ، أو « السلطنة والدة » لاني سهرت على طعولته ، وأخذت بيده
وهو صغير يخطو في العالم خطواته الأولى

— إذن ، ليس السلطان محمود ابنك كما يقولون ؟

— كلا . فقد ولد السلطان محمود في عام ١٧٨٥ - أي قبل وفوغي
في أسر القرصان خمسة أعوام . ولم أكن في يوم من الأيام زوجة لأبيه
عبد الحميد الأول ، الذي مات قبل مجيئي إلى الاسنانة بسنة ، أي في عام
١٧٨٩ . ولكن السلطان محمود الثاني يحني كأبيه ، ويدعوني أيضاً
« والدة » وهو يأخذ نصائحي ، ولا يقدم على عمل إلا بعد أن أئذي
له فيه رأيي . وهو يحب وطنك لأنه وطني ، ويعيد لمة قومك لأنها لمة
المرأة التي يعدها أمه

— ألا تمنين إلى أرض ذلك الوطن ؟

أحن إليها . وهل ينسى الإنسان وطنه ؟ لكن الأقدار شاءت أن
تفصلي عن تلك البلاد المحبوبة . أني أشبه شيء بشجرة انتفعت من
مستنبتها ، ونقلت إلى ديار الأرمية ، حيث زرعت تحت سماء غير سمائها ،
وفي تربة غير تربتها ، فعرست أصولها في طين الأرض ، ونما جذعها ،
فكبرت ، وأبقت ، وطرحت ثماراً ، وقضى عليها أن تنحف وتموت
في مستنبتها الثاني . أعد ادن إلى فرنسا ، وأعد على مسامع من بقي من
أسرتنا ما سمعته مني الآن . قل لهم إن أعيه دي ، ولك سعيدة في مهرجها .
قل لهم إنها هاتقيم ، وإها ستظل في هذا العصر غائب « ولدها » حتى يوافيها
أحلمها . والآن اذهب ، أسرع ، فهذا كل ما كنت أرغب في الإفصاء
به اليك . لقد هاجت في الشجون ، ولا أريد أن أدع للصعب سيلاً إلى
دعبي ادن أقل هذه البدمرة أخرى ، كالأول كنت أقل بدعي !
وسوف أوافيك من هناك باخبار الأسرة

— لا... إياك أن تفعل هذا ! لقد دفنت نفسي في هذا القرم المذهب ،

وقطعت مع الخارج كل علاقة . إني سعيدة ها ، سعيدة إلى حد لا

أنطلق منه إلى ما هو فوق سعادي . ولربما حملت إلي رسائل ورسائل
دويك ما يحى في دكريات الماضي ، وينغص علي عيشي ، ويحملني على
دائمة لا أريدها . إذهب يا بني . أرحو لك ولمن بقى من أهلي في
قرنا ، هناك كالذي أمتنع به الآن هنا
فاك الشاب على يدي قريته بفلمها ، مدفوعاً عامل السب نحو
امرأة يجري في عروقها وعروقه دم واحد

تلك هي قصة ايميه دي بوك « السلطنة ولدة » كما كانوا يسمونها ،
والتي تنبأت لها عرافة في صاها بأنها ستصع على حبيبها تاج الملك ،
تحققفت النبوءة

عاد حزار دي بوك إلى وطنه ، وأطلع أسرته على السر العظيم ، فهاج
الدوم وماحوا ، وحاولوا أن يعبدوا بينهم وبين السلطنة « التركية »
علاقات أمت هي الاقطمها ، فدهت جهودهم أدراج الرياح . ولما
أعيتهم الحيل ، ركب النعمس منهم متن البحار ، وسافروا إلى الآستانة
المبية ، وطلبوا الثول بين يدي تلك التي تحمل اسمهم ، والتي رفعت
الأقدار إلى عل

لكمهم وشاؤوا على صفاء الوجود ، كما فشوا على صفاء السنين .
وم نهج أمامهم أبواب أرادت السلطنة أن تظل موصدة
ومادوا بي وطنهم حائنين ، ولم يعيدوا الكرة من جديد ، وأسدل
الستار دون أن يعلم أحد ماذا حدث وراءه
أرادت السلطنة التي كان السلطان محمود يدعوها « يا أي » أن
يحمي السيان على بقية أيامها ، فكان لها ما أرادت

ومات ايميه دي بوك دي ريمري « السلطنة ولدة » روحه
السلطان سليم الثالث ، في سنة ١٨١٧ في الحادية والأربعين من العمر

أما جيران دي بوك ، فقد دفعه ذلك السر الذي مرق عنه
الحجاب ، الى العودة الى الاستانة ، حيث دخل في خدمة السلطان ، متطوعاً
في جيشه ، محارباً في صفوف الأتراك . فشاءت الظروف والاحوال أن
يقع أسيراً في أيدي المصريين في سنة ١٨٣٢

ولما عرض عليه سليمان العرساوي والطبيب علياردو أن يسمم اليهما
ويلتحق بالجيش المصري ، أحاب الشاب بأفعة وأناه :

لن أحارب الأتراك بعد الآن ، ولن أتواطأ مع أعدائهم ، بعد
أن علمت أن دم أسرتي قد سري في عروق سلاطينهم .

فأمر ابراهيم باشا باطلاق سراح الأسير ، وطلب من سليمان
العرساوي أن يعيد الرجل الى وطنه في إحدى السفن الفرنسية



الغزاة بالنار

عقد أساء الشيخ « فهد العبد » محسباً في كهف مظلم ممرراً ،
في ذلك الوادي الموحش ، الموصل إلى « العفة » ووقف فيهم كبرج
خطيباً فقال :

— لن يقال يا أساء الاب إسما على صميم ، وإسما لم تثار للدم السعوك ،
لقد شئت المصريون شمل رحلتنا ، وطاردوا في القفار ولول قبيلتنا ،
ولم يكمعوا بذلك بل ذهبوا إلى أبعد منه ، فكل حلالوهم بالأسرى من
أحواسنا ، ولم يسم قندم إبراهيم بالآ إلا بعد أن صرت بيده عبق والدنا
للسكين ، ودماء ذلك الشهيد تطلب النار ولا تقام . فهل أنتم عن الواحد
محمون ؟

فصاحوا جميعاً بصوت واحد ، خرج من أعماق تلك الصدور كبرير
الأمواج ، وردده الصدى في جواب الكهف الكالحة : « كلا ! »
وصاح الأخ الأكبر :

— أفسموا إذن ألا ندوقوا راحة ، وألا يعمس لكم حمن ، ولا
تشاركوا الناس في الأفراح والاعياد . ما لم يسم لكم الأسقام ، فترفعوا بين
الرؤوس الشائعة رؤوسكم ، دون أن يكون وراءكم شرف مثلوم أو دم
مطلول !

وأجابوا جميعاً بنفس ذلك الصوت العميق المنهدج : « نعم ! »

ثم انتزع كل منهم عقاله ، ودفعه أمامه في التراب ، عملاً بالتقاليد
الدوية والعادة المتبعة ، عندما يعرم العربان على طلب الثأر لاهنة
لحققت بهم أو قتل سفك دمه

ونسط أبناء همد العنان أيديهم ، وعقدوا الحناصر على قتل القاتل

العين بالعين والسن بالسن

ثم نهضوا من مجالسهم وقال كبيرهم :

— سري الآن على من تقع القرعة قل أن نغضى في سبيلنا ولما

كانت الآيات فيا للدكور في السبب احوات ، وفي السراء والصراء

شريكات ، وفي معامع الوعي رقيات ناسلات ، فانا لن نحرمن شرف

العمل معاً في هذا السيل. سنقتزع على من هاهنا جميعاً ، الرجال والنساء ،

أن يباشر الثأر والانتقام

واقترح الاخوان ، ورددوا فصحهم ، وتفرقوا في ذلك الوادي

قاصدين الى الديار العامرة

٩ يونيو - حزيران - سنة ١٨٣٢

رحب ابراهيم باشا على دمشق ، على رأس جيش مؤلف من ثمانية

عشر ألف مقاتل ، بينهم تسعة آلاف من الجنود الطاميين ، وتسعة

آلاف من البدو والمرسان لتدروز ، ووراء ذلك الجيش ، الجمال تحمل

الارراق ، والذغال تجر من المدافع اربعة وعشرين

كان ابراهيم قد اوفد رسله الى عاصمة الامويين ، يطلب من واليها

وعدو باشا ، التركي ، أن يسلم اليه المدينة بلا قتال ، ويدعو سكانها الى

الطاعة والافلاخ عن التمرد والعصيان. لكنهم رفضوا الادعان والخصوع ،

وقاموا عظامرت هائلة دامت ثلاثة أيام متوالية ، هتف فيها الناس

للاراك ، واهابوا رسل ابراهيم ، وحملوا على لاعاق بمثل السطن

و«شه في حكم البلاد

ففر ابراهيم مهاجمة المدينة، وعزم على الاستيلاء عليها
شخص اليها بذلك الجيش القوي . وعدهما أشرف عليها عند
كعادته مجاً حرياً من كبار القواد والاصار . وكان حليفه الامير
نشر الشهابي قد وافته الى صواحي المدينة مع قوة كبيرة من رجاله
الاشداء

وفي الخامس عشر من شهر يوبه - حزيران - ١٨٣٢ أصدر القائد
لعام اوامره بالاستعداد للهجوم على المدينة في صبيحة اليوم التالي
لكن حصمه لم يدعه ينفذ الخطة التي رسمها، بل بدأ الهجوم قبل ان
يحرك المصريون ساكنا، خرج « علو باشا » من المدينة مع رجاله ،
لفتح ابراهيم ورده على اعقابهم

ودارت رحى المعركة في جهات عديدة، لكنها لم تستمر غير ساعات
ممدودات . فاهزم القوم امام الجيش المدرب وانصاره البواسل ، وفر
علو باشا مع رجال حرسه الى « حصن » نازكا وراءه عاصمة ولايته
عبية للعائدين

دخل ابراهيم دمشق العراء في السادس عشر من يوبه . وحرب
مصاربه في « القبابون » فيما كان حاماه السايون يعكرون في « المرحه »
وأوصى القائد حوده « أن يسلكوا في المدينة سلوكاً حياً
لا تشوبه شائبة . فكانوا لوصيه قائداً طامعين ، ولم يعدوا على الارواح
والاموال، بل كانوا يتنازعون بقودم ما يحتاجون اليه من طعام وشراب .
فاكتسبوا عطف السكان ، الذين لم يترك بين ظهرايهم من قبل جيش
يرامي حوده مثل ذلك النظام . وبدافع عن الضعيف بدل ان يهضمه
حقه ، ويحترم النساء بدل ان يعتدي على اعراضهن

وفي مساء اليوم الذي دخل فيه الجيش الفاتح عاصمة الامويين ،
توافد الزعماء على مضرب الامير، ودبغت الدمايح ، وأقيمت الافراح انتهاها

بالنصر . وطلب إبراهيم ناشأ الى ضيوفه إبداء رأيهم في الخطة التي وصفت
اليها الحرب . وفي الخطة المثلث التي بحسن اتناعها للوصول الى الغاية
المشودة

وبعد المناقشة . قرر الرأي على أن يسير الجيش النظامي على السواحل ،
وأن ينتشر الزعماء الحميميون رحلهم في الداخلية ، لصد الغارات التي
يغشى أن تقوم بها القبائل العربية الغادية
واففقوا جميعاً على أن يتحرك الجيش بعد أن يأخذ لرحل نصيباً
واقرأ من الراحة . وتوضع أنظمة الإدارة على أسس جديدة

وفي الليل ، أقيم مهرجان عظيم ، تبارى فيه القوم في صروب العروسة
والشجاعة . وعم الفرح المعسكر ، واندامت السنة البيران على قم الحبال
ويديا إبراهيم ناشأ يجلس حلفاءه ويتجادب معهم أطراف الحديث ،
دحل عليه حارس ، وأخبره أن فارساً قتيلاً وصل الى المعسكر ، وهو
يلج في طلب مقابلته دون سواء
أمر الأمير بإدخاله فدخل

هو شاب في الثمسين من العمر ، جميل الظلعة ، أمرد نحيل السبحة .
يرتدي ثوباً عربياً فاخراً . ويتقلد سيفاً مرصعاً بالحواهر
حتى الشاب رأسه ، وومع يده على صدره ، فرد عليه إبراهيم
التحية وسأله :

— من أنت وما تريد أيها الاخ ؟

فأجابه الشاب :

— لا تسأل عن اسمي أيها الأمير ، فلن أزوج به الآن . حشك
طالاً الانضمام الى جيشك والسير محاسك ، لا جأ بك وقومك ، بل
سعيك وراء انتقام أشبهه ، وثار أجد في طيبي . فدعني أرافقك في
حملتك ، وأكن ملازماً لك . وسوف تعلم الغاية التي من أجلها حثت
ألمس منك ذلك

فقطب الامير حبيبه باظراً إلى الحق . وبعد تفكير وحيز قال :
— أهلاً بك يا أخا العرب . كن عتيقي منذ الآن

أقام الجيش الفاتح في دمشق ثمانية عشر يوماً
وصلى ابراهيم الجمعة في المسجد الجامع الاموي ، ورفع آيات الشكر
على ما أوليه من نصر مبین . كما كان يعمل من قبل أبطال الدولة الاموية
وأقطاب المسلمين ، بعد كل فوز يتقد على أوتيتهم
وفي أثناء الخطبة ، حار الخطيب في امره . أيدعو لسلطان — أمير
المؤمنين وسيد البلاد الشرعي — أم لمحمد على باشا . عربر مصر الخارج
من طاعة مولاہ ، للمجرد العاصي كما كان السلطان يسميه ؟
رفع الامر الى ابراهيم فقال :

— ليخطب الخطيب باسم محمود الثاني ، الخالس على عرش آل عثمان
وحليفة المسلمين . فأنما أنا عبد السلطان . وليدع لأبي محمد علي باشا ،
المشرف على شؤون مصر باسم السلطان وبالبابا عنه !
وهكذا كان !

ونظم ابراهيم ادارة المدينة ، معين احمد بك اليوسف « منسلحاً »
عليها ، وألف « ديوان المشورة » من عشرين من الاعيان والوجهاء .
اللتغيير بين المذاهب وأنطوائهم

وفي أول يوليہ — تموز — ١٨٣٢ غادر المدينة متجهاً عيشه الى
حمص . ولما وصل الى صاحبته ، اصدر أمره بالوقوف عن السير .
لكي يستريح الجيش ويستعيد قواه
وكان ذلك في اليوم السابع من يوليہ ، قبل المعركة العاصلة بيوم
واحد

ظل الشاب العربي ملارماً للامير لا يفارقه ، ويقضي الليل على باب

مصرته ، بحاج الحراس ، دون أن يفهم أحد معنى لساوكة هذا
كان ابراهيم في تلك الليلة نائما ، فأبغضته حركة خفيفه
فتح عييه ، ولكنه لم يتحرك ، فحيل اليه أن شخصا يتقدم حذرا
في الظلام نحوه

طل حامداً في مرقده . فوصل الشبح اليه ، ورفع ذراعه ، فأخذت
عين الأمير وميض نصل يلعب في الظلام

وثب ابراهيم على الرجل ، وقص على ذراعه يده من حديد ،
فلوث الذراع . وسقط الخنجر على الارض ، وأرسل المريب صرخة
ألم حفيفة ، وحر ساجداً على ركة الأمير وقال .

انك تقبض أيها القائد على ذراع امرأة

— امرأة !

نعم . فتاة بدوية ، قتلت منها الانتقام بعد أن كادت تقضى ليلتها !
عرف ابراهيم صوت الشاب العربي ، فعار في أمره
كيف دخلت والحراس بالباب ؟

قتلتهم جميعا... الحراس الثلاثة... وكان يودى أن الحفك بهم .
وأغسل بدمك العار الذي ألصقته بي وقومى !

— ومن أنت !

— نعمه ، امة الشيخ فهد العنان . سدي قنته بيدك في صحراء
سده ، يوم عرتك قبيلته هزئت حاسرة ، وتعقبها رجالك فقبضوا على
أبي وساقوه اليك أسيراً دليلاً . لقد نادرته باطمة على حده ، فمد يده
يريد صفعك ، لكك حردت سيفك وصربت عنقه على مرأى من
قوادك وحدودك

فعلت ذلك عفواً له ولا مثاله . ممن تحذرنهم نفوسهم بالوقوف عفة

في سبيلي

لكنك أهت القيلة ، ولاهانة في عرفنا لا يغسلها غير الدم ،
ولا تمحوها الا اهانة مثلها !
— وجئت أنت للقيام بهذا العمل الشاق ؟
أرسلني القيلة للانتقام منك . لقد حانني بمعي ! لكن عيري
سينجح حيث أخفقت أنا !

سكت الأمير ونظر الى الفتاة ، طرة إعجاب وحلال . ثم نادى
قواده وقص عليهم ما جرى وقل .
— إني أعفو عن هذه العنة اعترافا مني بشجعنها !
ثم التفت اليها قائلاً :
— ادهي يا نعمة فأنت حرة . وأنتي قومك حر ما حدث :
قولي لهم إن اراهيم يقابل الاساءة بالاساءة . لكنه يعرف كيف يعمل
عند اللزوم وعند ما يكون خصمه أضعف منه
فطرت اليه الفتاة ، واعرورقت عيناها بالدموع ، وقالت :
أقبل عفوك بالامتنان أيها الأمير . وأقسم أن لا أسئ اليك
بعد الآن ، لاني مدينة لك بالحياة . لكي أحذر من أبناء عشيرتي .
فقد اندس البعض منهم بين رجالك لمراقبتي ، ولما درتلك بالطعمة القاصية
اذا فشلت أنا في مهمتي !

دسمبر — كانون الاول — سنة ١٨٣٢
مضت الايام وتلتها الاسابيع ...
وصل الحش العاري الى قونية ، حيث التقى عيش الاتراك ، وكانت
موقعة هائلة اندحرت فيها الميالق التركية ، واهرمت شر هزيمة ،
وأمت الاستانة في خطر دام !

فذكر ابراهيم بشوة النصر ، وأصدر أمراً بالسير الى البوسفور
توغل الجيش في سهول الاناضول وحاله ، ووصل ابراهيم الى قرية
السلامية ، وأصيب بحمى شديدة ، خطرت له الى ملارمة العراش . فطلبت
نعامة أن يسمح لها بالاقامة على باب منزله مع الحراس ، فاجبت الى
طلبها

شمي الامير بعد أسوع ، فقام الجيش مبرحاً عظيماً احتفاءً بذلك .
واحتشدت جموع المربان لتطوعين في الجيش . وكانهم يمتطون جبالهم
انطهمة ، وحملوا يمدون أمام الامير ، ويلعبون بالسيف والرمح ،
وينشدون لانيشيد والاهربج
ثم خرج من صفوفهم فارس مقيم ، واعلق لحواده العنان ، ووجهته
اراهيم وحاشيته

وتبعه فارس آخر شاهراً سيفه وهو يصيح :
— لن تفعل ذلك ما دمت أأحية ا
عرف الامير نعامة فارتاب في الامر
وأشار إلى حاشيته بالتصدي للعارس الاول
لكن نعامة أدركه قبل أن يصل اليه رحل ابراهيم
أمسكت بعنقه ، فكناه حواده وسقط على الارض ، وسقطت
فوقه نعامة

أسرع رحل الحرس اليهما ، فأدرك العارس الخطر ، واستل حجره
وأغمدته في صدر الفتاة
ثم نهض صائحاً :

— هذا جزاء من خان الهدى وحث باليمين ا
قبض على الرحل ، وأسست نعامة الروح قتلة :

— وهبني ابراهيم الحياة فأعدت اليه الهبة ا

ولما استجوب الفارس العربي أجاب :

— هي أحق ! وقد قنتها لاسها لم تبر بالقسم ولم تنتقم لوالدها .!!

لقد عهدنا اليها بقتل ابراهيم فلم تفعل . وحثت أما للقيام عما عجز دونه

حسها ، فمحتني . . لم أتمكن من غسل عار القبيلة بدم الامير ، فعسلته بدم

الحائنة !

فأمر ابراهيم باطلاق سراحه ا



قبر العاشقين

دعا ابراهيم باشا قائد مدفعيته وفرسانه سليمان باشا المرساوي .
في اليوم الاول من صفر ١٢٤٨ (٣٠ يونيو - حزيران - سنة
١٨٣٢) وقال :

سعادى دمشق عدا يا صاحي ، راحمين على حمص . وسندحها
بذن الله فاعين مدغميه أيام . لقد وافقت على رأيك ، وقررت انهاء
حامية مؤلفة من ثلاثة آلاف ومائتي رجل من الخلد النطاقي في هذه
الديرية ، خوفاً من انتفاص أهلها عليها ، لأنني لم آمن بعد عدوهم ولم أنق
من حصوهم . وقد أردت أيضاً أن أحتاط للعد ، فجمعت كما تعلم حمة
وسعين من اعيانهم ، وألقا من اتباع أولئك الاعيان ، وامرهم بالسير مع
الحيش الراحف الى الشمال ، كما اني رعت الى حليفا الامير شير ان
يقوم معاً ايضاً هو وابنه وجميع اصداره ، على ان يترك وراءه قوة كافية
لإغاثة حامية دمشق اذا اقتضت الحال
فقال سليمان :

احسنت صمعا يا مولاي . وقد اعددت من جهتي للرجيل
عدته . وسوف ترى من أعمال المرساوي وروحان المدفعية في المعارك المقلدة
ما يرضيك ويسرك
صاح ابراهيم يد القائد المحك ، وكرر له اعجاب به ، وارتياحه الى

آرائه وحططه العسكرية . ثم حول الحديث الى موضوع آخر فقال :
حامي اليوم رسول من لندن اهدينا ، حاملا الي امر وهدى
المطاع بأن أسمع لعبد الله السيوطي بالعودة الى مصر
لكنه حريج

— نعم . وكنا عارمين على تركه في دمشق . حتى يمن الله عليه
بالشفاء التام . اما وقد رأى اهديانا عودته الى القاهرة خير وافي ،
فاني احصح لرأته واطلب اليك تعييدها
— سمعا وطاعة !

كان عبد الله السيوطي من رجال الحرس المخلصين ، الذين وضع
محمد علي باشا فيهم ثقته ، واثمنهم على حياته ، وعهد اليهم بالسر على
شخصه والسير بجانب مركبته

لكن الشاب كان يتوق الى المرب والطمع ، وبعلم موقائع حربية
يحمس عمارها ، ومعاقل حصينة يتسلق اسوارها ، ومدن مكتسحة
يطوف شوارعها ورقبها على متن حواده ، بين هتاف النصر وناشيد
الفرح

فطلب الشاب من مولاه السماح له بالسير مع الجيش الزاحف على
أرض الشام . فحابه محمد علي باشا إلى طلبه ، وأوصى به ابنه ابراهيم
خيبراً . فالتحق عبد الله السيوطي بفرقة العرسان ، واطهر من صروب
الشجاعة ولاقدام ما حمل الالسنه تلحج بذكره واثناء عليه

— وكانت أخته جارية من جوارى القصر . فلغتها اخاره الطبية ،
وأوصى اليها مولاه محمد علي باشا بمحديث الرواة عن اعمال احبها ،
فملا قلبها فرحاً ، وبنيت ان سلوك عبد الله المشكور يريدتها خطوة
في عيني سيدها وولي نعمتها

لكن الشاب كان يهرأ بالاحطار . ويسابق الشجعان إلى مواطن

الموت غير حاسب لشيء حساساً . وقد أسكره النصر المستمر ، وزاده
حرارة وهوراً . فاصيب في المرحوم على عكاه . مجرح بايع . أفعده عن العمل
شهراً كاملاً

لكنه انتقل مع الجيش إلى دمشق ، ووطد العزم على اللقاء فيها إلى
أن يتم له الشفاء

وهناك أبلغه رتبته سليمان باشا المرناوى أمر الفائد العام ، بالعودة
إلى مصر عملاً بمشيئة محمد علي باشا

فاضطرب عند الله إلى الادعاء مرعماً ، وعاد دمشق ومعه اثنان من
المرسان الدور ، عهد اليهم بشير الشهابي مرافقة الحريج المصري إلى
درعا ، ثم إلى القدس فعكاه ، حيث يسحر إلى الاسكندرية على ظهر سفينة من
سفن الحرب ، التي كانت تروح ونجى بين السواحل المصرية والسورية

وصل الرفاق الثلاثة الى واحة صغيرة ، على مقربة من سفح جبل
الشيخ ، فترحلوا وسرحوا حيولهم للراحة

كانت الشمس قد قرنت من الغيب ، فمر موا على قضاء الليلة في ذلك
المكان ، حيث كانت مياه يسوع تنساب بين الحصى ، وقد بنت
الاعشاب بكثرة حولها ، وأرخت الصفصاف الياكى شعوره عليها

أوقد المسافرون ناراً ، وأخذوا مجالسهم . وجعلوا يستعيدون
ذكرى المعارك والمواقع

وسأل عبد الله رفيقه فجأة :

— ترى . هل وصع هذان الجحاران ، المصان هناك الواحد تلو
الآخر ، عمداً ويبد أسان . أم أن الطبيعة هي التي شادت أن تنهب
وتعرج . فأقامت هذين العمودين المنشأين قياساً وشكلاً ؟

قال الشاب هذا ، وأشار الى دينك الحجريين القائمين على بعد
خطوات من اليبوع

فأجاب رقيقاً :

— حقاً إنك نجمل أننا الآن في « واحة اللؤلؤ » وأنا مستقضي

لبنتا بجانب « قبر العاشقين ! »

كان الجندي للعصري يجمل ذلك . فسأل مستفهماً :

— قبر العاشقين ؟

— نعم . ولهذا القبر الذي تعرف به الواحة الآن قصة تنافلها الرواة .

وسوف تطل الاحقاب تنافلها الى ما شاء الله .

فطلب الشاب من رقيقه أن يفصا عليه حكاية ذلك القبر الهادي .

الذي يضم رفات العاشقين . والذي غمو عليه الطبيعة كالام المرضع .

وتناقط على حجره قطرات الدى ، كأنما اللبالي تنزع من مقلة السماء

دموعاً على قبر العاشقين

وبينما البدر ينحلي في كبد الغصاء ، وسيم الصحراء يداعب الافان

والاعشاب ، جعل أحد الرقيقين يقص على الشاب المتلهف قصة « عامر

وهيماء . »

كان للشبح « ناصر بن علي » امة جميلة تدعى « هيماء » وكانت

العامة حفا عادة هيماء ، بموق حسنها وجمالها كل وصف . وبما خربها والدها

أمام رؤساء العشائر والقائل ، الذين كانوا يوافدون على مصرته ، طالبين

الزواج انفته التي أطلقوا عليها اسم « حسناء البادية »

لكن ناصر آ كان يأبى الا أن يختار ائمة الزوج الذي تريده .

وكانت هي تعرض عن طلبها الواحد بعد الآخر . ولا يعلم أحد سبب

رفضها وتعتبها ، الى أن كشفت الايام سرها وفضحت أمرها

خرج ناصر يوماً الى الصيد وحده . وما كاد يتعد عن الحي ، حتى

أصبر شخصين محتئين وراء تل من الرمل . فارتاب في أمرهما . واتجه

محوها حذراً ، وبرز على مقربة منهما مصتا ، وجمع حديثهما
قال أحدهما :

— ما العمل اذن ؟

فأحياه الآخر بصوت رقيق شجي حنون استدل منه ناصر أن
المتكلم امرأة :

— لم يبق أمامنا غير الحرب !

وتلا ذلك سكوت قصير . ثم زفرة يصدها صدر مكثوم . ثم
سكوت آخر

ظل ناصر رابطاً في مكمنه ، الى أن قال الرجل :

— لهرب اذن . وأنى في منتصف الليل الى واحة اللؤلؤ ، حيث
أكون في انتظارك . فمحتطى المحبين ونقطع الصحراء الى الحجاز ليلا
سكنت الفتاة ، ثم أحاطه حريمه كثيفة :

وأى ... كيف أنزكه ... ماتت أمي وأنا صغيرة ، فأبى اتخاذ
امرأة أخرى حياً ، فأنا سلوته الوحيدة ، وموضع حبه ، ومهجة حياته
فاتفض بصره ، وقد عرف صوت ابنه هيباً ، وم بالانقصاص عليها
لكه غمالك نفسه ، وأراد أن يعرف الحقيقة كلها . ويعلم ذلك
السر الذى تكتمه عنه ابنته . فجعل ينصت من جديد
قالت الفتاة :

— لا يا عامر . لن أقدم على عمل كهذا ، ولن أسبب لأنى كدرآ . حتى
ولو كان ذلك في سبيل من أحب . ان اصلك لو صبح يحول دون
رواحنا . فبرص عما قسم لنا . عد الى حراسة ما واثني . وسأعود أنا الى
مضرب أبى . يجب أن ينسى كل منا الآخر !

— نسى ... كيف السبيل الى ذلك وقد أصرمت نار الحب
في احشائي فكادت تحرقني . لن انساك يا هيباء ما دممت حياً . واعلمنى

اننى سأنتحر يوم يتخذ لك ابوك يملا سوای

— كلا يا عامر . لن تنتحر . ستعود الى صوابك . . .

بل انتحر . . . انتحر . . .

قل هذا وهض عاصا واتعد عنها ، ونوعل في الصحراء حتى غاب
عن الاطار . قالقت هيعاء . نمسا على الارض وبكت بكاء مرأ
تركها باصر على هذه الحال . وعاد الى الحي . وقد ذهبت به بحيلته
كل مذهب . فخاف عاقبة ما حدث . وأخذ يفكر في اختيار روج لاسته
دون ان يستشيرها

أما عامر حارس المواشي . فقد ظل يتبع الفتاة ويتربص لها في
رواحها ومحبتها . وراء أشجار الواحة حيث كانت تصطحب فتيات الحي .
فيجتمع نظره عمرآها . ثم يعود الى مواشيه والحرن يملا فؤاده
لكن هيعاء انقطعت حاة عن الذهاب الى الواحة . فمضى شهر كامل
ولم يتمكن عامر من رؤيتها . وشاع في الحي ان الشبغ باصر سيزوج
ابنته لأمر كبير من امراء البادية . وان الفتاة ستعادر الحي ولن تعود اليه
عم عامر بذلك . فعقد البية على ان يحاطبها . وحفل بتعين الفرص
ويبحث عن حيلة للوصول الى حبيته والاحتماع بها

لكه فشل في محاولته . فصاعف همه وحج الى اتياس
اد كانت الفتاة لم تخرج الى موارد الماء مع بنات الحي شهراً كاملاً .
فذلك لان الاشعة صريحة . ولان الأب القاسي قد عزم على تصيد
رغبته . واجاد ابنته عن ربوع القبيلة
أهمل عامر مواشيه . وهام على وجهه في الصحراء . باحى طيف حبيته .
ويشد أناسيد العرام . ويتعنى بأشعار حميل وقبس وعنترة . ولا يقرب
من أشجار الواحة الا في الوقت الذي يعلم فيه أن النساء يخرجن لاستقاء
الماء

وفي ذات يوم، عند غروب الشمس، والعرة تودع الواحة نحيوطها
الذهبية قل اختفائها وراء حل الشيخ، أحسن عمر بدافع خفي يدفعه الى
الاقتراب من نبع اللؤلؤ وحيل اليه أن صوتاً خفياً يهيب به صائحاً :
- اقرب . أسرع . ان حبيبتك الحساء بين أولئك الحسان .
فودعها اوداع الاخير لاني لن تراها بعد اليوم !

ان القلب للقلب دليل !

أسرع عامر وتربص في الطريق . فرأى النساء قد مات الى يسوع .
وأحدث عيه يمين هيفاء بنت ناصر ، مرعه الاعطاف ، مائه القدر ،
تهادى دلالاً وتقبل بصدرها دمحات السيم
هاحب أشجان المسكين ، وشمر بقلبه يسيل من بين الصلوع
اسللا ، فصاح مشدأ موالا ندوا ، حملته تلك الدمحات في طياتها ،
وأودعته أدن الحدة
أنشد عامر :

علامش يالبيه ماوردتين شمر القبط كلو ماوردتين
عيونك لك ماهل نواردين وصدري روض بنت لك عشان
وقفت المنة ، واعرورقت عياها بالدموع ، وتدكرت تلك الساعات
التي قصتها بجانب حبيبها . وأحاطت بها رفيفها
لسكنها تمكنت من كبح جماح عواطفها ، ومسحت بظرف معطفها
دموعاً حانتها فأقشمت لبسات الحبي سرها ، وردت على موال الحبيب بموال
آخر ، أعادته اليه دمحات السيم ، كما حملت من قل زوراته إلى هيفاء :
لاصدرك راض ولاعشب بنت بوه ولا شقر الدوائب دلمت بوه
روح يامسكين ربك ما تعان بوه عرا لك راح ورداته صعا
رن صوتها في أدنه ، ووقفت كلماتها عليه وقع الصاعقة . وأدرك أن لا
أمل ولا رجاء له بعد الآن . وداحله اليأس فاستل خنجره وأعمده في
صدره صائحاً :

— لقد أقسمت أن أنتحر وها أنا أبر بقمي !
سقط عمر يتحط في دمه . وأسرعته هيباء ونزعها رفيقائها .
فوجدن الراعي المسكين جثة هامدة
اكتت العناية على تلك الحثة تعللها بدموعها ، وتقل ذلك الحين
الذي علاه اصفرار الموت

ثم همت خاة ، وبيدها الخنجر الذي اخترق صدر حبيبها ، وبأدوت
نفسها بطامة بجلاء ، فحرت صريعة الى حجاب العاشق الذي قضى شهيد وفاته
ولما بلغ الشيخ ناصر خبر تلك الفاجعة ، أسرع الى المكان ، وأمر
بفل الخنتين ، وبدمعهما حساً الى حب تحت أشجار الواحة ، ونصب فوق
صريعهما حجرين ، وأمر القبيلة رفع المصارب وتقويس الخيام
ومالاح صوء الصبح لألمح ، حتى كان القوم عن الحي بعيدين . ولم
يعم أحد منذ ذلك الحين الى أين قصد ناصر من على بعشيرته
وأطلق المرءن على « واحة اللؤلؤ » اسم « قبر العاشقين »
هذا ما يقصه عليك البدوي لوجهه مستعلماً
ثم يتركك ويتعمد منشداً :

علا منى يا لبنيه ماوردتين شهر القبط كل ماوردتين...

في تلك الواحة قضى عبد الله السيوطي ورفيقاه ليتهيم
لكن نور الشمس لم يدرك غير واحد منهم في صبيحة اليوم التالي .
ذلك لان جماعة من لمصوص النادية فاحأتهم ليلاً ، ودبغت منهم
اثنين ، ونعكن الثالث - وهو أحد الفارسين الدرريين - من الحرب
والعودة الى دمشق

وبعد يومين ، عاد مع كوكبة من الفرسان الى واحة اللؤلؤ ، لدون
حتى الجندي المصري ورفيقه يأمر من قائد الحامية

كانت الحوارج والكواسر قد التهمتهما ، فلم يجد القوم غير هيكليين
من العظام ، لم يتمكنوا من معرفتهما الا بما تنفى عنابهما من ثياب معرقة
ونعت الصفصاف الباكي ، بحاس « قبر العاشقين » ، يرقد عند الله
السيوطي ورفيقه المرزى رقادهما الاخير

وفي شهر مايو (يار) سنة ١٨٤٠ رار ابراهيم باشا المصري قبر
الحدي الشجاع ، الذي عثر دون الليل منه في ساحات القناص معدات
الهلاك ، واعتالنه يد لص أثيم وهو مائم في الصحراء :



أفراح وأتراح

أرسل قائد الحملة المصرية التي سيرها ابراهيم باشا لتأديب الخوارج من قبيلة « الرولة » في طلب اليورباشي محمد الطهطاوي ، ولما مثل بين يديه قال له :

رغب إلي القائد العام أن أقصى اليه بنتيجة أعمالنا العسكرية بعد أسبوعين من رحيلنا عن عكا . وها قد انقضى الأسبوعان . وما أرسلت في طلبك يا حصرة اليورباشي ، الا لكي أعهد اليك دون سواك بالشعوص الى دمشق ، واطلاع ابراهيم باشا على ماصعاه بالاعداء . أرحو أن نسط له تفاصيل المواقع التي حرت بيدي وبين العربان ، ونخبره بان مشايخ البادية يتوافدون علينا الآن لتقديم الطاعة والاصحاب الى صفوفا . وأن هذا الجزء الجنوبي من مادية الشام قد أصبح خاضعاً لنا . قل له كل هذا ، وأصف عليه اني في هذا المكان مقيم . على مقربة من حدود الحل الدرري ، في انتظار أوامره للعمل بها

١٢ يونيه - حزيران - ١٨٣٢

عادر محمد الطهطاوي مضارب الحملة المصرية ، على رأس كوكبة من الفرسان ، قاصداً الى دمشق حيث كان الجيش المصري بقيادة ابراهيم باشا يعد العدة للهجوم ويتحفر للاستلاء على المدينة وما كادت الكوكبة تبتعد مسيرة ساعتين عن المضارب ، وتتوغل

في الدابة ، حتى أحدث أعين رحاما عن بعد خيال شبح يتحرك تحت
شجرة يابسة ، تدور أعصابها العارية في وسط الزمال والخصي ، كأنها
أدرع تنهل الى الله أن يشفق على تلك الدابة المعسوبة عليها ، فيمطرها
قطرات من ماء رحمة بالمسافرين

أمر محمد الطهطاوي رحله بان يفصدوا إلى ذلك المكان ، لكي
يتفقدوا الحر ، ويأخذوا معن الراحة تحاب تلك الشجرة
وصلوا إلى المكان المقصود . وبالهول مارأوا

وقفت أطارم على كومة من الخث ، وقد تحمدت حولها الدماء .
وبسبها فتاة تروح وتحي . كأنها من الحيوان . تلطم حديها
وتتنحب وتحاول طرد العرمان الجائعة ، التي حامت حول تلك المائدة
الفاخرة من اللحوم البشرية المشوّهة

هال القوم منظر تلك المدخلة الشجرة . وطارفوا انحاء المكان عماولين
المشور على من نفى حيا بين اولئك الاموات . فلم يجدوا غير شيخ طاعن
في السن ، أصيب بطفة في كفه . طس القلة بها قاصية . فتركوه دون
أن يجهزوا عليه

أسعف المصريون الماء والشيخ . وصعدوا جراحهما ، وهدأوا
روعيهما ، وتعهدوا بحمايتهما والافصاص من الانعمه المعتدين

قصت الفتاة على محمد الطهطاوي حبر ماحدث ، قالت :

— بي ادعى «مررد» وهذا الشيخ اسمه «حمد القاسم» وهو أبى .
نحن من الشيعيين المبعدين بوادى التيم لسان . كنا عائدين من حين
الدور مع قافلة تحمل كميات من البضائع لبحار دمشق . ولما وصلت
القافلة إلى هذا المكان . حطت رحالها لفضاء الليل فيه . وما عرت
الشمس وراء الحار ، حتى فحأنا عراة من العرمان

فقال لها الضابط المصري سائلا :

— إلى أية قبيلة ينتمى المعتدون ؟

— انهم من عرب «الرولة» الذين يعيشون في هذه الارض فداً
ويقطعون على القوافل الطرق ويسلبون ويهبون . وقد دعوا رجال
القافلة دبح الانعام . ولو لم اندس تحت حنة ثي هذه التي تزورها هناك ،
لما قيب حية سليمة . وبعد ما فرعوا من مهمتهم الدموية ، واحتملوا
الناحر والارراق ، سافوا امامهم الخيل والابل ، وبوعلو في الصحراء
سعيًا وراء عبيمة أخرى

طيب الصابط خاطر الفتاة وقال :

— سنتقم لرجال القافلة من أولئك اللصوص !

لكنها نظرت إليه نظرة تنم عن الشك وعدم الثقة. وأحابت بصوت
تتخلله الزفرات :

— كيف السبيل إلى الانتقام منهم وهم قادرون في يدهائهم أن يهروا
مكم وعيوشكم الحرارة . فالرمال حصون مينة . تحميهم مكم وترد
عنهم بطشكم

ثم لمع في عينيها بريق الامل وقالت :

على أن الانتقام ممكن من باب آخر ، والشار يدرك من طريق
غير مباشر . إن أولئك العربان الذين يسطون على الناس ويأوشون
عساكرهم . ليسوا غيبرين بل هم في أعينهم مبيرون . ان كل فريق
منهم يقوده انسان أو أكثر من الاعوات والصاباط الاترك ، وقد كان مع
أولئك الذين هاجموا قافلتنا ثلاثة من زناية الوالي «علو باشا» . أعطتة
أنا يا أبي ؟

وحمت الفتاة السؤال إلى الشيخ حمد القاسم ، فأحابت بأنها مصيبة
في قولها ، وأن رجال الوالي التركي هم الذين كانوا يقودون العربان
في هجومهم

نهضت الفتاة حينئذ ، وبسطت ذراعها مقسمة قائلة :
اذا كنتم أيتها الضباط قاصدين الى دمشق ، فإنا نسير معكم اليها .
وهناك أحد نصبي من القتلى ، وأثار يدي لوالدتي ولدماء هؤلاء الشهداء .
فصاح محمد الطهطاوي يد الفتاة الباسلة ، وعاهدها على العزم معها
في سبيل الثأر والانتقام

١٦ يونيه - حزيران - ١٨٣٢

واقعة دمشق ... خروج الوالي من المدينة رجاله ... اشتباك الجيشين
في معركة حامية ... انتصار المصريين وإسرام أعدائهم ... فرار القائد التركي
وهو لا يهوي على شيء ... دخول إبراهيم عاصمة الامويين : كل ذلك لم
يتطلب من الوقت والجهود كثيراً ، بل مر بسرعة للاحلام التي يتردد
العقل في تصديقها

واشتركت « رمرد بنت حمد القاسم » في تلك الموقعة ، لكنها لم
تجد فيها ما يروى ظمأها الى النار

وعندما فتح في الابواب وصدرت الى الجيش العاتق أوامر القائد
بأن يرحل نحو الشمال ، فرحت العامة وهللت ، وعزمت على السير مع المرأة
الى حيث يزحفون ، وأحد نصيبها من المعركة الثقيلة كما أحدث نصيبها من
المعركة السابقة

أما أنوها الشيع فقد انضم الى رحاب الأمير بشير حيث وجدتهم
أقارب وأصدقاء . لكن الفتاة طلت في المكتبة التي يقودها عمدهم
الطهطاوي ، بأمر خاص من القائد العام ، الذي سمح لها بأن تحارب مع
بقية النساء المحاربات -- وكن في ذلك الوقت كثيرات

أما الحملة المصرية التي عهد اليها تشبيب العربان ، فإن إبراهيم أوفد
اليها رسولا عبر الطهطاوي ، لأنه كان يعبه من أمهر الصباط وأشجعهم ،

ويشعر بحاجته اليه وإلى أمثاله في المواقع القادمة

وصل الجيش الراحف إلى الك. وصدر إلى الأمير شير أمر بالاقامه في « دير عطية » ببيت ابراهيم بجدي السير إلى « البصر » ويصرب مضاربه على ضفاف نهر العاصي . ثم يقصد إلى « قطية » على مسافة ثلاثة أميال من « حمص »

وكانت الحيوش النماية القادمة من الشمال قد وصلت إلى صواحي المدييه حيث أصبحت إليها قلوب المهربين من دمشق . فوقف الفريقان وحياً لوحه في تلك السهول التاريخية ، التي طالما تظاهت فيها الحماول وسالت الدماء ، ورأت أطرافها الاعلام المصريه خفاقه متصرة من عهد المراجعة إلى الايوبيين والعاطمين ومن حلفهم في وادي النيل

حمسه وعشرون الفا من الحود الاتراك ، وقفوا في ذلك السهل ، يقودهم ثمانية باشاوات رصفت صدورهم بالوسمة والياشين ، وتدلّت على أكتافهم شارات البيل وشرائط العصه والذهب . ووصفت تحت تصرفهم عشرات المدافع وأكداكس مكدة من الذخيرة والمؤن . ووقفت بعيدة عنهم صفوف متراصة من فرسان البادية الموالين انتظراً لإشارة الهجوم

كان ذلك الجمع الهائل أول جيش نظامي يلاقي في الميدان جيش ابراهيم البطامي . وكان يمار عن سواء من حيوش العالم بما امتارت به حيوش الاتراك في ذلك العهد من سوء النظام ، ولو تعمّد قائد أن يمت في رحاله روح الياس والقنوط ، ويحالف عن قصد قوايين الحروب ، ويرتب جيشه بحيث يضمن له الفضل والمريئة . لما استطاع أن يفعل ذلك كما فعله أولئك الباشاوات النماية ، ولما تمكن من تحقيق عزمه مثلما تمكنوا . . .

رتب المشاوات حدودهم في صفين مترامين ، وفصلوا عهما حاج
الجيش الايمن ، فوضعه في حرية يحيط بها النهر وماء ترعة من جميع
نواحيها . وورعوا مدافعهم بحيث لم يجمعوا بين اثنين منها في موضع
واحد . وتأهبوا للقاء عدوهم والقضاء عليه

أما ابراهيم ، فقد واثم بعشرين ألف مقاتل ، ربح صاحبهم الايسر
على صفة النهر ، وحاجهم الايمن شطر البادية ، وتعمرت بقية الجيش
لهجوم من الوسط ، بعد ان حجبت المدفعية عن الانظار وانتشر المرسان
في أطراف الميدان لمتابعة العدو ومطاردة فلوله

٨ يولييه - تموز - ١٨٣٢

يوم تاريخي يصف الى الابد التاريخية الكثيرة التي دوتها العساكر
المصرية في سحل التاريخ بأطراف الاسنة وشعار اليوف
حصدت مدافع ابراهيم قلب العدو ومسيرته حصداً ذريعاً . واستبعد
الاشاوات عييتهم فلم تستطع اعداءهم وهجم الجيش المصري كالحمر الملاحم
بالامواج ، فاستحال الميدان الى آتون مناجح ، تلعق فيه اللواتر وتقطر
الدماء ، وتنفد دوهات المدافع اعم في وسطه وحوانه

وما أسدل الظلام ستره على ذلك الحميم ، حتى كان المشاوات الثمانية
قد أطفأوا لجوهم الاعنة ، طالين السحابة بالمرار ، وورم البقية البقية
من جيشهم ، ووجهتهم مدينة حلب ، المعقل الاخير من معاقل سورية
وفي ٩ يولييه ، أي في صبيحة اليوم التالي ، دخل ابراهيم باشا مدينة
حمص ، فلاقاه أهلها بالانشيد والاهاريج ، وثرت ساؤها على رؤوس
المتعاقبين أرهار الورد والياسمين

وعنهم المصريون في تلك الموقعة العظيمة وحماة من الأسرى ، وجميع
المؤن والذخائر التي ملاء بها الجيش التركي محارن المدينة وثكناتها ،
وواحداً وعشرين من المدفع التي لم تشت في المعركة وحودها

والتهمت الطيور في الميدان حثث العين من القتلى
 أما خسارة المصريين ، فقد بلغت في ذلك اليوم مائة وأربعين من القتلى
 ومائة وواحداً وستين جريحاً
 وكان الباشاوات وحودهم مسرعين في فرارهم الى حد تركوا معهم
 طريقهم الى حلب ما تبقى لديهم من مدافع وأسلحة
 واقتفى الفرنسيون ثمر المارين ، وسكواوا يقولون الأتراك تكيلا ، ولم
 يدعوا لهم سيلا الى الراحة والاطمئنان ، الا بعد أن اقتربوا من حلب
 واحتتموا وراء معانقها وحصونها

١٤ يوليو سنة ١٨٣٢

دخل أحد أطباء الجيش على ابراهيم باشا ، وبعد أن بسط له حالة
 الجرحى ، وأطلعه كالمعاد على عدد الجرحى الباقين في المستشفيات ، وعدد
 الوفيات بينهم ، قال له :

أما الجريح الذي أوصيتني بالعناية به يا مولاي ، فإن حاله تذر
 بالخطر ، وأمل ضعيف في انقاذ حياته
 فأجاب ابراهيم :

أرجو منك أن تسهر عليه ، وأن تنقله إلى بيروت أو
 عكا ، عندما تسمح حالته بذلك ، لكي يسحر من هناك عائداً
 الى مصر

قال الطبيب :

— والفتاة التي جاءت تعود اليوم ؟ أسمع لها مولاي بالاقامة
 بحايه ؟

— نعم . فاني أحلها من قسمها ، وأسمح لها بالسهر على محمد
 الطبطبائي حتى يتم له الشفاء

كان الصابط قد أصيب بخرج خطير وهو بطارد الاعداء في الغلاة ،
وكانت رمرد بنت حمد القاسم ترافقه في تلك المطاردة ، فحملت الحرج
وعادت به مع بعض الفرسان الى حمص
ونقيت عكاه ، نواسيه وتعزیه ، بهما الجيش يتابع الزحف شمالا
الى حلب

كان الحرج بلعاً ، فلم يستطع الطهطاوي أن يحقق أميته كاملة ،
ويشترك في الحرب الى النهاية

وصلت اليه أخبار الانتصارات الحديدية التي أحرزها الجيش في
حلب واطاكية وبلان واسكدرية ، وإشاعات الصلح التي انتشرت
في كل مكان

رأى الطبيب أن مريضه قد استعاد صحته إلى حد محدود ، وأن
نقله إلى عكاه خير وأوفى من يقائه في حمص

وسافرت رمرد مع الصابط ، وقد أقسمت أن تسهر على راحته بعد
أن أنقذ حياتها . ووافها والده الفتاة الى عكاه

ومرت الايام . . . ومرت الاسابيع . . . وتولدت بين الاثنين
تلك العاطفة التي لا بد أن يعمدها احتكاك قلوبين ، كما يحدث قدح الرمان
تطير الشرر

كان الشاب يمطف على الفتاة . وكانت الفتاة يمطف على الشاب .
والعطف خطوة أولى في سبيل الحب !

فأحبها وأحبتها

ولم يتردد الوالد في إحاطة الصابط إلى طلبه ، عندما رغب اليه في أن
يعطيه ابنته زوجة حليمة

أشار الاطباء على عمدة الطهطاوي بالتزام الراحة والسكنية شهوراً
عديدة . ولم يسمحوا له بالعودة إلى ميدان القتال ، لأن الحرج الذي

أصابه قد ترك في حسنه أثرًا عميقًا ، ورعزع صحته ، وحمله غير قادر
على حمل السلاح

ولما علم ابراهيم ذلك ، أوفد الى صانعه رسولاً يحمل اليه سلام القائد ،
ويحمله من العهد الذي قطعه على نفسه ، عندما أقسم أن يحارب الى الهابة ،
وأن لا يهجر الصفوف الا إذا وافاه القدر
وأضاف الرسول على ذلك قوله :

— ثم إن مولاي يهتك على رواحك ، ويرجو لك السعادة مع
الفتاة الباسلة التي وقع عليها اختيارك

وفي الخامس عشر من سبتمبر (ايلول) ١٨٣٢ ، شهدت عكاه مهرحاناً
لم يسبق له مثيل فيها . فقد احتفل في ذلك اليوم رواج عمد الطهطاوي
وزمرد بنت حمد القاسم . وخرج الحرحي والشوهون حياً الى أسواق
الديبة وطرقاتها ، حاملين المشاعر ، هاتفين مشدين . وشاركتهم الحامية
في مهرحانهم ، فاطلقت الساق ، وأبهرت المارة ، وارتفعت في حو عكاه
أصوات النساء بالزغاريد

وهكذا تتجاوز الافراح والاتراح في الحروب ا
ولم يكن ذلك الرواح الاول من نوعه ، كما انه لم يكن الاخير .
بل كثيرون هم الصايط والحدود المصريون ، الذين ربطوا حياتهم بحياة ساء
من بات سورية ولسان ، في ذلك العهد الذي مشى فيه أسماء البلاد حساً
الى حب مع حدود ابراهيم ، ودمرحت في ايادي دماؤهم ، وتشابهت
في السياسة مقاصدهم ، وسافقت في عالم لعادة أمانيهم ا



انتقام السهارة

أصدر السلطان محمود الثاني رادته السيرة بتعيين حسين باشا قائداً عاماً للجيش العثمانية في الأناضول ، وأنعم عليه بلف «سردار أكرم» وروده بالأوامر والخطائر والمؤن . وسيره على ركة الله للاقتصاص من المصريين العصاة ، ورد أراهم باشا وعساكره على أعقابهم !

وكان حسين باشا من رجال السلطان الاحصاء وعوانه الامناء ، يشهد له الجميع بالذكاء والافتداه . وقد ساعدته الظروف على اثبات احلاصه لمولاه في وقائع عديدة . وهو الذي تمكن الانتصار بواسطه من القضاء على «الانكشارية» وقطع دابرهم من الآستانه

سار حسين باشا اذن على رأس جيشه المالحب . قاصداً الى حمص ، لعدة رميله محمد باشا . لكنه فصح المراحل بين عاصمة الساسة والحدود السورية سطه وشاذل ، طأ طأه أن أراهم باشا المصري لن يحرره على مهاجمة المدينة . وفاته أن قوة الجيش المصري المموية كانت تصاعف عرائم الحدود ، وتعلمهم . بعد انتصاراتهم المتتابعة - يهرأون باعدائهم وما يجرؤونه وراهم من معدات الملاك

وصل «سردار أكرم» الى اطاكية ومدن استراح قليلا من عناء السير ، واصل رحله الى حمص . لكنه ما وصل حصر الشمر حتى لقي بطلول الفارين من جنود رميله محمد باشا ، فقصوا عليه ما أوقعه بهم

المصريون من هرعة ومدلة وهوان . في معركة حمص الدموية . ورأى
الرحل نفسه في اضطراب الى العودة على أعقابه ، والاعتصام في حلب ،
اسطراً لقدم ابراهيم بحيث اليها

لكن سكان المدينة أوصدوا أبوابها في وجهه ، ولم يدخلوا اليها غير
الحرشي والمرصي والمصابين من الحدود ، قائمين لقائد العثماني : ذلك أن
تارك المصريين خارج الاسوار . هذا تغلبت عليهم فحالت أبواب المدينة .
أما اذا لذت بالفرار كمن سبقوك من القواد ، فاسأستودعك الله من
الآن ، وزحبت مهلين مكبرين ، تقدم ابراهيم والمصريين !

وكان القائد المصري في اثناء ذلك يخطط لمطاردة عدوه ، ولا يترك
له فرصة لجمع جموعه من جديد . فم ير حسين باشا بدأ من الاسحاب
الى موقع يستطيع فيه الثبات أمام المنتصرين الزاحفين . فاسرع الى مصيق
« بلان » تاركاً حياضه عند أبواب حلب ، وكية كبيرة من دحاثره ومؤنه
ومدافعه

وفي الخامس عشر من شهر يولييه (تموز) ١٨٣٢ دخل ابراهيم باشا
حلب الشهاب فاحتلها بلاقتال ، وأعد له السكان استقبالاً عظيماً بالمرح
ومجاسة . ودخلت المدينة في حظيرة الدولة المصرية ، أسوة بأحوالها .
وأعاد ابراهيم اليها ميران العدل والاصاف والظلم ، الذي فقدته من
زمن بعيد

وأراد القائد أن يأخذ حيشه النازل فسطاً وافرأ من الراحة ،
استعداداً لمعارك المقبلة ، فصدر بذلك بياناً الى حدوده ، قائلاً لهم إنه
يطلق لهم حريتهم أياماً معدودة ، على شرط أن يحترقوا الارواح
والاعراض والاموال

وعثم ابراهيم باشا الفرصة لنصر في أمر الحدود الذي خرجوا على
الظلم . وارتكوا أوزاراً يؤحدون عليها . فعقد مجلساً من كبار قواده

وزعماء التطوعين من أبناء البلاد ، تبوأ فيه مقعد الرئاسة ، وطلب
إلى قواد الجيش وضباطه أن يسيطروا أمام المجلس ما لديهم من
شؤون وشكايات

— ما اسم هذا الجندي ؟

— اسماعيل الحراوى

— والتهمة الموجهة اليه ؟

— القتل

— والفتيل ؟

— جندي مصري من رجال المدفعية

— وتفصيل الحادث ؟ وأسباب الاعتداء ؟

لا نعلم يا مولاي إلا شيئاً واحداً. وهو أن هذا الجندي قد انضم
على رميله بعد معركة حمص ، وأمسك بعقه ، وحققه بأسرع من لمح البصر
— أهو من رجال المدفعية ؟

كلا . بل من المشاة

سكت ابراهيم حد أن أفضى اليه الصابط الشاكي هذه التفاصيل .
ونظر الى الجندي المتهم ، وقال له طهجة المعائب المؤنب :

أليس من العار أن يقال عن جندي مصري إنه اغتال رفيقاً له
في النصر والجهاد ؟ دافع عن نفسك . فان هذا المجلس لم يصدر قبل الآن
حكماً على مذنب ، دون أن يصمى إلى دفاعه ويرن أقواله

رفع الجندي رأسه ، ونظر الى ابراهيم ، فاذا بعينه تدمعان ، وادأ
به شاحب اللون محتلج الشفتين

وقال بصوت منبث من أعماق صدره :

— نعم . اني قاتل يا مولاي . لكن عملة القتل التي أقدمت عليها

ليست انما أستحق من حله أن ينظر الي الدس ينظرهم الى عرم مفاح .
كلا . بل هي في عرف عشيرتي فصيلة وشارة شرف أفاخرها
— واية عشيرة تلك التي يعتبر فيها القتل فصيلة ؟

— الهوارة يامولاي . فاسماعيل الجرحاوي ، الماشي في حصرتك الآن ،
ينتمي الى تلك الفئلة العربية ، التي ربح أجدادها من الصحراء الى
الصعيد ، حيث طابت لهم الإقامة ، خطوا رحلهم في وادي النيل لكن
تفادى لهم الموروثات في موسم حيه مرعية محترمة . وقد عرسوه في
ذلك الصعيد كما عرسوا فيه أصاب الحيام

فأدرك اراهم أنه أمام رجل من أولئك المرانين الذين لا يسمون
على صيم ولا يسكنون عن دم مطلوب . فقد يثار لواحد منهم لفتين بعد
أشهر أو شهور أو أعوام . وهذه العادة قد امتزجت بدماهم فلا سبيل
الى انزعاجها . والآن يتوارثونها عن الآباء . والاحياء عن الأجداد
مد في نظرهم عاراً لا عار بعده ، وحكاً يستحق من يهيم به به أن يولييه
العوام دهورهم المهيباً واحتضاراً
فقال اراهم :

— قص علي قصتك يا اسماعيل . وسوف نرى فيها رأينا
كان الرجل قد استعاد ناته ومسح دموعاً حانية عرفت من عيبيه
بالرغم منه ، فشبك ذراعيه على صدره وقال :

— قل لي مد تحاية عووم يامولاي ، وكنت جيداً في الثالثة
عشرة من عمري . صغييف البنية ، مريضاً ، لا أدرك للأجداد بالثأر معي ،
ولا أقيم للتعالييد الموروثة وريثاً . وبقيت بعد قتل أبي وحيداً ، لي لم
يكن لها في القرية معين ولا نصير . فعملت بيت في روعي الانتقام .
ونزعى صحتي بهائيتها ، ونسهر على راحتي وشاتي . فترعرعت في كنفها ،
وكان الله عز وجل قد أورد أن يسحب دعاء تلك الوالدة الشكلى ،

ويجعل مني أداة للانتقام من القاتل الاثيم ، فكنت سعيد قواي شيئاً
 وشيئاً ، وأشعر مع الأيام بأن واحداً عظيماً قد فرص علي القيام به .
 وأدركت بعد حين أن أبناء العشيرة ينظرون إليا - والذي وأنا -
 نظرم إلى من صرنا عليهم ندلة والمكة ، وحيم عليهم العار ، وطعمهم
 الحين بطامه . ولما بلغت العشرين من العمر ، خاطبني أمي قائلة : « لقد
 حان الوقت وأذنت الساعة للرهيبة يا بني . إني أعرف القاتل الذي سبكت
 دماء أبيك ، وجمعت سحره بين الناس وهذا لاردرائهم . ان القاتل خرج
 الآن حراً طليفاً ، يباحثه أبوك المسكين ترقد تحت الرمل ، هناك ، طعمه
 للحشرات ، دون ان يقوم على الفرد شاهد » أو تندم عليه دبحه
 وإن استطعت أن تفعل ذلك ، إلا إذا انقمت لأبيك من قتله ، وتأرت به
 ثأراً دموياً ، بمحو العار الذي يكسها ، وبمكسها من الطر إلى الناس وحباً
 لوحه بلا خوف ولا وجل ! اذهب يا بني ولا تعد إلا وبذلك عصية بدم
 ذلك القاتل الجبان ! أما إذا لقيت حتفك ، فاني أقسم بنية أيامي هنا .
 في الكاء والحجب ! ، هذا ما قلته لي أمي يامولاي ، فأقسمت لها اني
 سأثأر لأبي . وأسرعت في طلب المريم ، فعملت أنه حدي في المدفنة ،
 وأن فرقته مع الجيش اراحهم بقيادتك . قلت في نفسي : « لو أحجمت
 عن اللحاق به ، لأفقت مني النار وصاع عبي الانتقام . ومدد ذلك الوقت ،
 صحت عريقتي على التطوع في الجيش . لاحقاً بالحرب فقط ، حيث أخذ
 السلوى التي أتوق إليها . بل أيضاً سحياً وراء النار الذي أشده ،
 والترصية التي أربع فيهم . لقد حاربت يامولاي واستسلمت في القتال .
 سل صباط حبشك عن فعالي في الميادين ، وعمما إذا كنت قد تسجيت يوماً
 عن مواطن الخطر ، أو وليت مدبراً في الاوقات العصيبة . لقد قتلت
 نواحي كحدي . وعندما حان الوقت للقيام بنواحي كاس نار بابيه ، لم
 أحجم عن ذلك ، بل انتهزت الفرصة ، وفنت قاتل أبي ، وأرويت طمعي

من دمه . بحثت عنه طويلاً حتى اهتديت اليه . ولم أنشأ أن الحق به
أدى في مستهل المعركة ، بل انتظرت الى نهايتها ، وتركته يقوم بواجبه بين
رفاقه رجال المدفعية . وبعد ما انتهى كل شيء ، وانهزم العدو أمامنا ،
ودخلنا مدينة حمص منتصرين ، وثبت به ، وقبضت على عنقه ، وانزعجت
روحه انزعاجاً . هذه قصتي يا مولاي ، لاريادة فيها ولا نقصان . حياتي
الآن بين يديك . ولك ان تصنع بها ما تشاء ، فأنت السيد الأمر المطاع !

شاوور ابراهيم مع قواده وانصاره . ثم اصدر حكمه على الجدي
القاتل المستقيم :

— ان القتل في عرف يا اسماعيل حريمة لا تعترف ، ايا كان الداعي اليها .
وايا كانت الظروف المحيطة بها . والقاتل يقتل . امستعد أنت للقاء
العقاب ؟

— نعم يا مولاي

— وارايتك الاخيرة ؟

— لم تقم ابي مأتماً بعد مصرع ابي . فكل ما ارجوه الآن ان
تبعث اليها جبري ، فتعلم ابي قد رحلت عن هذا العالم بعد ان ثارت لابي
من قتله ، وتقيم في البيت مأتماً ، وتضع على قبر الميت شاهداً ، وتدفع عليه
الذبيحة الاولى ، ونحصب الشاهد بدم تلك الذبيحة !

— سأفعل ذلك يا اسماعيل . اما تنفيذ الحكم فيك ، فاني اعهد به
اليك ، لاني لا اريد ان تموت ميتة المجرمين السفاكين . وان كنت في بطري
عزماً سهواً . بعد انام سلافي العدو من حديد في الميدان . يسعى ان
يلج القتال ، ونحوض عمار المعركة بما اعهد فيك من شجاعة واقدام ، والا
تعود من الميدان حياً ، هكذا ارجع اليك ان تكهر عن دنبك ، وتمحو
سيفتك . اتعدني بذلك ؟

— اقسم لك يا مولاي اني سأستشهد في الميدان ، وسيكون رفاقي
على ذلك شهوداً ا

٢ ربيع الاول ١٢٤٨ - ٢٩ يوليو ١٨٣٢

بيلان . . . مصيق موحش ، تملكه القوافل بين الاسكندرية
وحلب . وهو مقفل منيع وحصن حصين ، وعمر العراة الفاعين على كر
الاحبال . رأت هضابه الشام جحافلهم ، وسمعت صغوره الصماء وقع
خوافر خيولهم ، منذ أن عرف التاريخ الى الآن . ففي ذلك المصيق مر
الأشوريون والبابليون والفراعنة والفرس والاسكندر والصليبيون
وابراهيم بسلك الطريق الذي سلكه هؤلاء

ستون ألفاً من الأتراك رصوا في ذلك المقفل الحصين ، ومعهم مائة
وستون مدفعاً ، في انتظار ابراهيم وحيشه

لكن نظامهم مختل ، وادارة حيشهم رديئة ، والقوة المعنوية معدومة
من نفوس الجنود

وصل ابراهيم قبالة المصيق ، بجيش اقل عدداً وعدة من حيش
خصمه حسين باشا ، لكنه يفوقه نظاماً وادارة وقوة معنوية

اهمل القائد التركي احتلال بعض المرتفعات المشرفة على السهل ، فاستعاد
القائد المصري من ذلك الاممال

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر ، دون ان يترك ابراهيم لحيشه الوقت
الكافي للراحة ، اصدر امره بالمهجوم

كان حسين باشا قد حشد قواه جميعها في القلب ، وترك جناحيه في
حالة ضعف بين ، اعتماداً منه ان عدوه سيهاجم القلب دون الجناحين .
وهذا ما تطاهر به ابراهيم

لكنه شطر حيشه شطرين ، فقام أحدهما بهجوم عفيف على قلب

الجيش التركي ، بينما كان لآخر يلف حول ذلك الجيش ، فحاطه
سدرة من حديد و نار ، وقطع عليه خط الرجعة من جهة الانصون
وبعد ساعتين فقط ، تصممع الجيش التركي واصطربت صفوفه ،
فتساعف المصريون بمراسمهم . وما اقبلت الشمس على المغرب ، حتى كان
حدود السردار أكرم ، يولون وحولهم شطر الساحل ، ويعرون من
الميدان ررافات ووحدانا ، على ان يصلوا الى الاسكندرونة ،
ويحموا بالاستطول القادم اليها من الاسكندرية

وحسروا في تلك الموقعة لهائلة حارة حسيمة ، وبركوا بين ايدي
المصريين اكاداساً مكسمة من الاسلاب والهدم

وهرحسين باشا كميته من الصائد والحمود . وبعد ذلك الوقت لم
يقف له احد على اثر . ويقال ان جنوده قد فتكوا به في الطريق ،
طمعاً في الاستيلاء على ما كان يحمله معه من اموال طائلة

اما الجيش المهرم ، فقد تفرق في وهاد الانصون وبطاحه . وفي
٣٠ يولييه (غور) ١٨٣٢ دخل المصريون ثغر الاسكندرونة ،
واستولوا على المراكب السعة الى ارسلها السلطان امينة سرداره
وسير ابراهيم مرقاً من جيشه الى يباس ، حيث فاز بمن التجأ هناك
من لاعداءه . وتم له القضاء على الجيش العثماني قضاء كاملاً

دخل الصايط على ابراهيم وقال :

مولاي . امرتني ان آتيك بحبر اممصيل الحرحاوي . بعد معركة
بيلان . وان اقصي اليك تفاصيل سلوكه في الميدان . لقد حارب ذلك
الجندي رسالة م أعهددها من قل في حدي سواء . وعندما أصدرت
اليها أمرك بمهاجمة المدفعية التركية ، رأيت ذلك الشاب الشجاع يقضم
الصفوف ويماقل ، والسيوف يقطر بيده دماً . وقد سقط صريعاً في

الميدان وهو في طبيعة الهاجين . إن اسماعيل الحرحاوى يامولاي عاش
شجاعاً ومات شجاعاً !

وَمَرَارَاهِم بَارِسَانَ الْحَرِّ إِلَى أُمِّهِ فِي حَرْجٍ ...
فَكَتَّ الْمَكِينَةَ ابْنَهَا مَدْمَا بَكَتْ رُوحَهَا . لَكِبَهَا تُسْرِعَتْ إِلَى قَبْرِ
الْقَتِيلِ فِي مَدَوْنِ الْقَرْيَةِ ، وَصَلَتْ عَلَيْهِ شَاهِدًا ، وَدَعَتْ دَيْبِجَهُ اعْرِفَتْ
مِنْ دِمَائِهَا وَحَصَلَتْ بِهَا الشَّاهِدُ ، ثُمَّ قَامَتْ حَوْلَ الْقَبْرِ مَاثِمًا اشْتَرَكَ فِيهِ
أَبْنَاءُ الْعَشِيرَةِ كَبِيرُهُمْ وَصَغِيرُهُمْ

وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ تَتَقَلَّبُ مِثْلَ الْعَرِيَّةِ ، رَاوِمَةً الرَّأْسَ ، فَحَوْرًا مَاسِيًا ،
الَّذِي مَاتَ وَلَمْ يَتْرِكْ وَرَاءَهُ ثَرًا مَهْمَلًا ، وَشَرَفًا مَثْلُومًا ، وَعَارًا مَقْبُورًا !



فرسا البادية

سأل ابراهيم باشا المصري صديقه الامير بشير الشهابي :

— أتعرف هذا الشيخ العربي يا بشير ؟

فأجاب الامير اللبناني :

— أعرفه منذ أكثر من عشر سنوات ، فهو الذي مدني بالرحال ،
ومهد لي سبيل الخلاص من أيدي الاعداء ، عندما كنت طريداً ،
بصمر لي الاتراك الشر ، ومحاول عداقتنا ، حاكم عكا ، القضاة علي .
انه شهم شجاع محض أمين . ثم ان ما حدث بينه وبين الاتراك مدسيتين
من شأنه أن يجعلنا نعتمد عليه اعتمادنا على أنفسنا

— وماذا حدث له ؟

— حادث محزن أيها الامير ، أقصّل أن يقصه عليك بعنه

— على به إذن !

دخل الشيخ « عزام العير » على ابراهيم باشا في مصره ، وحياء
نحية الدليل ، ثم أشار الى اتاعه القادمين ورائه بالانظار ، فوقوا خارج
الباب وأنظارهم شاحصة الى رعيهم

هو شيخ في الثمانين من العمر ، تحيط بوجهه لحية كثيفة ، صمعة
البياض ، ويهرج ثوبه عن صدره فيه الشعر عو الاعشاب في واحات

البادية ، ولعل تحت حبيبه القطب عين ريسان كالطير الاحمر ، يتفاد
سيفه ، وفي عنقه عقد مصنوع من أنياب الضباع
رد عليه ابراهيم التحية وقال :

— أهلا بك يا أخا العرب . لقد حدثني عنك صديقي أمير لبنان .
وما يقوله هذا الخليف الوفي لاشك في صدقه . قيل لي انك هبطت
معك مع حميين من فرسانك ، ورعت في الانضواء تحت لوائنا ، والسير
مع جيشنا المطهر الى الامام ، لمحاربة الاتراك واحتلالهم عن هذه الديار .
لكك وصفت لذلك شرطا يبدو لنا غريبا أول وهلة . فان جميع
الزعماء الذين اصموا اليها ، قد تعهدوا ان تصيد الاوامر التي تصدر لهم
من مركز القيادة العامة ، وفي دواعي حملك على سلوك مملك آخر ،
والامتناع عن اعطاء العهد لأي عطاء الآخرين ،

صدق الشيخ النصر في عهده ، وهل يصوت لايزن معتصفا سرات
المسوة والشباب :

— ان « عرام الفاي » يا ابراهيم ، يحكي حياته عن حادثة الصدق
والصواب . فسمع الي . ثم احكم « سي » و « بك » بالعد والاصاف . ونشير
هذا — صديقي وصديقك — يشهد علينا ا

تكلم ا

— كان « بنوفايز » يؤلفون عشرة قوية من عشرة « عيرة »
الضاربة في بادية الشام . وكانت اذا ما ناديت قومي بان يخطوا الحياض
الى عروعدو ، او يشدوا الرحل الى ارض غير التي يصرون فيها اطنابهم ،
أرى حولى حلقات متواصلة من لمرسان والموادح والاطفال ، فأفجر
بالعشيرة مضجرة آتاني بها . ويرداد تقى بالانام المسلة ، مادام « بنوفايز »
في اسطاعتهم ان يدفعوا الى ساحات الوعى ثلاثة آلاف من القاتلين
المدهجين بالسلاح وقد شهد حودك المصريون اعمال رحالي في الميادين ،

عندما كانت روى الحرب دائرة بينكم وبين الوهابيين . وكنت في ذلك الوقت
حليفاً لكم . لكن دأركم ضعيفاً أيها الأمير ، فقد نيت ذلك أو
تأسيته ١

وسقص إبراهيم ، لكه تمالك نفسه أمام هذه الصراحة القويمة يعهد بها
في كثير من الناس ، وقال :

- ومن قال لك إذا نسبك أيها الشيخ الشجاع ، أتم حديثك أولاً ،
فإني مشتاق إلى معرفة ما حدث بعد ذلك

حدث أن نشد خلاف بينا وبين الدولة . فقد أرادوا أن يجمعوا
ما الأموال والأوراق والبوق والحياد . ورفضوا حاجتهم إلى طلبهم .
معتصمين بالتقليد ، واثقين من انفسنا . ونحن في الصحراء بعيدين عن
مواطن العمد ومراكز الحكم . لكنا احطاًنا في التقدير . وفي ذات
يوم ، فاحاًنا في ربوعنا حشاً عظيماً ، بما و به في المحوم حصوم لنا من اساء
البادية . فدارت بينا وبينهم معركة خافية ، كان فيها الواحد ما يحارب
حمية منهم وقد استسلت ساؤنا في القتال استسلال الرحى فيه . ودافعنا
جميعاً عن ارواحنا واموالنا وأرارنا ومواسينا ، دفاعاً شهد به ارض
الحى إلى الآن . فحش القلى لازر هياكلها معثرة في البداء ، يلعب
بها اطفالنا ويلهون ، لاسا نلقمهم من بعد نعوهم اصغارهم طلب الثار الذي
لا يد لهم من السعى اليه ، والاسقام لاساء عثرتهم ، آلائهم وأمرهم
وأعمالهم وأحوالهم ، الذين استشهدوا في ذلك اليوم العصب المشنوم . بعد
دارت الدائرة علينا ، لأن شجاعتنا لم تحمنا بعداً أمام تفوق المهاجمين بالعدد
والعدد . لم يبق ما أيها الأمير غير حمسين بين رجال وساء بعد
قلوا جميعاً ، لكن القصة الباقية منهم لم ترحل عن الحى . بل طلبا وبه
مقيمين ، بعد أن استعد العدو حاملامعه الخيام وسائقاً أمامه المواشى . وكنت
ساعة رحيل المعتصمين معانا مخرج دبيع ، رحت على أثره في عسوبة

طويلة . وعندما عادت الي قواي ، ونعكت من النهوض ، وجدت
مضى عاصاً عن بقي من أبناء قومي وم يكون ويستحبون
خيل لاراهيم أن الشيخ يتلم لتلك الذكرى . فقال له نطف وروق :
— كفى كفى يا عزام !

لكن البدوي أبي إلا الاستمرار في الحديث :
دعني أتم قصتي أيها الأمير . انك لم تطلع بعد على ماهو أشد هولاً
من هذا كله . قلت لك إن حميين من أبناء العشيرة طلوا على قيد الحياة .
لكن لم أقول لك إن العدو كان قد مثل بهم تمثيلاً شبيهاً : فهذا الرجل
جدع أفعه ، وذلك الطفل قطعت ذراعه ، وهذه المرأة حزت شعورها ،
وتلك العنزة اقتلع لسانها . . . نعم . لست مبالغاً أيها الأمير ، فقد اقتنع
الاعداء لسان استي ريب من حلقها ، وأطلقوا عليها منذ ذلك الوقت
اسم « خرساء البادية » . هذا ما حدث ، بل هذا بعض ما حدث . وقد
افحصنا جميعاً أن نعد للثأر عدته . وما رلنا منذ ذلك اليوم نعمل في
هذا السبيل . لقد أحنت الايام طهري ، وأثرت البوائب في أعصابي ،
فأقيمت مقاليد العشيرة بين يدي وخرساء البادية استي المحبوبة المعدة .
أهتفوق في شجعتي فرس فرسان العرب . ولو كانت جميع سائنا مثلاً
لهضلت فيما النساء على الرجال !

— وأين هي !

حارج المصرب أيها الأمير ، مع العشيرة كلها . فقد قوصا جيامنا ،
وشحصا اليك جميعاً . المذكور ولاهت ولاطفال . لاسفي منك
عبر شيء واحد ، وعو أن ترودنا بالسلاح و« حيرة » ، وتركنا محارب
الارث كما شاء وأيس شاء وحين شاء . لا تربطنا بشروط وقوانين
وأظمة وأوامر . دع وشأننا . إنني اعاهدك بأن يقاتل أولئك المشوهون

لأقطع مهمم والاعرج، الاعمى مهمم والاحرس، قتال لم تعهده في أحد
 من المطوعين والاصار. اقم لك برهت شهداء. ولأن الذي تسعى
 اليه، ان اكون لك عنصاً وفيك، اد أن السيل الوحيد الى الانتقام هو
 الاصواء تحت لوائك. اني اصارحك القول ايها الامير بأن حقدي هو
 الدافع الوحيد الذي يدفعني الى القتال. ان الذي رآه امامك، يحط
 ودك لانه يحبك. ومره لايمه. ان لالك محارب عدوه، وهو يسعى
 الى الانتقام من ذلك العدو. فاسئل حقدي هذا ايها الامير. لقد كان
 العربان يدعوني صياد الصاع، لاني كنت اقتصبها افساحاً، واهاجها
 في معاورها، واحققها هاتين البدن، ثم اسع اياها وضوعها عقداً
 احلى به الآن عني كما ترى. فدع الشرح عرام العيز يستحيل اليوم
 صياداً للسكاة في الميادين، وعندما نفي لاني، واعل العار بالدم.
 سوف اعود الى البادية، وانتظر حلول الاحل فرحاً مرتاحاً.

فاجاب ابراهيم طلبه، وحقق امنيته

كانت اجبار عرام وحرساء البادية تنقل الى الفائد المصري كل يوم.
 وكان ابراهيم يدي ارتياحه الى اعماله و فرقة الخسنيين، وبلاؤها في
 القتال. فان أولئك الانالسة المشوهين، كانوا في المعارك حرعون للحدث
 البطامى، مما يحقون بالعدو من ادى، في ماوشته ومصدر داتهم وعرواتهم.
 ومهاجمة انموائل الحاملة الى الانراك مؤونة والاررق وانياء
 فقد اشتركت حرساء اسديه وعصابتها في معارك الرراة ودمشق
 وحمص وحلب ونطاكية وبيلان وياس، وم مقدم من رحاطها غير
 أربعة فتوا في مصيق بيلان، حيث سقطت صخرة عليهم وم يقتلهم
 الجبل، فسحقهم كما تسحق الرحي جنوب الحنطة.
 وبعد الانتصار الباهر الذي أحرره المصريون في تلك المعركة

اشتهورة ، واصل ابراهيم السير الى طرسوس . وفي السابع والعشرين
من يولييه (تموز) سنة ١٨٣٢ دخل مدينة دندنه ، فاتحاً

وكان الجيش في حاجة الى الراحة بعد ذلك العناء الشديد . وكانت
تلك المدينة الحد الاقصى الذي وضعه محمد علي باشا نصب عينيه

كان يريد احشاشاً لمشروعائه الواسعة ، فتم له الاستيلاء على مناطق
العنات جميعها . وكان يريد ارساً عينه بالمعادن فتم له ما أراد . أما
الجيش التركي . فقد تمزق شراً ممزقاً ، وتشتت ولوله في الغفار والجال ،
واحتفت آتار قنده العام ، ولم يبق أمام ابراهيم ما يحول دون مواصلة
الزحف والاستيلاء على الاناضول

لكه حصر التزيت رائده ، وأرسل يرف الشرى الى آبيه عزيز
مصر ، طالباً منه أن يروده باوامره

واتخذ أدبه مركزاً للقيادة العامة ، وحشد جيشه في السهول والبطاح
الممتدة حولها ، وأرسل كتائب من العرسان لاحتلال المواقع الحصينة في
داخلية البلاد ، فاستولت بلا قتال على «اورفاء» و«مرعش» و«اركلي»
وعبرها من المدن والقرى متتارة من الوجهة الحربية

حل الشتاء . وكان الجيش المصري قد استراح واستعد حوده قوام
المهوك . وصدرت الى ابراهيم إرادة آبيه بتلافة لاعداء والزحف على
الآستانه ، ما دام السلطان لم يحضض بعد لمشيشة تابعه محمد علي ، وما دام
الرب العالي لم يعترف بالأمرا الواقع ، لم يحشد جيشاً لاعادة الكرة ، ومحاولة
إحراج المصريين من سورية واطراف الاناضول

وبعد مباوشات ذات أهمية محدودة ، واحتلال مواقع رأى القائد
المصري وحبوب احتلالها ، عقد ابراهيم مجلساً حريباً ، قر الرأى فيه على
العمل ، بطريقة تجعل الجيش التركي القادم من قلب الاناضول ، يلتقي

جيش ابراهيم في قونية ، حيث يتم القضاء عليه
وهكذا كان

فبعد أن هزم المصريون عساكر الدولة الذين حاولوا الوقوف في
طريقهم ، بقيادة عثمان باشا ورووف باشا وكريديلي أوعلو محمد باشا ، قام
ابراهيم بحركات ومناورات جعلت القائد العام التركي - الصدر الاعظم
رشيد باشا - يخاف سهول قونية ميداناً للمعركة للقطة الفاصلة
كان عدد الجيش المصري لا يزيد عن ثلاثين ألف حدى بين
فارس وراجل ، وكانت المدفعية لا تزيد عن ستة وثلاثين من مدافع
الميدان

وحول الجيش كانت تحوم فرق الفرسان المتطوعين ، من
البدو واساء الحال ، وبهم حرساء الدابة ورفاقها ورفقاتها
وأقل الصدر الاعظم تسعين ألف مقاتل ومدافع لا تعصى



٢٩ رجب ١٢٤٨ - ٢١ ديسمبر (كانون الاول) ١٨٣٢

كان الصاب كشيخاً ، فاستمد ابراهيم من ذلك ، واتخذ من الصاب سترأ
يحمي جيشه عن انظار العدو القبل عليه ، ولث ينظر الصدر
الاعظم وحده

رحم رشيد باشا طبقاً لخطه كان القواد الارك لا يجيدون عنها
بالرغم من اسكساراتهم المتوالية . فقد رتب الصدر الأعظم جيشه في
قونية ، كما رتب ساماؤه جيوشهم في الزراعة وحمص وبيلا
وجعلت مدافع الانرك بمدف يراها على المصريين . لكن ابراهيم
باشا لم يحرك ساكناً ، فعز هذا السكوت قائد العدو ، وأمر فرقتين من
جيشه بالقيام بحركة التفاف حول الجيش المصري
وترك ذلك ثغرة بين المشاة والخيالة . فاعتم ابراهيم الفرصة ، وأطلق

حدوده في تلك الثغرة ، بينما كانت مدومه تصب دفعة واحدة حمم
براكينها على الأتراك

وشدك الجيش في قبال عام ، وتلذت السماء بالعبوم والدخان ،
وامر ابراهيم حموده بالقضاء على العدو فصد ، أماماً لأقبيمه مدده
ولم يحه النصر ، من حصص له صاعراً كما حصص له من قبل . وبعد
ساعات معدودة من بدء الهجوم ، تصعصع الجيش التركي ، وندت عينيه
بوادى الانحطاب

وحقاه ، علت في رحاه ميدان صيحه هائلة ، صيحه دوماً صراح
المخربين ودوى المدافع ، واحتدت الاسار فرساً يعدون مسرعين
هائمين مهلبين مكبرين ، قاصدين الى ربوة التي كان ابراهيم يشرى
من فوقها على سير القتال

وطرقت اذنه هذه الكلمات ، متقطعة بين الصباح والهليل :

ـ خرساء البادية ... فايز ... العربان ... الباشا !

وبعد دقائق كانت فرقة الحسين ، - وقد فتكت الدران بها -

وم يبق فيها غير ثلاثين من الأبطال - أمام ابراهيم !

وصح الشيخ عزام القاير :

ـ اليك الأسير أيها الأمير فاعمل به ما تشاء !

نظر ابراهيم إلى الأسير ، فاستوات عليه دهشة عظيمة !

ذلك الأسير الذي يقوده العربان ليه صاعراً دليلاً ، هو قائد الجيش

التركي العام ، هو الصدر الأعظم رشيد مت باشا نفسه !

رَدَنَ يغفل من ناحية إلى أخرى ، في وسط المعركة ، فصل الطريق

ووقع في كمين أقامه الشيخ عزام وابنه وعصانها ، وهم لا يدرون مقام

الأسير ، ولا يعلمون غير أنه قائد من قواد الأعداء ، ساقه سوء طالع

اليهم قبضوا عليه

وانتشر الخبر بين الاتراك قولوا من الميدان مدبرين ا
واصدر ابراهيم امره بظاردة فلولهم ، فانطلق فرسانه يعملون
السيوف والرماح في اقصية الفارين
وكان ذلك الانتصار اعظم انتصار احرزه ابراهيم في تلك الحروب
الطاحنة ، فقد قتل فيه من الاتراك ثلاثة آلاف ، ووقع منهم في الاسر
عشرة آلاف ، واستولى المصريون على كميات هائلة من لدخائر والمؤن ،
واثين وتسعين من الدافع

أما الجرحى ، فلم يحصرم عدد لكثرتهم
وبلغت حائز المصريين مائتين واثنين وستين قتيلًا ، وحمائم
وثلاثين جريحًا

ولو اراد ابراهيم ، بعد ذلك النصر المبين ، أن يهزم عرش آل عثمان
لاستطاع ذلك . ولو رام الوصول إلى الآستانة لبلغها في بضعة أيام ، دون
أن يقف في سبيله حائل ا

لكن السياسة شامت عبر ذلك ، وللسياسة أحكام قاسية ، توقفت
رحم الحيوش بلا قتال ، وتعيد السيوف إلى لاغمة بلا قتال ا

وبعد انتهاء المعركة ، دعا ابراهيم باشا اليه الشيخ العربي وابنته
ومن بقي معهما ، ونهى على ما أبدوه جميعاً من شجاعة واقدام . فقال
عزّام :

لا إحالك تنكر أيها الأمير ، ان كنا في الميدان ، من عليك إي
ها ، أشبه بالاناسة وقد انصفت من حميمها ، تنغي الفلك بالناس
والقبض على الارواح . ولا إحالك تنكر أيضاً اي بررت بالقسم ،
وأن أبائى هؤلاء كانوا عند حسن طبعهم ، واهم خدموك
في الوقت الذي سعوا فيه إلى تأرهم وأدركوه . لقد ذهبا من الاعداء

مئات، ومثلنا هم كما مثل احوالهم من قتل رجال ونبتنا لكسا فقدما
عشرين من خيار آبائنا ، سوف نكيبهم ونقيم لهم مأتما في الصحراء
فقال ابراهيم :

— أقر بذلك كله يا أخا العرب ، وأقر أيضا ، بأنى شاهدت النساء
في هذه البلاد يحاربن مع الرجال جنبا إلى جنب . لكنني لم أرى في
واحدة منهن ما رأيته في ابنتك «حرساء البادية» من قوة العزّة وشات
أعاش والاستبصار بالموت . فيحقوقك أن تهاجر بها ، ويحق لاسماء الحرية
ان يلقوها بعد الآن بخارسة البادية !
فأجاب الشيخ :

لأنني ، يحسن الشجاع فعورا معه مثل اعتراف الإبطال له
بالشجاعة . وافرارك اليوم أيها الأمير ، انما هو شعار شرف و دل ، يحملني
أسير بين الاقران رافع الجبهة شامخ الرأس
ومادا نطلب الان أيها الشيخ ، رهنا مني هي احترامي وتقديري
وإحلالى ؟

أن يحملني في حل من عهدي . فقد تمتك لعرص قصيته ، ولعناية
وصلت اليها . فدعني الآن أرحع مع هذه النقية البنية من أبطال
«بي فاير» الى الحى الذي تركناه ههنا ، والحيام التي طمرناها في رمال
الصحراء

فمد ابراهيم يده الى الشيخ ، فصافحها عرام ، ثم طمع عليها قلعة حرة
وقال :

لقد ساعدتني على الانتقام من أعدائي ، فليرعك الله دائما بيمين
عبابه ، ويدد أمامك الحيوش ، ويجعل سبيلك الى النصر والعلى ممهدا
دائما أبدا

وقبل أن يغادر البدوي مضرب الامير ، قال ابراهيم :

— أريد أن اودع ابنتك الوداع الأخير —

فنادى عرام العاير « حرساء البادية » وبقة الرقيق والرفيقات .
فدخلوا جميعاً على إبراهيم ، وأطال القائد المصري العظيم نظره في أولئك
الاطال ، الذين لم يكن فيهم واحد غير مشوه . والذين ألغوا الزغب في
قبوب الأعداء والذعر في نفوسهم

ثم اقترب من العاة الشجاعة ، وصم رأسها بين يديه ، وقلها بين
عينيه ، قبله تم على ما كان قلب ذلك القائد المحك ، والحدي سوار ،
يكفه للاطال من عبة وإحلال

وعاد القوم الى حبيهم ، وصروا فيه أطناهم من حديد ، وحلت
عندهم منذ ذلك الوقت ، الأفراح محل الأراح !



الشيخ والراهب

دهش الصايط المصري ، سليم بك ، عندما حازه الحندي الحارس ،
وقال له إن شبحاً مسمماً وراهباً مسيحياً يطلان بالخارج المشول بين يديه ،
وانهما قادمان من بعيد لهذا الغرض

كان اراهيم باشا امصرى قد عهد الى سليم بك بقيادة الخامية المصرية
الناقية في « انطاكية » وحذره كثيراً من الحواسيس الاثرية واصارهم
من « بناء اللاد » فكانت أول فكرة تبادرت الى ذهن الصايط ، انه امام
اثنين من أولئك الحواسيس ، متكررين في رى رجل الدين

لكنه امر باحضارهما ، فدخل عليهما

هما رحلان في العقد الثامن من العمر . احدهما معمم والثاني حاسر
الرأس ، كثيف الشعر ، تتدلى على كتفيه حدائن بيضاء . وتندسط على صدره
لحية طويلة تزيد هبة ووقراً . اما الشيخ المعمم ، فاحيه صغيرة لكنها
كاحتها ناصعة البياض . والاثنان يرتديان ثوبين مفشاهين ، يعبلونهما الى
نور الصحور الركابية الفاتحة ، التي تكون منها المرتفعات المحيطة بالمدينة
— من انما وماذا تريدان ؟

التقى الصايط على الرحلين هذا السؤال ، رغبة منه في معرفة الداعي
الى تلك الزيارة العريبة . لكن الشيخين لم يردا على سؤاله . بل تبادلا
مظرة ، وقال احدهما للآخر :

— لا أرى في هذه الحجرة غير مقعد واحد . فاجلس عليه يا لويس .

انت تبت أكثر مني ؟

فأجابه الآخر :

لا . بل اجلس انت يا اسماعيل . انت أكثر مني سناً ، ولم يسبق

لي ان جلست في مكان وركبتك امامي واقفاً . اجلس

ظن سليم بك انه امام اثنين من المحايين ، وانه سري مشهداً مصحكاً .

فشار اليهما قائلًا :

— اني ترك لكما هذا الديوان ، الذي اجلس عليه ، وهو

يكفي لعلوس شخصين

فأخذه الشيخ والراهب إلى الديوان وترسما عليه . ثم التفت احدهما إلى

الصابط وقال :

— اجلس الآن ايها الصابط . واصح الينا

اطاع سليم بك وهو يتسم ، وسأا الزائرين :

هل لكما الآن . وقد اعترنما مسيكنا اليدبين الأمرين هـا .

ان تتكلما وتفزيا الي بما جاء بكما الى هنا ؟

فقال الشيخ لرفيقه :

— تكلم انت يا لويس

وأجابه الراهب :

— كلا . لم أسمع لنفسي منذ ثلاثين سنة ان أحاطب أحداً في

حصرتك يا اسماعيل . انت أكثر مني سناً ، ولست عليا جميعاً واحب

الاحترام

فقال اسماعيل للصابط :

اعم يا بني أسأ لم نتحشم متاعب السير على اقدامنا ساعات

طويلة ، لكي نخطي رؤيتك أنت فحسب اكلا . اني حدث اليك شأن

آخر ، وهو ن نطلب ملك القيام مهمة يتعدر علي التياء بها . فقد علم ،
أن الأمير اراهيم بن محمد علي باشا المصري ، دحر جيوش الارمن في
« قونية » وأن السلطان عرض عليه صلحا رضى به عزيز مصر .
فاراهم ادن سيمود ادراجه ، وعمر هذه المدينة في طريقه الى دمشق
ولبن . فريد أن راه ، لاسا رعب في أن يفضى اليه بسر لا يستطيع
اطلاع أحد سواء عليه . «هل تتعهد لنا بحمل رعبنا هذه اليه ؟
لكي لا نعرفكنا . ولا نعلم من امركنا شيئا

اسمع يا سي . اني أدعى اسماعيل . وهذا الراهب يدعى نوبس .
هو فرسي ونا مصري . لقد احترنا النمايين من العمر ، وشعر بنا
نقرب من اللحد يوما بعد يوم . بنا نقيم في صومعه في «الحل الاقرع»
على مسافة قصيرة من «أنطاكية» هذه ، مدأ أكثر من ثلاثين سنة .
هذا ما طلعك عليه اليوم . ودا أردت معرفة شيء آخر ، فيكون لك
ذلك عند ما نرشدنا إلى اراهيم باشا ، ونعهد لنا سيد الاحتماع به . عم مساء
يا سي !

واصرف الشبحان ، وتركنا الصايط المدمري حارًا ، مفناثلا :
«أيكون هذان الشخصان حاسوسين ، أم مهوئين . أم صديقين عاقبين ؟»

كان الجيش المصري في ذلك الوقت يطارد فلول الاتراك في الاماصول ،
بعد موقعة « قونية » الفاصلة . وكان سكان المدن يمنحون لاراهيم
الانواب والصدور ، لاسهم كانوا نائمين على السلطان وحكامه ، مسطرين
قدوم العاتيين

وبينا اراهيم باشا يسطر سائر انبه على تلك النوع ، في انتظار
اوامر جديدة ، كانت لدون الاوربيه نقشاور وتداول ، وكان رحلها
بمقدون المؤتمرات ، وقد بعثت انتصارات اراهيم الزهنة والحو في
موسمهم

رأت روسيا ان قيام دولة قنية قوية على صدى الدستور ، يقضي
على الحلم اللديد الذي كان المياصرة يعلمون انهم به ، وهو ان يرثوا
السلطان ومملكته ، بعد موت السلطان واصمحلال مملكته ا
ورأت انجلترا ان دور المصريين وحملتهم الاستانة ، يؤدى الى
تدخول روسيا ومراحمها في ذلك اميراث لتتصر ، ويقوم من جهة اخرى
عقبة في « طريق الهند »

وللمرة الاولى في التاريخ ، عقدت محالمة بين دولتين لاسمى للتوفيق
بين مصالحهما

وللمرة الاولى ، كانت العداوة والراحمة سببا لافاق خصمين عبيدين ،
يطمعان في قرينة واحدة - على حصص ثلث يتحضر للتوثوب على تلك
القرينة

ودارت المحاررت والمفاوضات والمساومات ، بين أقطاب السياسة
الانجليزية والروس والفرنسيين والأتراك والمصريين . وصدر أمر محمد على
إلى امه ابراهيم باشا بالانصيحة ، ووقف رضى القتل ، والامتناع عن السير
الى الاستانة

ورفض الاسد في « كوتاهية » يرقب مايجيء به القدا

٢٤ ذو الحجة سنة ١٢٤٨ — ١٤ مايو (ابر) سنة ١٨٣٣
عهد السلطان محمود الثانى إلى سمير فرنسا ، البارون روسان ،
بتوقيع المعاهدة باسمه

وعهد محمد على باشا إلى امه ابراهيم باشا ، عهد به السلطان إلى السمير
ووقعت المعاهدة « كوتاهية » التى سجدت لمصر انتصارها ،
وأعطت ابراهيم ثمرة ذلك الانتصار

تبارك السلطان محمد على باشا عن مصر وسورية وأدنه وحرره

كريث ، ولاراهيم عن ولاية حدة وعن لقب « شيخ الحرم المكي »
وأصدر محمد علي لاسه رامة شعيبه حاكما على الاقطار التي انتزعها
من السلطان محمد السيف ، مع احتفاظه بقيادة الجيش العامة
وبعد أن أمن القاطن حدود الامارة الجديدة ، أمر به سحب الحدود
وعودتهم إلى المدن السورية والحدود الاسيية . فتولت هيئة أركان
الحرب توزيع ذلك الجيش المؤلف من خمسة ونمابين الف مقاتل في
أنحاء تلك البلاد

وقرر ابراهيم اتخاذ « انطاكية » مقراً لقيادة العامة . وحمل بمكر
في الشؤون الادارية ، بعد أن كان الحاج محمد في الشؤون الحربية

صدر الامر الى سليم بك بالاعمال في طرابلس ، لتسلم قيادة
الحامية المصرية في ذلك اللواء الهام . بعد أن أصبحت « انطاكية »
مركزاً للقائد العام وأركان حربه . وسعد لارجل ، ووقع الى رئيسه
تقريراً عن أعماله ، وعن الحوادث التي وقعت في بلدة التي كان مشرفاً فيها
على شؤون المدينة

وتذكر ربابة الشيخ والراهب ، وأرغسه التي أنصياها اليه ،
وتعهد به بأن رفع أمرهم الى ابراهيم بشأن عودته من الاناضول
كان لكل حادث - خليل أوتاف - عميه ساية في طرابلس ابراهيم .
وكان ذلك المائد انضمام واداري الحارم والسياسي الماهر ، يفتح معه
جميع الامور ، كبرها وصغيرها . فاثارت فيه قصة الشجين رعدة
شديدة في الوقوف على سرهم . وأوفد في الحان كوكبه من الفرسان ،
بقيادة سليم بك ، إلى « حل الاقارع » لبحث عن الصومعة ، والذئور على
العرييين ، والهي بهما الى انطاكية

ذهب سليم بك مع فرسانه قل القجر ، وعاد الى المدينة في المساء ،
وطلع القائد العام على نتيجة رحلته

رفض الشيخان الخروج من الصومعة ، وطنا اليه بالروح أن يحى .
ابراهيم بنفسه اليهما ، لاهما لا يغويان على السير على أقدامهما :
لقد تبين لي بامولاي انهما صادقان ، وحيل الي أن ملك امون
يردو عنيهما ، وأنهما لن يظلا على قيد الحياة أسوعا كاملا
رأى ذلك في رعة ابراهيم وصاعف دهشته ، فأسرع في صبيحة
اليوم التالي شاخصا الى الجبل

كان الشيخان بقيان في معارة كسنا أيديهما بالأعشاب ، وسدت
مفاصلها بالأعصان ، وقد استلقى الاثنان في ناحية منها ، على فراش من
أوراق الشجر اليابسة

نادرهما ابراهيم بالسلام ، فردا عليه التحية بأحسن منها . وحاولا
الهوس لكهما ، يقويا على ذلك . فحس ابراهيم على لارص بجأسيهما ،
وحمل بلاطهما بالحديث ، ويطلب منهما أن يعطيا اللثام عن سر
وجودهما في ذلك المكان

تخاطبه الشيخ سماعيل بصوت ضعيف ، كان يصعده صدر نحره
الأيام صلوته ، وقطعت أوصاله ، وجمع عروقه ، قل .

ابى احبي فيك بها لأمر ، رافع للواء المصري حفاة في مبادي
الفضل ، وابن المهد الذي أعاد الأمن والسلام إلى ربوع وطني ، محمد علي
باشا +

فقاطعه ابراهيم قائلا :

— أمصري أنت ؟

— نعم . أنا اسماعيل الدمياطي ، ابن الشيخ عمر الدمياطي ، من
العشاء الذين حلت بهم نعمة ابراهيم . لقد رحلني في عياض السجون ،
ثم قل «أمر من » مراد بك « لندب لم يقتروه » ، فحقت على حياتي ،
ورحلت عن دمياط مسقط رأسي . وأقيمت في الصحراء وحيدا

— وهذا الراهب ؟

— هو الاب «لويس دي ماسينيون» من رجال الدين الفرنسيين .
ان حياته سر من الاسرار الرهيبة . فقد هجر وطنه ، وحاء مصر مع
حمود «بونابرت» . لكنه ترك الجيش وشأنه ، وراح يطلب الظمأبيه
في الصحراء مثلى . وهناك التقيا ، في مكان طابت لنا الاقامة فيه ، مهدين
عن الناس وشروهم . وكانت الاحار تصل اليامن الساورين ، فمما أن
الجيش الفرنسي قد دحر المهالك واستولى على البلاد . ثم علما ان
الفرنسيين قد رحلوا عن مصر . ولبسنا انا أليك واستفحال العداوة
بينه وبين الولاة لاراك . وفي ذاك يوم ، اردنا ان نشاهد النيل في عمراء .
فخرجنا من عزلتنا وتوغلنا في الحقول

« كانت حمود ابيك في ذلك الوقت مرابطة في طريق الاسكندرية .
لامنك بمدوب السلطان ، اوالى «على الخراثرلى باشا»

— لقد فتكوا به قبل وصوله الى القاهرة

— نعم . ودعوا حاشيته ورحاله دبح الاسام ، وقذوه أسيراً الى
المخروسة ، واستولوا على ما كان بحمله من نعم وأموال . لكن صابطاً
من أخصائه تمكن من الهرب ، ومعه كبر ثمين لا يفدر بمال
— أى كنز هذا ؟

صندوق صغير فيه من الخواهر والحجارة السكرعة ما يهر
الابصار . وقد مات ذلك الحنذى في طريقه ، متأثراً بجراحه . وترك
بحامه ذلك الصندوق الثمين ، الذى وقع بين أيدينا دون أن نعى الى
الحصول عليه . فأخذناه وعدنا الى عزلنا لكنا عزمنا على الرجوع عن
مصر ، لانا مللنا البقاء في بلاد يتكالب الحكام على الاستئثار بالسلطة
فيها . نعم ، رحلنا عن مصر لانا كما نمتنى الراحة ومصر لراحة فيها .
وعولنا على الاقامة في بلاد لا حرب فيها ولا قتال ولا دماء . كان في

استطاعنا أن نصبح أعيان وأن نشيد القصور . لكن كما نبحث عن
شيء آخر غير المال والعي وفاحر الرياش . كما نبحث عن لراحة فقط ،
عن اراحة دون سواها ، عن اراحة التي كانت تمتعنا بها .
فرحنا ، وقطعا انما كانت الشاعرة ، وحرنا صجره التي خرجنا منها
سالمين . وظلنا بطوي اليد والعقار ، ونصعد حلا ونهبط وهدنة ، حتى
وصلنا الى هذا المكان الذي كان لناش والرهان يتجذبه من قلبه قرأ
لهم . فكنا فيه ، وما زلنا في هذه الصومعة مد ثلاثين سنة . حنا في
سن الكهولة ، وها قد أدركنا الشيخوخة كما ترى . أما السكر الذي
هدفته الاقدار بين أيدينا ، فقد حملناه معاً ، واحتفظناه ، وأقسمنا أن نعيده
الى الرحل الذي يقود مصر من رثن القوصى وويلات الحروب لاهلية
— وهل وجدتم ذلك للفقذ ؟

— نعم . لقد فعل أبوك محمد علي باشا ما لم يفعله سواه من الطامعين
عصر . وأحييت في الادهان ذكرى الفاتحين من أبناء مصر في
المعصور العارة فاذا كانت بلاد اليوم تسفل عهداً جديداً ، عهد راحة
وعهد وسؤدد ، فليكنها يعود الفصل كل الفصل في ذلك . ومن أحق
مكناً أدن بالاستيلاء على السكر الذي احتفظ به الى اليوم ؟ نلده
ناه ولاي إله لك . أما نحن فسا نحن بالموت بتعنى رويداً رويداً في عروقنا .
وقد ظلنا من الله ، الذي قضينا ثلاثين سنة نهل اليه هـ ، أن يقود مصر
من العباد ، أن ينجس رحل عن هذا العالم معاً . وفي يوم واحد ، كما رحلت
عن مصر معاً وفي يوم واحد ، وانه يستجيب دعاءنا

سكت الشيخ لحظة ، ورفع نرهب رأسه ، وقب منمنا :

— نعم . بعد ساعة ستطلق النفس من علاف الحسدى ، وصعد

الى الخالق القدير ا

وأشار الشيخ الى ناحية من المغارة وقال :

— ارفع يامولاي هذه الصخرة ، وادفعها الى النجس ، وحد ما تجده
وراءها

فهم ابراهيم الى الصخرة التي أشار اليها الشيخ ، ودفعها بيده ،
فوجد وراءها صندوقاً حديدياً علاه الصدأ
قال الشيخ :

— لا تفتح هذا الصندوق هنا يامولاي . خذه معك الى مقرك في
المدينة ، واصنع به هناك ما تشاء

فتح ابراهيم الصندوق ، فوجد فيه من اللآلئ ، والخواهر والخلي
مالاً يقدر بثمان . وكان جماعة من التجار اليهود يحبون البلاد في ذلك
الوقت ، وراء صفقة رابحة أو مساومة مفيدة . فأرسل ابراهيم في طلبهم .
ودفع اليهم ذلك الكثر العالي ، مقابل مبلغ طائل من المال ، أنصفه على
الحرثي والمشوهين والمورين من أهل الحدود القتلى

أما الشيخ اسماعيل والراهب لويس ، فقد قصيا نحبهما في تلك
الصومعة المعرلة ، ودعا على شاطئ . وبحيرة الطاكية ، تنقيداً لارادتهما
الاخيرة

هناك يرقد الناسكان ، اللدان عاشا مدة ثلاثين سنة في زهد ونفث ،
بجانب ثروة طائلة لم تمتد اليها أيديهما ، عملاً بالعهد الذي قطعاه على نفسيهما



الادب والدين

ألقى النصرقياده لبراهيم في «يلان» فسكر حوده بشوة الفوز ،
وتقدم اليه الصباط طالبين بالبحر استشف الرحف إلى الأمام ، للقضاء
سهاثيا على قول الجيوش العثمانية المعترضة ، والوثوب على السابق ، ورفع
العلم المصري على قلاع البوسفور

لكن ابراهيم الحكيم المحك ، أنى الاذعان لرعة مساعديه ، وقال
إن التريث أفضل من التسرع في الحروب والغزوات

فتحت الاسكندرويه أبوابها على أثر معركة «يلان» فدخلها
المصريون ، وحتلوا بعدها ايطاكية ولادقية والسويدية . ودخلوا
طرسوس هادنة في ٢٧ يولييه (تموز) سنة ١٨٣٢ . وأرسل ابراهيم إلى
السلطان يقول إن أناه محمد على باشا يرعب في وضع حد للقتال ، وعقد
صلح يحاب فيه المصريون وحلفاؤهم إلى شروطهم ومطالبهم

لكن السلطان رفض الدخول في معاوضة ، وأبى إلا أن يهرم ذلك
التابع الذي هزم جيوشه في الليادين

فبر ابراهيم طلائع جيشه إلى الامام ، للقاء طلائع العثمانيين من
حديده ، ووقعت مفاوضات كان الفوز فيها حليف المصريين ، ووضع
ابراهيم نصب عينيه الاستيلاء على «قونية» التي علم أن الانراك أحلوها ،
استعداداً للمعركة حديده ، أعدوا لها العدة على مقربة من المدينة ، في
السهول المحيطة بها

وكانت الحوادث المصرية تجد في السير نحو « قونية » لقاء الجيش
التركي، الذي حرده السلطان وسيره بقيادة وريره الأكبر رشيد باشا،
لصد « العصاة » وتأديب « الثائرين » وطرد إبراهيم من الاقطار التي
فتحها بعد السيف، وانقاد عاصمة العثمانيين من العزاة المنتصرين
وما كان ابراهيم باشا ليعا بذلك الجيش، لانه كان واثقاً من دوره في
الفد وثوقه من دوره بالأمس

طل سائراً، يحدوه الامل، مدوماً نحو المجد اندفاع السهر نحو
مصه . وحوله القواد والرماء، يتبادل معهم الرمي والمشورة في الخطه
المثل للقضاء على العدو، ومهاجمة المصايق والوعير، والاستيلاء على
الآستانه، وإقامة عرش حديد فيها بعد ما أقام أبوه محمد على باشا عرشاً
جديداً في القاهرة

وقف الجيش على مقربة من المدينة الداريجيه، لكي يأخذ الحد
قسماً من الراحة . ودعا ابراهيم قواده ورؤساء العشائر المصميين اليه
ورعما المتطوعين الذين التحقوا به من سورية ولبنان وبلاد عكار وبادية
الشم، وحدد لهم موعداً للاجتماع في مصره، في ساعة معينة
من الليل

١٨ دسمبر (كانون الاول) ١٨٣٢

حضرها جميعاً في الموعد المحدد . وحمل كل منهم بدلى رايه، ويصفي
اليه ابراهيم ويدون أقوال الواحد بعد الآخر
ثم جاء دور الامير في الكلام، فكشفهم بالخطه التي رسمها، والتعديلات
التي يرى وحبوب إدخالها عليها، بعد سماع أقوال أنصاره ومريديه .
وأعلمهم حراً حمله اليه الكشافه قبل غروب الشمس، وهو أن طلائع
الأتراك قد بدت مقبلة على قونية، وأن الموقعة الفاصلة ستضطرهم برباسها
بعد أيام

وانصرف الجميع والأمل يملاً أودنهم ، والثقة بالنصر تصاعف

عزائمهم

وحمل كل منهم يده عدته للقتال

كان بينهم شيخ عربي يدعى صار الاحدب ، جاء من أطراف الدابة
على رأس كوكبة من المرسان الاشواش ، للاعراب عما يحالغ صدره
من حب للفائد المصري ، ومن رعة في شد أزره والير منه حساً إلى
جنب ، في طريق الجهد والمخار

فقلل اراهم في ذلك الوقت ما عرّضه عليه صار ، وأحاطه إلى رعته .
فالتحق الرجل وورسائه بالخيض الراحف ، وأندى من صروب
المروسية والشجاعة ما أدهش الأمير وأثار إعجابه . وصار يعدده من
أصاره الاختصاص ، ويستشير به ويعمل رأيه في كثير من الأمور المتعلقة
رحف الخيض في السهول ومطاردة العدو في الصحراء بواسطة العربان
الذين كثر عددهم بين الجنود المصريين

وكان صار مخلصاً للأمير ، أميناً له ، محبوباً من الجميع ، معروفاً مكرماً
من الضباط والجنود على السواء

لكنه كان يحمل بين حديه سرّاً مؤلماً لم يسبح به لأحد
كان أبوه الأكبر مصطفي من أصار الأتراك وصوائعهم ، وضع
نفسه تحت نصرهم ورهن أشارتهم ، لا عن عقبة بل بدافع المصعة ،
وصب نفسه حاسوباً لهم على أعدائهم ، لا عملاً بوحى الصمير بل حساً
بالدوم وسعيّاً وراء المال

وهكذا حالف الشاب إرادة أبيه وخرج على عشيرته . فكان الواحد
يغارب الآخر : الأب في صفوف المصريين وحلفائهم ، والابن في صفوف
لاتراك . والحروب حافلة بأمثل تلك المواقف الشدة المؤلمة

١٩ دسمبر (كانون الاول) سنة ١٨٣٢

نادى اراهم قواده ورعماه جيشه مرة أخرى ، ودعاهم للاجتماع في مضربه . ولما اكتمل عقدهم خاطبهم قائلاً :

جاءني الحراس أمس بشاب عريب عن الجيش ، كان يطوف في المعسكر ، وجميع الطواهر تدل على أنه حاسوس للأعداء . لكني لست ونفاً من ذلك . وقد دعوتكم لاحد رأيكم في الامر قبل الفصل فيه . قال هذا ونادى الحارس وأمره باحصار الشاب ، حتى به مكلاً بالجديد .

وقع عليه نظر نصار فعرفه

هو ابنة مصطفى ، ابنة الحاسوس الحائن ، الخارج على الاسرة والعشيرة . ابنة الذي باع صميره ببيع الساع ، وآثر الدرم على الواجب عرف الأب ابنة . لكنه ظل صامداً لا يبدي حراكاً . ولم يدع شعور العصب والاشمئزاز الذي كان يحالج صدره يظهر على وجهه ، فيخونه ويمزق القاب عن حقيقة أمره

ألقى الأمير على الشاب أسئلة عديدة ، لم يتمكن من الاجابة عليها بوضوح وحلا ، بل اضطرب وتلعثم ، وحمل ينظر حواله قلقاً حاراً كالذباب اكتنفه الصيادون من كل صوب

وبالرغم من ذلك لم يستطع أحد من الحاضرين أن يشت على الشاب تهمة معينة . فاعتقد الجميع أنه عريب عن تلك الديار . دفعه حب الاستطلاع فقط إلى تعدى خطوط الجيش ، وأن ارتناكه وحيرته انما مبغشما الخوف من عاقبة عمله ، لا الدعر من اكتشاف دبه ، لانهم لم يشتوا عليه ذنباً

ثم إن الشاب كان أكثر منهم دهاء ومكرراً ، فتظاهر بالقناعة والطمع ، وذلك ما جعل اعتقاد القوم ببراءته يرسخ في أذهانهم . فهض أحداهم وحاطب الأمير قائلاً :

— مولاي . لأظن هذا الشاب أهلاً لاهتمامنا . ويلوح لي أنه مصاب
بضعف في قواه العقلية . فلدعه ينصرف ويذهب إلى حيث يشاء .
ولا أعتقد أن عمل حارس حقير — إذا فرصنا أن هذا الرجل حاسوس —
يؤثر فينا أو يحول بين جيشنا وبين النصر !

فاستصوب الحاضرون هذا القول ووافقوا عليه . وكاد إبراهيم
يأمر بإطلاق سراح المتهم ، وإذا محمدي يقف بالباب مستأدياً بالدخول
أذن له الأمير فدخل . وسأله إبراهيم :
— ما وراءك ؟

اعتدل المحمدي في وقفته . وأدى التحية العسكرية وأجاب :
— مولاي . عثرت على حثة حارس من حراس الليل مطروحة وراء
صحرة في أطراف المعسكر . وقد مات المحمدي بصربة حشر في ظهره !
فانتفض إبراهيم وصاح :
— والقاتل ؟

— لم نعرف عنه شيئاً ولم نثر على دليل يدلنا عليه . فقد ذهب تصاعداً
في البحث سدى

سكت إبراهيم . وعم الصمت المكان ، وأطرق الأمير مفكراً
ثم التفت إلى المحمدي وقال :
— انصرف . وضاعفوا الحراس في جميع الجهات . سأنظر في هذا
الأمر بنفسني

خرج المحمدي من حصرة القائد . وبعد سكوت قصير ، خاطب إبراهيم
الحاضرين سائلاً :

— لقد كثرت حوادث الاعتداء على الحراس في الأيام الأخيرة .
فما رأيكم في ذلك ؟ وهل نطلق سراح هذا الشاب بعد ما وقع ؟
تبادل القوم البطرات . ولم يدركوا مراد الأمير من هذا القول .

ثم نهض أحدهم - وهو الذي أشار من قبل بالافراح عن الشاب المتهم -
واستأذن بالكلام :

عموا يا مولاي . ثمة علاقة بين الحادث الذي رواه ذلك الحمدي ،
وبين هذا الشاب والتهمة التي وجهت اليه والشكوى التي حامت حواله ؟
انني مارلت على رأيي الأول ، وهو أن نطق سراح هذا المسكين الاله
الذي ليس في مقدوره أن يمينا بأذى

فاستصوب الجميع هذا الكلام مرة أخرى ووافقوا عليه

لكن نصارا نهض من مجلسه واستأذن وقال :

- مولاي . ظلت صامتا لأبدي رأيا ولا أقوه بكلمة . لكني
أرى أنكم تكون متن الخطأ ، وتقدمون على عمل سوف تصون عددا
أصاؤكم ندما عليه . لانطلقوا سراح هذا الشاب فانه يحرم يستحق
العقاب !

دهش القوم لهذا الكلام . واستولى على مصطفي اضطراب شديد .
لانه عرف أباه وأيقن انه هالك لا محالة

قال ابراهيم :

اصبح يا صار . انك تتهم رجلا لاتعرفه ، ولم تستطع ان تثبت تهمة
عليه . فاذا كنت مطلعا على دلائل أمره ، وتعرف ما يحل ، ينبغي أن تمرق
القاب عن هذا السر وتعفي الينا عما نعلم

فأجاب صار بصوت متهدج ولحجة ثابتة بالرغم من ذلك :

أعرف هذا الشاب يا مولاي ، وهو يعرفني ، ومن أحذر مني
بمعرفته وهو ابني !

نظر اليه الحاضرون داهيين باهتئين ، وصاح به ابراهيم :

- ماذا تقول يا نصار ؟

ففسح لأب المسكين بطرف كفه دمهعة بعثت من حقه بالرغم منه ،
وأجاب :

أقول يا مولاي إن هذا الشاب الذي أمامكم هو ولدي مصطفى ،
الذي يحارب في صفوف الأعداء ، والذي يحترف الآن مهنة حسيبة دنيئة .
لقد هجر قبيلته ، وباع ضميره وتقاضى عنه قصة وذهباً انني انتهت أمامكم
بالحجة والدالة والحق . وأرجب اليكم أن تنزلوا به العقاب الذي
يستحقه ، والذي تص عليه قوانين الحرب . فهو حاسوس الأعداء علينا .
والحاسوس الذي يقص عليه بعدم في الحال . هذا ما يقضي علي الواحد
بقوله . وقد قدمه يا مولاي !

فكث ابراهيم وقد هاله هذا الموقف . ثم التفت إلى الشاب وقال :

— ألا تدافع عن نفسك يا مصطفى ؟

وأخاه الحاسوس :

— لا أدافع عن نفسي لأن أني يتمني وهو الذي علي ، والان
لا يقف أمام أبيه مدافعاً عن نفسه . أوعلوا بي ما شئتم . ولا بد أنكم
رغب في أمري . لقد صدق أبي : نعم ، تحسنت عليكم ، ولو قدر لي
المرار من بين أيديكم ، لما ترددت لحظة في العودة إلى من أرسلني ، لادعه
على ما وقعت عليه في رحلي . أقتلونني إذا أردتم . ان الموت بيد الخلال
أول شرفاً من القوط في الميدان . لكي اتفضل الموت مرحاً ، فقد قمت
بواحدني في ميدان العمل الذي اخترته لنفسي ، فقوموا أنتم بواحدكم
كما تحتمه عليكم قوانينكم العسكرية !

حار ابراهيم في أمره . ورأى نفسه في موقف حرج بين الابن
والأب ، وكل منهما يطلب العقاب . فالتفت إلى صبار وقال :

— أرجو اليك يا أخي أن تكون شغوفاً رحماً . وأن تبقى هي
حياة ولدك . فقد عموت عنه . ولا أطلب منه الا شيئاً واحداً ، وهو أن
يظل أسيراً في معسكرنا إلى ما بعد انتهاء المعارك ، فيطلق سراحه جيداً ،
ويعود إلى قبيلته حراً طليقاً . أما إذا أردتم أن تعاقبوه ، فليكن ذلك في

مضارب قبيلكم وقرار من رؤساء عشائركم
فهض نصار والشرر يتطار من عبيه ، ووضع يده على قبضة سيفه
وصاح :

عموك مولاي ، ان من يخاطبك الآن ليس ارفع المردوس .
بل أمير قبيلة عربية ، لم تقدم قط على عمل معيب ، ولم تحدد قيد شعرة عن
قواعد الشرف والتقاليد الموروثة ، ورب أسرة بدوية لم يبلط أحد من
أفرادها سمعة ذويه ببيعة أوحياة . أنتظب مني يا مولاي ان أسكت عني
فعلة شماء كهذه ؟ إن المائل أمامي الآن حاسوس أرسله العدو للإيقاع
بكم فدا كنتم جميعاً تشفقون عليه اكراماً لي ، وشعقتكم في غير محلها ،
واكرامكم اياه . دعوني على لاقل أقصص منه يدي ، وأزل به العقاب
الذي ترددون في الحكم به عليه ، ادا كنت يا مولاي تريباً بسيفك أن
يقطع رأس هذا الجبان لانه ابن قائد من قوادك ، فدعني اذن أقم
مقام ذلك السيف ، وأقطع بيدي رأس هذا الابن العاق ، الذي لم يعد
أهلاً للدخول في حظيرة أسرته ، والتربع في مضارب عشيرته !
واستل نصار سيفه وم بالانفصاض على ابيه . ووقفه ابراهيم بإشارة
منه ، وهو مضطرب قلق ، لا يدري أي قرار يتخذ . ثم التفت الى مصطفى
قائلاً :

— وفر عليا يا مصطفى مؤونة هذا المشهد المائل . لا تدع أذاك
يرنسكب على مرأي ما فعلة وطبعة كهذه . ازل بعصك العقاب يدك ان
كنت رجلاً !

فساد المحس سكوت رهيب ، واكتعه سكون أشبه بسكون القيور
ولجأة ، وضع مصطفى يده على قصة خبزه ، واستله بسرعة ،
وعنده دفعة واحدة في صدره ، فحر على الارض صريعاً يتخبط بدمه
وأعاد نصار سيفه إلى عنقه ، وألقى بنفسه على جثة ولده يقلم

دموعه . ويقبل ذلك الوجه اسى كان منذ لحظة لا يجرؤ على الطر إليه
ثم ههص والدمع ينهمر من عيبيه وقال :
— مولاي . علمنا الشجاعة والحكمة في القتال . وعمدا الحكمة
وأصالة الراى بعيداً عن ساحة الحرب . فدع الآن هذا الأب الحزين
المسكين يقبل يدك شاكراً !
نسط له ابراهيم يده فعمرها بالقنلات . ووضع الأمير على جبين
ذلك الأب النبيل قبلة حارة وقال :
— لقد ألفت علياً جميعاً يا صاردرساً في الشهامة والشرف والتمسك
بأهداب الفصيحة . وليت الآباء جميعاً يسيرون في الطريق الذي سرت
فيه ، وبسجون على موالك ، واصعبين الواجب فوق العاطفة !



كوتاهية

في شهر مايو سنة ١٨٣٣ حطت قافلة كبيرة رحلتها في تدمر ، بين
الخرائب والآثار ، الناطقة بعظمه عهد عبيد مصر وانقضى . وبعد أن
رفع العربان عن حملهم الاحمال والاثقال ، وصربوا في ذلك المكان
أطباء الخيام ، تفرق الجميع طلبا للراحة من عناء السير مدة خمسة
أيام بلياليها

وفي مصر ربيع العباد ، مبسط في وسط الخيام الأحر ، في كنف
قوس النصر المنهدم ، جلست عشرون امرأة وفئة من بنات الاعراب ،
حول عادة هيماء ، ثحية اللون ، حادة النظر ، قوية العضلات ،
توسطت حلقتهن وحاطتهن قائلة :

— لقد قطعنا الآن يا احوالي العربيات المرحلة الأخيرة من سفرنا
الشاق . وغداً ، بعد أن تأخذ نصيبا من الراحة ، سنفترق وتعود كل
جماعة منا إلى حيا ومصارب عشيرتها . ولا شك عدى في امكن
نعملن بين حواصكس ، كما أحمل أنا ، أحسن أثر لتلك الاعمال المحيدة
التي قمنا بها ، في صفوف العازي للظفر !

فوافقت النساء والفتيات جميعاً على قولها ، وامرط عققهن ،
وزهدت كل منهن إلى خيمتها

وفي اليوم التالي ، شدت القوافل الرحال من حديد ، واتجهت كل

منها إلى ناحية ، في تلك الصحراء الترابية الاطراف
أما العادة الهيفاء ، الفمحية للون ، الحادة الطر ، القوية العضلات ،
وفد امتطت صهوة حواد عربي أصيل ، وأطلقت له العنان ومعها خمسة
فرسان يمتطون مثلها الحياض الطهمة ، وانطلق الجميع ينهون الارض نهياً
إلى دمشق الفيحاء ، المترعة هناك ، وسط « عوطتها » الخضراء ،
وينابيعها العذبة ، وأزهارها العطرة

من هن أولئك النسوة ، ومن هي تلك الصاة الحساء ؟
لعد قليلاً إلى الوراء ، إلى اثني عشر شهراً مضت ، إلى مايو سنة
١٨٣٢ ، عندما كان الجيش المصري بقيادة ابراهيم بن محمد علي باشا يثب
إلى الامام وثبة بعد وثبة ، ويصرب جيوش الاتراك في سورية صربة بعد
صربة ، ويدون بالحديد والنار ، في سجل التاريخ ، معركة بعد معركة
ونصراً بعد نصر

في مايو سنة ١٨٣٢ ، أعدم الاتراك ضرباً بالسيوف خمسة من
رعماء القنائل العربية ، كانوا قد اسلموا برحطهم إلى المصريين ، وجعلوا
يهاجمون الحاميات التركية ويطاردون رحلها ، إلى أن خضعهم الحط في
أحدى المعارك ، فوقعوا في كمين أقامه الاتراك في صحراء تدمر ، وكان
يصيهم التعذيب قالموت

لكن رجال القنائل لم يلقوا السلاح بعد مصرع رعمائهم ، بل ضلوا
يقاثلون إلى النهاية . واستمرت في صدورهم نار الحقد ، وراحوا يطالبون
بالنار ويسعون إليه بحد السيف وطرف السنان
وبلع النساء في مصارب القنائل خير مقل الرعماء . فصبت
أحداهن ، وهي دماء السماء بنت حمدان الرغى ، من عرسان بني صحر ،
ورفعت عقيرتها داعية ساء العرب وبنانهم إلى السلاح ، لمشاركة الرح
في طلب النار والانتقام للدم المسفوك

فلت النساء والبنات الدعوة الى القتال وسارت ماء السماء ست
حمدان الرغى على رأس كتيبة من ثلاثين امرأة وفتاة ، يظلمن الطعن
والنزاع في الميادين

واشتركت تلك الكتيبة في المعارك التي دارت رحاها بين المصريين
والأتراك ، في سنتي ١٨٣٢ و ١٨٣٣ ، في دمشق وحمص وحلب وبلان
وقوية وغيرها وقتل من أولئك «المارسات» الباسلات عشر نساء
وفتاة ، وعادمنهن الى احياء المربان عشرون فقط

ولم يحملن على العودة الى الصحراء حور الشمس أو ضمف القلب ،
بل حملن على ذلك وقوف رحي القتال ورجوع المصريين الى الوراء ،
بعد أن عقد السلطان مع محمد علي باشا معاهدة وضمت حداً للحرب
والكفاح

بعد أن طعن ابراهيم الجيش التركي طعناً في معركة قوية الدموية ،
طل العانح مقياً في تلك المدينة بضعة أسابيع . ثم خض بحيشه الى الامام ،
واحتل مدينة «كوتاهية» بلا مقاومة ، ولث ينتظر فيها أوامره
وكانت السياسة في اثناء ذلك تلعب دورها . وتدخلت روسيا وانجلترا
وفرسان لحسم النزاع بين العدوين المتحاربين . وسافر الجنرال مورافيف
الروسي الى الاسكندرية لمفاوضة محمد علي باشا ، بعد أن طلب الى ابراهيم
باشا أن لا يتقدم بحيشه نحو السويس ، انتظاراً لنتيجة تلك المفاوضة
وفي ١٣ يناير (كانون الثاني) سنة ١٨٣٣ وصل الجنرال
مورافيف الى الاسكندرية ، ووصل اليها أيضاً رسول السلطان محمود
الثاني . ودارت بين الثلاثة محادثات ودية ، ما عتنت أن تعولت الى
مناقشات حادة ، قل في خلالها القائد الروسي إن حكومته لن تسمح
لابراهيم بأن يتخطى حدوده ويستولي على الاسكندرية

واشترك في المفاوضات مدويون آخرون ، يمثلون تركيا وفرنسا
واحد ، ووافق محمد علي باشا على لاه ناع عن التقدم الى الأمام ، لكنه
تمسك بمطلبه ، ورفض احاطة الدول الى الشروط القاسية التي أرادت
أن تملها عليه ، وقال إنه سيحتفظ بالقوة بالولايات التي ائتمرها من
السلطان بالقوة !

عنصر محمد علي باشا بالحرم ، واعتصمت روسيا بالحرم أيضا .
ورأت فرنسا واحتل أن استمرار الحرب بين مصر وتركيا سوف يؤدي
إلى تدخل روسيا تدخل عسكريا ، فراعها ذلك ، لاحقا محمد علي
ومصر ، بل حوفا على مصالحهما ، حملتا السلطان على الخصوع ، وطلبتا
مه أن يعقد مع عدوه انتصر صلحا يضمن حقوق الطرفين

وفي ٦ مايو (أيار) سنة ١٨٣٣ - الموافق ١٦ دى الحجة سنة ١٢٤٨ -
صدر خط الشريف بتأييد حكم محمد علي باشا على مصر وحرية كريت ،
والسارل له عن الحكم في سورية ولسان وادنه ، وتحديد ولايته ابراهيم باشا
على جدة ، ومنحه لقب شيخ الحرم المكي

وفي ١٤ مايو سنة ١٨٣٣ - الموافق ٢٤ دى الحجة سنة ١٢٤٨
عقدت معاهدة كوتاهية بين السلطان محمود الثاني ومحمد علي باشا ، ووقع
عنها مدونا الفريقين ، أي البارون رومان سفير فرنسا في تركيا بالنيابة
عن السلطان محمود ، و ابراهيم باشا بالنيابة عن أبيه

وبعد التوقيع على هذه المعاهدة ، وضمت الحرب أوزارها في
الاصول ، وعد ابراهيم باشا أدراجه بحيشه المظفر ، الى ما وراء
الحدود التي عينها بصوص معاهدة كوتاهية

وعاد المتطوعون الى أوطانهم ، فرحل العربان الى الصحراء ،
ورجع النسيون الى جبالهم ، ودخل الفتح المصري في طور جديد ،
طور الإدارة واصلاح ما افسدته الانظمة السابقة ، وطروى الحرب
ومقتضياتها

وتعد معاهدة كوتاهية حاتمة للرحلة الأولى من عهد الحكم المصري
في سورية ولسان والاصول . فبعد أن أظهر ابراهيم باشا مواهبه
البادرة كقائد وحدي . نفى عليه أن يظهر مقدرته كحاكم واداري

وقد عادت المتطوعات العربيات ، بقيادة ماء السماء بنت حمدان
ارعي ، مع من عاد الى المصارب والاحياء من متطوعي البادية . وحملت
كل مهن تقص على الذين تخفوا في الدار ، أحبار المارك التي خاصت
المتطوعات عمارها ، وحين ثمارها ، انتصاراً للصريين وانتقاماً من
اعدائهم ، وطلباً لثأر الزعماء الذين أعدموا بحمد السيف ا



هلمة الوهاية

بعد أن تم التوقيع على معاهدة « كوتاهية » بين السلطان محمود الثاني ومحمد علي باشا ، تراجع ابراهيم عيشه ، واسحب من المناطق التي لم تعترف بالمعاهدة سلطة أبيه عنها ، الى ما وراء الحدود التي تقرر أن تكون فاصلة بين سورية الخاضعة لمصر ، والاماصول الخاضع لتركيا وانصرف ابراهيم باشا الى تنظيم الادارة ، واقامة حاميات عسكرية في البلاد ، لحصنها في مآمن من هجوم حديد . وكان جيش ابراهيم باشا يسع في ذلك الوقت سبعين الف مقاتل . جند معظم تلك القوة في الشمال . ووقع اختياره على انطاكية وجعلها مقراً له ، ومركزاً عاماً للقيادة ، بطراً الى موقعها الحربي

أما من الناحية لادارية ، فإن ابراهيم باشا أدخل تعديلات كثيرة على النظم الذي كان متبعاً من قبل ، وصححت القاهرة مرحباً على لادارة الاقتدار السورية . وأصدر محمد علي باشا مرسوماً بتعيين ابنه ابراهيم حاكماً عاماً على البلاد ، وقائداً للجيش المصري فيها . وحوار ابراهيم أشد أعز ، اخلصاً له ، فبهم حكماً على لولايات التي اشئت في سورية من حموها الى شمالها ، فأصبح شريف باشا حاكماً على فلسطين والشم ، وحاملاً لقب « حاكم دار عرستان » وسين باشا المرناوى حاكماً على صيدا ، واسماعيل بك حاكماً على حلب ، وأحمد ميكلي باشا حاكماً

على أذنة ، وعبرهم من الفواد حكاما على مختلف الولايات والمقاطعات
والفيت مقاليد الامور في جبل لبنان ، إلى حليف المصريين في حروبهم ،
الأمر بشب الشهاب الكبير ، اعترافا من ابراهيم بخدماته واحلاصه

عزم ابراهيم ذات يوم على القيام رحلة في انحاء البلاد ، للوقوف
بمسه على ملع العاية بتفصيل أوامره ، وقيام الحكم والنسب والناشرين
بواجبات مناصهم ووظائفهم ، فعاد استطاية في موكب عظيم ، وبدأ
طوافه من الشمال

وصل إلى حلب ، فقبل من السكان بالترحيب والتهنئة ، وزل في
قاعة المدينة التاريخية ، تلك القلعة التي لعت في تاريخ مصر وتركيا دورا
عظيما ، وإلى من فيها السلطان « قاصوه العوري » الذي الحظ برحا
هائلا ، وصاعف حصونها وأسوارها ، على أمل أن يعنضم فيها ويصد
حواصل الاتراك عن ملكه . ولكنه أصيب بالشلل ، ولقي حتفه في معركة
« مرج دابق » المشهورة

أقام ابراهيم في القلعة ، وطاف للمادى في المدينة طالبا عن عنده
مظمة أو أمية أن يرفسها إلى الفائز الحاكم
وفي اليوم التالي ، وصلت إلى الدلمة كوكبة من العرسان العرب ،
« رحل أحدم عن حواده » وتقدم إلى قائد الفلعة طالبا منه السماح بمقابلة
ابراهيم :

- قل للأمر إن ابن « غالية الوهاية » يرعب في المنول بين يديه
وما سمع ابراهيم هذا الاسم ، حتى همص من مكانه وطل شفيه
ابتسامة الرضى ، وقال :

ليدخل . وليدخل معه رفاهه إذا كان قادما مع رساله الاشائوس .
ولما تخطى الشاب العربي عتبة الباب ، أسرع إلى ابراهيم وتناول
يده وطبع عليها قبلة وقال :

— حثت لنجدة الأمير مع أبناء عشيرتي ، هدا أن شعيت من الحرح
الذي أصابني في قونية

— أهلا بك يا سرحان . إني أحفظ لك الحميل على ماصعته في
قصبتنا المشتركة . فبارك الله فيك وفي أخوانك ليوث الصحراء !

من هو سرحان ؟ ومن هي امه غالية ؟

إن لتلك المرأة قصة ، كان ابراهيم يذكرها في كل مجلس :
لن محمد على باشا بداء السلطان ، وأعد عدته لتحرير حملة عسكرية
على الحجاز ، واستراخ المدن المقدسة من الوهابيين ، الذين كانوا قد احتلوا
مكة المكرمة والمدينة المنورة ، ووسطوا سلطانهم على شطر من حريرة
العرب ، ومنعوا المسلمين من الصيام بفريضة الحج ، ودعوا العالم الاسلامي
بأسره ، الى اعتناق تعاليم الامام محمد بن عبد الوهاب الحسبي الجدي
خرجت الحملة المصرية في سنة ١٨١٣ بقيادة الامير طوسون ، نزل
محمد على باشا . وكان في ذلك الوقت شاماً بانه الثامنة عشرة من العمر .
فاصطدم المصريون بمجموع الوهابيين في « بدر » وأحرروا عليهم
هوزاً ميباً

لكن الوهابيين نظموا صفوفهم من حديد ، وجمعوا ثلهم ، وحملوا
على الجيش المصري حملة شديدة ، اضطرت طوسون إلى الفقه والعودة
إلى « ينسج » على ساحل البحر الأحمر
ورسل محمد على باشا إلى امه المعدادات ومعدادات القتال . فاستأنف
طوسون باشا الزحف الى الامام ، واستولى على المدينة ثم اخرج الوهابيين
من مكة واحتل الطائف

ولكن القضاة الوهابية لم تركن إلى الهدوء ولم تبال من النصر ،
بل أعادت الكرة وقاتلت الغزاة قتالاً عنيفاً . وتمكن الامير سعود

من كسر الخيوش المصرية في موقعة « نزة » كسرة شديدة . فأرسل
طوسون باشا يستعيث بأبيه ، ورأى محمد علي باشا ان خير وسيلة لانقاذ
الوقت ، أن يشخص بنفسه إلى الجبل على رأس جيشه

وفي سنة ١٨١٣ لحق محمد علي باشا بأبيه إلى أرض الجبل ، ووقعت
بين المصريين ولوهديين معارك دموية ، استسل فيها الفريقان ،
وسالت فيها الدماء ، فارتوت بها رمال الصحراء المحرقة

أربع سنوات رأت فيها الحريرة العربية ما لم تر مثله من قبل ، مد
أن خرجت منها كائنات السليبي في عهد البى العربى الكريم والحقه
لرشددين ، لمع الاقطار وحصاع لامصار : رأت قائل سير إلى
الرب وفيها الشيوخ والسكران والاطفال والنساء والفتيات

رأت حدوداً مدمرين ، في ارباء لم تمهد لها من قبل ، بحرون وراهم
معدت الهلاك والدمار ، وعناداً لم تألفه الصحراء في ساق الايام
رأت الجحافل تشتبك في معارك تلعع فيها السيوف والرمح ، وتقذف
فيها البراب من أقواء حديدية ، بين سهل الجبول وصيحات المقاتلين ،
وبساق في الفريقان إلى النصر ، وقد صبح هؤلاء وأولئك قول
الناجاة الديباني :

داعا عروا بالخيوش خلق فوفهم عصائب طبر تهديهم
ولا عيب لهم عمر أن سيوفهم من فلون من قراع الكنائس
وطن المصريون والوهابيون بين أحد ورد ، وكر وفر ، وهجوم
ودفاع ، إلى أن استولى محمد علي باشا على معادل حصومه وحملاً فواحداً ،
ولم يبق أمامه غير الله « الدرعية » وهي التي انقضت بها دعوة الامام
محمد بن عبد الوهاب ، قبل ذلك الوقت بمائة سنة

واستدعت أحوال مصر عودة محمد علي باشا إلى القاهرة ، فوصل
إليها في الشهر السادس من سنة ١٨١٥ ، بارك الله طوسون باشا في

الحجار ، حيث احل الدرعية وعقد الصلح مع الأمير عبد الله الوهابي
ولكنه اضطر الى اللحاق بأبيه الى مصر ، حيث وافته ميتة في

سنة ١٨١٦

وقد حدث محمد علي باشا ، في حروبه مع الوهابيين ، حدث طل
ذلك ارحل العظيم يذكره طول أيام حياته ، وبفضه على سامعيه في
المحاسن والولائم

كان ذلك في سنة ١٨١٤ ، قبل معركة «نزلة» الثانية ، القواسم
فيها المصريون على الوهابيين ، وتكواهم فكا ذريماً ، وأرعمو القبائل
الحجازية بعدها على الحلي عن الأمير عبد الله حليده الأمير سعود ،
والانصمام اليهم ومساعدة الجيش المصري بأموال وادحائر

كانت «مصر القبائل العربية» من ثمر وعثرة والحويطات وغيرها ،
عقطة على تقاليد موروثه في البادية حبلان حبل ، وبين تلك
القبائل عادة متبعة عند تلك القبائل ، في الحروب والغزوات

كانت المرأة عند القوم مبرة خاصة . وكان للحجار عدم احترام
واحلال . وكانت كل قبيلة تنهي وبماحر بالعيد الحسان لاوي بأويهم
مصارب القبيلة ، ويتسابق فرسانها لارصائهم والموار بعظمهم

واذا ما عرت احدى القبائل قبيلة أخرى ، كان كل من العريفيين
يخرج من الحجاب عدة حياء ، نرندي آخر ما عندها من ثياب ، وتضع
في معصمها الأساور وفي كعبيها الخلاجيل ، ونحس في هودجها على ظهر
رءة ، فيلتف حولها الشيب والشبان ، ويستجبت المرسد في تدافع عن
هودج الحناء ، ومع الأعداء من الدومو ، بينها صاحبة الهودج تشد
الشعر وتعت الحناء في نفوس المحاربين ، فتساقط ختمهم حولها
كاور في الشعر في الحريم

وكان فريق من عرب شمر يحارب في ذلك الوقت مع الوهابيين ،
وان لم تكن قبائل نجد والحجاز ونادية الشام قد اعتنقت جميعها مذهب
محمد بن عبد الوهاب

وحدث قبل معركة تربة الثانية ، ان هاجم فريق من الجيش
انصري قبيلة معادية ، وقتل ثلثيها ، وأسر زعماءها ، وبينهم امرأة
تدعى « حليمة » جيء بها إلى محمد علي باشا في مضر به

كان عرير مصر قد سمع بأمرها من قبل ، وعم أن امرأة تفود قبيلة
عربية نجدية ، وتحارب في صفوف الوهابيين منذ اليوم الذي هبط فيه
المصريون أرض الحجاز ، وأنها املت في المعارك بلاء حساً ، وأن حدوده
يخافونها ويحبون لها الف حساب

ولما جيء بها اليه ، خاطبها قائلاً :

— لقد طلعت أحبارك يا حليمة . وقيل لي انك تفودين المرسان
في الميادين . ولا يسمى الا أنت احل فيك الشجاعة والاقدام
والاناء . وساعمو عنك وأطلق سراحك ، إذا كنت تعديني بالاقلاع
عن الحرب ، والاحلال إلى السكينة . فهل تعديني بذلك ؟
فأجابته حليمة :

— كلا . لا اعدك بذلك يا باشا . وإذا خرجت من هنا ، فاني
سألحق بقومي وأعود إلى الحروب والقتال ا
— إذن ستظلين أسيرة عندنا ا

وأمر محمد علي باشا باعتقالها ومعاملتها بالحسنى . ورسلت حليمة
النجدية إلى المكان الذي أعد لاقامة الاسرى

وبعد أيام ، وقعت معركة تربة الثانية ، وكان محمد علي باشا يقود
الجيش المصري فيها بنفسه

وفي أثناء القتال ، جاء أحد ضباطه ، وقال له ان جموع غفيرة من

العرب تتقدم من الميسرة . فانتقل محمد على باشا إلى مكان الخطر ، وأصدر
أوامره حسبما تقتضيه الحالة ، وبات ينتظر نتيجة القتال
وتعلم المصريون على الوهابيين في تلك المعركة ، وأجلهم
عن مراكزهم ، فانطلقوا بجيادهم النحذية يطلون السحابة في الصحراء ،
يطاردون فرسان الجيش ويتفقدون آثارهم . وكان لذلك الانتصار أثر
عظيم في استقرار الحال ، وبسط نفوذ محمد على باشا على الأماكن
المقدسة

وانتقل عزيز مصر بعد المعركة إلى محلة الأسرى ، وحمل يعرضهم
ويتفقد المحرعى من المصريين والوهابيين ، وإذا به يقف مبهوراً أمام
منظر لم يكن في الحسبان
رأى محمد على باشا بين المحرعى امرأتين
وعرف إحداهما ، وحاطبها قائلاً :

كيف احبك في ميدان القتال يا حليلة ، وعهدى بك بين الأسرى
بعيدة عن هذا المكان ؟

فرمعت حليلة رأسها ، وقالت بصوت خافت متهدج :
— لقد فررت من بين الأسرى وعدت إلى القتال اواهي اسفهد
اليوم وأموت سعيدة . فقد قتل أحى ، وفل روحى ، وقتل ولدى في
هذه المعركة ! وأراد الله أن يكون الصرح حليعك اليوم . وسيكون
حليفنا غداً !

وانتفتت حليلة إلى رفيقتها ، وقالت :
— أستودعك الله يا غالية . وأرجو أن يكون حظك من الجهاد
أوفر من حظى !

وافاضت روحها على مرأى من محمد على ورجال حاشيته . فأمر بأن
تدفن مع روحها وأحبها وأبها ، إذا استطاع الخوذة أن يعثروا على حشمتهم
بين أشلاء القتلى

أما «عالية» رقيقة حليلة ، فقد أحل محمد على باشا سبيلها ، وأمر
أطباء جيشه بأن يصفوها بالمعالج

وإذا كانت حليمه السجدة الوهاية ، قد ماتت في ميدان والسيب
بيدها ، فإن رفيقتها غالية ، السجدة الوهاية مثلها ، ظلت تذكر عفو
محمد على عنها ، وعظمه عليها ، ولم تعد إلى الحرب بعد أن شفيت من جرحها
وظل محمد على باشا يذكر المرأيتين الشجاعيتين ، كما دار
في عقله حديث عن حروب الوهايين

وعندما رحب إبراهيم على سورية بحثه الفاتح ، وانضم إليه فريق
من العربان النصارى في بادية الشام وشمل الحجار ونجد ، نادت «عالية»
الوهاية ، ابنها «سرحان» وقالت له :

— «ي أيها الآن على فراش الموت ، وبعد أيام معدودة ،
سوف أفرقك ، على أن تجمع من حديد في حبه الحديد ، ووصي إليك
بأن تكون دائماً أهدأ سداً في ميدان القتال . ان الحرب القائمة
الآن بين المصريين ولا ترك ، تمنح أمامك ابواب الخلود . فسر إلى
أفكار كسارت اله أمك من قبل ، وتقدم إلى إبراهيم بن محمد علي ، وتقل
له من أمي عالية ، رقيقة حليلة الوهاية في جهادها . رسي اليك لكي
أحوض المارك مع رحلتك حساً إلى حب »

وفضت روح عالية في الوقت الذي كان فيه إبراهيم يضرب الحصار
على عكا . ففادر سرحان أحياء قومه وخف إلى الميادين

واشترك في المعارك من عكا إلى دمشق و بررعه وحماسه وصبره
وقويته ، حيث أصيب بجرح في صدره ، شفى منه بفضل عناية الأطباء
المصريين به . فجا إلى حلب بساكن من الفائد العام بالعودة إلى بلاده
فأذن له إبراهيم وقال :

— «ثني ياسرحان ان ذكرى غالية وحليمة ستظل حية في صدورنا
ما بقيا نحن أحياء »

صباغ

قام ابراهيم ناشا في قنعة حلب مدة من الزمن ، صرعه في تنظيم
الادارة وتوزيع المناصب والوظائف على أعوانه . ومبين اسماعيل بك
حاكما على المدينة وملحقها . وقام الخاميات على الحدود . وأرسل في
طلب رعماء العشائر ومشايخ العرب ، الذين حاربوا معه وحاصروا ادمارك
مع جيشه ، فهدد اليهم بالسهر على الأمن كل في منطقته

وكان ابراهيم يحفظ جميل لأولئك العربان ، الذين شدوا أزره في
الميادين وكانوا له عوناً على لاراك . فقد وجد فيهم الادلاء الامراء ،
والخلفاء المخلصين ، والاصدء الاوفياء . وعزم على الاحصاء صدقهم
بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، لكي يساعده في المحافظة على الامن
كما ساعده من قبل في احراز النصر

وكان يمتدح على الخصوص بالنساء العربيات الدويات ، اللواتي كن
يرافقن رجال في الحروب ، ويقدن الكتائب أحياناً في ساحات الوعى .
وكان يقول لجناته دائماً :

ما دامت نساء العرب محصات لجيشي . فاني لا أخشى هزيمة في
الميادين ا

وكان يحرص كل الحرص على استرقاء أولئك النساء المحاربات
ولا يرفض لمن طناً . وادا كانت القنائل العربية التي عاونته في حروبه

قد أحضرت له الود ومشت معه الى الهابة ، فالفصل كل الفصل في ذلك
عائد بلا شك الى استئصال النساء ، وحنن الرجال على الانضمام الى المرأة
العائين

علم ابراهيم ، وهو مقيم في حلب ، أن عشيرة من البدو صرحت حياها
في سهل « مرج دابق » وأن تلك العشيرة تخضع لامرأة ، يدعى
الرجال لارادها ويعبدون أوامرها بلا تردد ولا جدال ، وأن المرأة
تطلب من القيادة المصرية السماح لها بالنساء حيث حطت عشيرتها
الرجال ، أي في مرج دابق ، على أن تبقى العشيرة تحت السلاح متأهبة
دائما للقتال

أرسل ابراهيم في طلبها ، فحلت وحولها كوكبة من الفرسان ،
وعلم منها ابراهيم ان العشيرة تنحى الى غرب « غزة » وأنها تحافظ
على تقاليد موروثه من قديم الزمان ، ونسب دائما الى الحروب بقيادة
امرأة

ومعظم النساء اللواتي فدن العشيرة من قبل الى الغزوات يعملن
اسم « صاح » عملا ايضا تلك التقاليد التي تحافظ عليها العشيرة
فكيف نشأت تلك التقاليد ؟ ومن هي « صاح » ؟
لترك ابراهيم في قلعة حلب ، يصفى الى العربان وم يقصون عليه
قصة عشيرتهم ، ولتصيح عن تلك الصفحة التي دونتها نساء العشيرة
بدمائهن ، وأهلها الساريخ ولم يحتفظ بها في سجلاته

في أواخر القرن العاشر للهجرة ، الموافق للقرن السادس عشر للميلاد ،
كانت مصر حاصمة لحكم السلاطين السراكية ، وكان أولئك السلاطين
قد سطوا بحدودهم أيضا على الاقطار الشامية ، فامتد ملكهم من ضفاف
البحر الى جبال طوروس

وفي سنة ١٥٠٢ للميلاد ، الموافقة لسنة ٩٠٧ للهجرة ، سقط طومان
ناي الأول تحت خناجر المليك ، الذين تابعوا قاصوه اربع ، المجلس على
العرش ، ولقب بالملك الأشرف قانصوه الغوري
وهو الذي شيد الجامع المعروف بجامع الغوري ، وأطلق اسمه على
أحد أحياء القاهرة المعروف بالمورية

وكان بين القواد الدين ولام السلطان الغوري ثفته ، وعنى عليهم
آماله في صد المرأة عن حدود مملكته الشاسعة ، رجل عربي يدعى
« هاني » جاء من نادية الشام الى مصر ، وأقسم بين الطاعة للسلطان ،
مولاه قيادة كوكبة من الفرسان ، فكان ذلك العربي الوحيد بين القواد
الذي لا يمت الى المليك بسبب ، والذي لم يخرج من البيت الى حرجوا
مها

وكانت تعيش في قصر السلطان في ذلك الوقت ، بين السراري
والخواري ، امرأة ساحرة العين ، وصاحبة الحين ، ممتلئة الجسم ، أرسلها
« حبر بك » نائب حلب هدية الى مولاه . وكانت تلك المرأة تنال من
الاسر ، وتغن الى الصحاري والقفار ، لأنها عربية قادها رحان حبر بك
سبية دليبه في حدى العروت ، ولم تطلق صرا على حياتها الجديدة . وصلت
تجنس المرض للهرب من قصر السلطان ، والعودة ادا استطاعت الى
باديتها ورجالها وعشيرتها

وكان هاني العربي أحد رجال القصر الذين تمكنت تلك المرأة -
واسمها صباح - من الاتصال بهم لتعبد سبيل الفرار لها . وقد سطت
على الشاب العربي بحرييتها ، وأثارت في صدره العمة القومية ، فعنت
مراحل الدم البدوي في عروقه ، وحين يمد العدة لانهاد المرأة من
أسرها ، وترحيلها الى بلادها ، دون أن يشعر سبده ومليكه بأنه يحون
الأمانة ويستغل الثقة

ونجح هاني ، في تنفيذ الخطة التي رسمها لانقاذ « صباح » .
وفي سنة ١٥١٤ ، كانت المرأة بعيدة من القاهرة ، في طريقها الى صحراء
سيناء وحال لسان وسهول حمص وحماه وبادية الشام مقر قبيلتها
ولكن مقدها بدم على ما صنعت يداه ، وحادث بدامته بعد فوات
وقتها . بدم على ترحيل المرأة عن مصر ، لأنه شعر بعد رحيلها عاطفة لم
يسكن قد أدرك معناها ومداهها من قبل .

شعر هاني . بأنه يحب المرأة ، وأن حبه ليس وليد ساعة بل ربيب
شهور ، ولكنه لم يعطن اليه الا بعد أن أصبحت الحنية بعيدة عن
ديار يقيم الحبيب فيها .
لما العمل ؟

لم يسق أمام العاشق الا أن يلحق سلك التي أثارت في صدره عرامه
العميق ، والتي أعصب فرارها الملك لأشرف فانتقم من العيب والحرس
الارباب . وقتل منهم أربعة نهمة الاشتراك في اخراج المرأة العربية من
قصره .

ولم يدرك قط في حلد السلطان الموري ن هاني يداً في فرار صباح ،
ومهد اليه بالبحث عنها ، وطالب منه أن يلحقها الى أرمس الشام ، على
أمل أن يثرعها في الطريق ، ويميدها دليلاً حاصعة الى القصر ،
حيث يزل بها السلطان الشيخ عقدا استحقته وعداها أرادته لنفسها .

كان قنصوه الموري في ذلك الوقت قد بلغ الثامنة والسبعين من عمره .
ولكنه ألقى الادعاء بصوت الغفل ، ولم يترقب للطبيعة بحمها على النشر
رجالاً ونساء ، وأن امرأة في مقبل العمر ، حميلة قوية تجري في
عروقها دماء نقيه فتية ، تألف الفناء في كنف رجل أحت السون
طهره ، وأحمدت الشجوة ريق عيبه ، ودب الفتور الى جسمه
المشرف على العناء .

أمير السلطان المنتقم في كبرائه أمره إلى القائد العربي ، وزوده
بالمال والرجال ، وأطلقه في أثر للراة الحاربية
وهذا ما كان هانيء يرغب فيه ويتوق إليه !

سنة ١٥١٦ للميلاد — الموافقة لسنة ٩٢٣ للهجرة

سنة دوت في صفحة التاريخ أرقام من حديد ودم وحر ، وقامت
فاصلا بين عهد وعهد ، وبين عصر وعصر ، وبين ماضٍ ومستقبل ،
رحمت جيوش العثمانيين ، بقيادة السلطان سليم الاول ، على نحو
الشام . ووقعت في السهول والحقول ، ترقب الفرصة الساعية للانقضاض على
المهايك والامارات الخاضعة للسلاطين مصر . ودارت معاومات بين
السلطان العثماني الفاتح . والسلطان الاشرف قنصوه العوري ، ظهر من
مقدماتها أن الحرب واقعة لائالة بين العريفيين ، وأن لمبدان لا يتسع
لصامع الخصمين ، وأن لابد من حصوع أحدهما للآخر

وحمل الامراء والاقبال يتساحلون ويتشاورون ، وكل واحد منهم
ينظر إلى مصلحته ، ويمكر في الالتحاق بهذا أو ذاك من الخصمين
وأن كان هانيء الدويي بينهما كانت السيوف تشعل للحرب ،
والخيل تسرح للهجوم ، والكتائب تتعا للرحيل .

كان هانيء في ذلك الوقت يشهد أشودة العرام في نادية الشام . فقد
أهدى إلى مقر المرأة التي أحباها ، وعاد إلى عشيرته ، وروت إليه صباح ،
وتحلفت العشيرتان على السراء والضراء

وعندما ارتفع في سهول الشام صهيل الخيول ، ومع في فصاها ريق
الموارم والرماح ، عقد شيوخ العشيرتين مجلسهم ، وتشاوروا فيما بينهم ،
وكان رأي الاعليه أن يلتحق العادرون على الحرب يحيش السلطان
العثماني الفاتح ، وأن يصكوا باصا إيليك في المعادل والحصون التي
يقيمون فيها

ومارضهم هانيء في هذا الرأي ، واتمس منهم مهلة معينة ، للذهاب
إلى السلطان العورى ، ووقوف على مبلغ قوته ، ولاتفاق معه على
شروط قد يكون فيها الخير للعشيرتين ، والعين لابناء الصحراء في
مستقبل الايام

وعاد هانيء مراعى الحى على أن يعود عندما يتم القمر دورته ا

شهر اغسطس (آب) سنة ١٥١٦

دار القمر دورته الاولى . . .

ثم دار دورته الثانية ، وهانيء لم يرجع الى الحى تنفيذاً لوعده
عقد الشيوخ مجسهم مرة أخرى ، ووقفت بينهم صباح ، وقد حلت
شعرها وغفرت وجهها بالتراب ، وصاحت قائلة :

— لقد بطش اميك الاشرف قاصوه العورى هانيء اسكم وروج
استكم . لقد عذر ذلك الثعلب الحرم بليث البداء . فاعلوا الدم بالدم
ان كنتم رجلا ! اسرعوا الى ملاقة أولئك المالك ، وسأطلق في
مقدمكم ساعية الى الثأر والانتقام !

وفي اليوم التالي ، كان فرسان العشيرتين يسهون بحيلهم الارض
نهاراً ، في طريقهم الى حلب

أما هانيء فانه كان مسطعاً من حفته الى حلب أيضاً ، ولكن في
صفوف الممالك

فقد التقى بسيدته ومولاه ، وأعجب بشجاعة ذلك الشيخ الوقور ،
الذى لم يتردد في السير أمام جيشه ، حاملاً على منكبيه عبء ثمانين عاملاً ،
مكلاً بشعوره البيضاء ، ويده سيف مسلول أعده تقارعة الابطال في
الميادين ، دفاعاً عن ملكه وذوداً عن حياضه

وقع نظر الملك الاشرف قاصوه العورى على القائد العربي ، وحياء
قائلاً ، قبل أن يفوه هانيء بكلمة :

— مرحى ، مرحى ! كنت واثقا انك لن تتخلف عن المحي .
 يا هاني . حد مكناك بين الاولياء من رحلى ، واطربا بصليل سيعث
 في حومات لوعى !
 فسار هاني الى القنا مع الثرى اليه . وسى أن هناك روحه
 يطير فؤادها شعاعا عاليا ، ورحلا ينطرون عودته لتقرير حطتهم في
 ذلك العراك الخطير

٢٤ اعطس (آب) ١٥١٦

مرج داق !

سهل شامت الاقداران يحمر اسمه بأطراف الاسنة على حبة الدهر
 في ذلك السهل النقى الخيشان . وفي ذلك السهل اللحم الاطل
 وفي ذلك السهل لعت الحياة دورها ، فمدر ثنان من الامراء ناكث
 الاشرف ، وهما حيرتك والعراي ، واعما رحلها إلى حبش سليم في
 ميدان الحرب . وكانت حياتهما هذه بديرا ناكثا لمالك ، ورحبت
 بسما كفة السلطان العثماني

واستمت رحل قاصوه في الدفاع عن أنفسهم . وعندما أدرك
 السلطان الشيخ أن الدائرة ستدور عليه ، فمرحواده ، وصاح في حاشيه
 صيحة دوت كهريم الرعد ، واحترق الصفوف صارما ببيعه بيا وبديرا ،
 مجندلا من الفرسان عشرات وعشرات . . .

ولم يعد الى رجاله . . .

ولم يقع عليه النظر بعد تلك الساعة الرهية . . .

ولم يعثر احد على جثته في الميدان !

فان امك الاشرف قاصوه العورى ، قد مات موت لا يطاق الأمانة ،

في ساحة الشرف !

— علي به ! علي به ! الخائن يقتل !

صيحات أرسلها حاحر العربان ، عند ما حى بهم بالفائد هاني ،
العربي ، موثق اليدين ، والدم يسيل من حرج في كتفه
فقد رآه بو قومه بين صفوف الهالك ، يتقدم العرسان ويستعشهم
على الفدا . فاعتقد أولئك العربان ان لرحل حاجهم ، وانه ابي الا
ان يحارهم ويقاثلهم

وعند ما اصيب الفارس الشجاع بحرج في كتفه ، وسقط عن
حواده ، احاط به ابناء عشيرته ، وأوثقوه وقادوه لى شيوخهم
وكانت «صاح» بين أولئك الشيوخ . وما وقع نظرها على زوجها
حتى صاحت به قائلة :

لقد حث السلطان بالامس من احلى وحتي اليوم من احل
السلطان . ووقعت في قصة رحال اسير حرب وأنت تقتل في صفوف
الاعداء ، بعد ان حث القبيلة واحببت عبا اعراصك ومراميك . فيقل
فيك الشيوخ كلمهم يا هاني !

وعث حاول لرحل ان يدافع عن نفسه . فان الشيوخ اصدروا
حكمهم عليه ونفذوه فيه

وكان الحكم يقضى باعدام «الخائن»

قام حب هاني على اساس الخيانة ، وعرق في نهج الخيانة !
وراح ذلك الفارس العربي شهيد حياة أولى لم يعلم بها السلطان ،
وشهيد خيانة ثانية لم يرتكبها !

عاد العربان لى مدينتهم متراصة الاطراف . وتركوا الجيوش الفاتحة
تتوغل في السواحل ، ونحتاج الاططار العامرة ، وتقيم حكما حديدا على
انقاض حكم بائد

وظفت «صاح» مد ذلك الوقت مشرفه على شئون عشيرتها.
ومرت الاعوام فاذا برحال العشيرة ينطرون الى سائهم بنظرة اكر
واِحلال ، ويرون ان خير ما يصعبونه في الحروب ، ان يسموا قيادهم
لاحدى أولئك النساء الباسلات ، وان يسجوا في ذلك على موت
سوام من ابناء البادية

وبعد موت «صاح» الاولى ، عقد كبار رحال العشيرة مجلسا ،
وتشاوروا فيما بينهم ، فوقع اختيارهم على المرأة التي تعد عليها ،
واطلقوا عليها اسم «صاح» تيمنا . وهكذا حملت كثير من النساء
اللواني تتابعن في قيادة العشيرة ذلك الاسم البعون

ولكن شامت لاقدار أن تكون «صاح» التي قدت رحال
العشيرة في حروب ابراهيم باشا في سورية والأناضول ، آحر امرأة تجعل
ذلك الاسم . بل شامت تلك الأقدار الماسية أن يكون فساء العشيرة
على يدها

فقد أراد اسماعيل بك ، حاكم حلب المصري ، أن يجمع من
العرمان أموالا مبرية باهظة ، وأن يرهق الرحال بأعمال «السجرة»
التي لم يمهدها البدو الأحرار من قبل . فووقت «صاح» في وجه الحاكم
العاشم ، وأرادت ان تمنع عن قومها الظلم والجور . فعامل الحاكم عصبيتها
بالعناد ، وسبر عيبها الحدود لأحصاءها . وعشا حاولت المرأة ان ترفع
شكايتها إلى ابراهيم ، فان القائد المصري الكبير كان قد نذر الشكاه إلى
إبنان ، حيث كان عماله قد ساءوا التصرف ، واعصوا الناس ، وحولوا
عن المصريين القلوب

ووقعت معركة بين العشيرة والحد المصري ، خصدت المدافع حيام
العرب ومن فيها . وتركت مكائها أكواما من الحثث والانقاض
وهكذا قصي اسماعيل بك ، الحاكم لطلد ، على «صاح» أحت

أرجال وسيدة افرسان ، وعلى رفاقها الأمراء ، قدسوا جميعا قتلا قتال
المصريين ، بعد أن كانوا للمصريين عوناً على أعدائهم
وكان إبراهيم في شاعل عنهم ، يواحه الصعاب ومشاكل التي تثارها
أعدائه في أعاء اللاد ، فكانت نذير شؤم عليه وعلى حكمه في سورية
ولبنان

الضريح الخاوي

ان حادثة «الضريح الخاوي» من الحوادث التي شغلت بال ابراهيم
باشا في لبنان ، فهي حادثة بان تمسح لها مكاناً لها ، بين ما يورده من
وقائع الحروب والثورات ، ويدويه من أفضيصة ودكريات ، عن تلك
الحقبة من التاريخ وما تبعها من حوادث

رأينا أن محمد علي باشا كتب إلى الأمير بشير الشهابي أمير لبنان ، أن
يوافي وسه ابراهيم باشا في صحراء عكا ، أمام أسوار المدينة المحصنة ،
بحالته الخليلين الأشداء وقرساته الشجعان ، وأن يضم اليه في حروبه
وعرواته ، تعيداً للجهود التي قطعها الأمير بشير على نفسه ، عندما كان
في صياقة محمد علي باشا في مصر قبل ذلك اليوم بسوات

ولقي الأمير دعاء صديقه وحليفه عزيز مصر ، وسار من مقره
« بيت الدين » بصحبه مائة فارس إلى سهل عكا ، حيث التقى للمرة
الاولى بابراهيم باشا ، قائد الجيش المصري المظفر

وكان ذلك في ختام سنة ١٨٣١

وأصدر الأمير بشير أوامره إلى رعماء لبنان وأقباله ومشايعه ، بأن
يوافوا ابيه « الأمير حليلاً » بالغ مقاتل ، يصحون إلى المصريين
ويحاربون معهم حساً إلى حب . وآوفاً رسله إلى تنجاء الحبل ، يدعوا القوم
إلى القتال ، ويطلب منهم مساعدة الجيش المصري في حله وترحاله

وعد أن وضع الأمير ، بالاتفاق مع ابراهيم باشا ، خطة العمل في الامام
المقلبة ، فعمل راجعاً الى قصر بيت الدين ، حاملاً من القائد المصري
العظم وعداً بأن يروره في ذلك القصر ، وينزل في صيافته ، عندما تسمح
الظروف والاحوال

وصل الأمير إلى قصره ، فاداه بفاحاً غمر غريب ، دهش له ذلك
الرجل الذي عركته الأيام والحوادث ، والذي كان يعتقد أن لا شيء
يدهشه بعد أن رأى من الدنيا ما رأى !

قبل له ان عيد القصر كانوا يعملون في الحمامات كما دأبهم ، بعد
رجلته الى عكاه يوم واحد ، ففتروا في الدهاليز على جثة امرأة لم يقيموا
هونها ، ولم يعرفوا كيف دخلت الى ذلك المكان حية ، دون أن يقع
عليها طر الحراس ، وكيف قُلت دون أن يسمع لها أحد صوتاً !
ثار ثائر الأمير لهذا الخبر ، وسأل الموم عما فعلوه بالحية ، فأجابوه
هم يحتفظون بها في إحدى قاعات القصر ، بعد أن صووا عليها الادهان
والعطور ، في انتظار عودة الأمير لاطلاعه على ذلك الحادث العريب

ذهب بشير الى تلك القاعة ، فاداه أمام حثة فتاة كانت بلا شك
حمية قسه ، وقد ظهرت في عصفها آثار خنق ، بدن على أن القاتل استخدم
حبالاً لفصاء عليها ، وفي مصمبها أساور ذهبية ، وفي قدميها حلجان
من القصة ، وفي شعرها الاسود الطويل المسترسل حلقتان نيماتان

أدرك الأمير أنه أمام فتاة تنتمي الى إحدى الاسر العبية الشريفة ،
وعزم على تمزيق الحجاب عن سر تلك الضحية السكية

وراد في عمره ما كان يعتقد في نفسه من قوة الارادة وبعد النفود
أما كان الناس في جميع أنحاء لسان ، بروحون وبغيتون هادئين مطمئنين ،
في صوء النهار أو في دحي الليل ، دون أن يعترضهم أحد في الطريق .
ودون أن يقع في البلاد حادث اعتداء أو سطو أو سرقة أو قتل ؟ أما

كانت الامثال نصرب بالامن في انحاء ذلك الحل الاشم ، مما حصر محمد على
باشا بهه يقول : « لاجلن مصر آمنة كما جعل بشير لبنان آمناً » ،
كيف ادن تقع مثل تلك الجريمة في بيت الدين ، داخل قصر
الامير ، وأي تأثير سيء ستحدثه في البلاد ؟

حاول الامير أن يعرف الحقيقة ، وعرض حشة العتاة على الناس ، وأرسل
المباين يطوفون القرى المجاورة ، وأوفد الرسل الى أطراف امارته ،
وأداع الحرف في كل مكان ، وعذب الحراس ، وخذل الخدم ، وأمر بقتل العبيد .
ولكن ذلك كله لم يجد مفعلاً ، وظل أمر العتاة العرية ، التي وجدت محوقة
في دهاليز الحمامات في بيت الدين ، معبولا من سيد لبنان الذي كان يعتقد
أنه لا يحفل شيئاً بما حدث ، ولن يحفل شيئاً بما سوف يحدث !

فمر بشير بان تدفن العتاة المجهولة في قبر يحفر لها في حديقة القصر .
بين انورود والرياحين . وعادر الامير مقره في بيت الدين ، على رأس
فرسانه وفي صحبة اسائه ، الى ميادين القتال وساحات الشرف
وقص على ارضهم باشا قصة القاة ، فلم يحب القائد المصري دهشته ،
وقال لحليفه :

— أبحرق القلة والسماحون على الارباء في قصرك يا أمير ، وهم الذين
يرتمدون لذكر اسمك ، ولا يتعرضون للمساوير في امارتك ، خوفاً من
عقابتك وبطشك ، ان هذا الحادث لأعرب حادث سمعت به الى الآن !
وأجاب بشير :

— سوف أعرف حقيقة أمرها . والآن هذا السر سيضع
علي الحياة !



شعلت الحروب والمعارك الامير اللسان عن متاعبة البحث والسؤال
والتحقيق ، في أمر تلك العتاة العرية . وكان كلما عاد الى بيت الدين ، يعبر

هذا السر العاص شطراً من وفه واهنهمه . ولكنه لم يفز ببتيجة
رضيه ، لا بالوعد ولا بالوعيد

وراره في قصره الطبيب العربي الشهير كلوت بك ، موقداً من
لبن محمد علي باشا ، لمرافقة الجيش المصري في سورية ولسان . وأقام عنده
صيفاً حصه أيام . واعتزم لامر الفرصة الساعه ، وعهد الى الطبيب الكبير
أن يطلب من محمد علي باشا السماح لأربعة شان من السايين ، بالذهاب
لى مصر لدرس الطب فيها عنده . فاجاب محمد علي باشا صديقه الامير
اللساني الى رعه ، وأرسل الامير أول بعثة طبية لسانية الى مصر
وفي اثناء اقامة كلوت بك في بيت الدين ، قص عليه الامير شير
قصه الفتاة القتيلة المرة ، وألقى اليه بدهشته وغيظه من عززه عن
معرفة القاتل وهوية العلة

وحظر للامير حاطر عزم على تنعيده في الحان . فادى رئيس
الحراس ، وأمره بان يمهده الى العمال بسش القبر واستخرج حثه
الفتاة المحبولة

وأسرع رئيس الحرس والعمد الى تنفيذ الأمر . ورفعوا الاثرة
وزاحوا بلاط الصريح . في حضور لامير والطبيب كلوت بك
وزاحوا جميعاً مدهولين حائرين ، بظركل مهم الى الآخر ...
كان القبر خاوياً لا شيء فيه !

وثارت تائرة لأمر النهائي من جديد ، كما ثارت قبل ذلك اليوم
بسوات ! ونادى حوله الصباط ورجال الحاشية وحدم القصر والعبيد ،
وحاول أن يعرف مهم شيئاً عن احتفاء لحنه ، وعن هذا السر الجديد
الذي شغل باله كالسر القديم

ولسكن الجميع أقسموا أنهم لا يعرفون شيئاً ، وأنهم لم يروا أحداً
يقتر من الصريح أو بعث به

وقال أحد العبيد ، وهو رحن أهدها احمد بشا الخراز ، صاحب
عكا ، إلى الأمير بشير :

— انى أرى فى هذا الامر يا مولاي ، د ابليس اللعين ! ولا يعد
أن تكون تلك الفتاة من الجنان !

فصحت الأمير وهدأت ثورته . وبعد أيام عادره الطيب كلوت بك ،
فودعه بشير وأغدق عليه العطايا ، وقال له :

— يحيل الى أن أمر هذه الفتاة سيظل سرّاً دوماً فى هذا القصر .
وهو على كل حال السر الوحيد الذي عجز بشير الشامي عن كشف
الستار عن حقيقته !

ولم يعلم أحد إلى الآن من كانت تلك الفتاة العربية ، وكيف دخلت
القصر ، ومن أدخلها اليه ، وثية يد امدت اليها وخففتها وزكمتها
حتى هامة فى دهاليز الحمامات ، ومن هو القاتل الذي نع فرسته الى
القبر ، فسرق حشنها وأحفاها فى مكان مجهول !



مطين

أيها المسافر ، است يا من تجتاز أرض فلسطين المقدسة ، عرج بنا
إلى شاطئ تلك البحيرة المادئة الساكنة ، وقف بنا حياً أمام تلك
القرية ، الصغيرة عماحتها ، الكبيرة باسمها ، الحاملة في حاصرها ، المشهورة
في ماضيها ، وطامسها ، برؤس حاشعاً أمام تلك الاطلال المحيطة بها ، وهي
القبة النقية من سوار منيعة ، شيدت من حجارة البراكين الكالحة ،
ورعرعتها الدهور إلى أن رلزلت الأرض رلزلها في سنة ١٨٣٧ ،
فتهدمت تلك الاسوار ولم يبق منها غير ما ترى عينك الآن
طالما أهدقت بها الجيوش واندفعت نحوها سيولا حارقة . لكن
حجارة البراكين حطمت هجمات تلك الجيوش ، فعادت عنها مقهورة ذليلة
سلام على طبرية ، والسلام على بحيرتها !



أسسها هيرودس في العام السادس عشر قبل الميلاد . وأخذها
الاسرائيليون بعد حراب اورشليم عاصمة لهم . واستولى عليها عمر بن
الخطاب في سنة ٦٣٧ للميلاد . وأصبحت مركزاً دينياً ومقراً لأساقفة
المسيحيين في عهد الحروب الصليبية . وسقطت في يد صلاح الدين سنة
١١١٨ للميلاد . وعاد اليها الصليبيون من سنة ١٢٤٠ إلى سنة ١٢٤٧ .
وانتقلت مرة أخرى إلى أيدي العرب ، ثم إلى أيدي الاتراك . واشتهرت

في الحيل الثامن عشر عند ما اتخذها الشيخ و طاهر ، مركزاً لثورته
على الباب العالي

وانتهى بها الأمر الآن إلى ما نرى : فهي رابضة على شاطئ البحر
التي تحمل اسمها ، حائرة حزينة

وبعد أن تقف حاشعاً أمام طرية ومجرتها ، عرج ما أيضاً إلى ذلك
الحبل المبيع ، وادكر بالحير أو تلك الانطال الذي سقطوا في « حطين »
وقن معي : ألا ترسل الأقدار إلى الشرق ، في هذا العصر العصيب ، مصلاً
كيوسف صلاح الدين ، بعيد إلى أساء الشرق الثقة بنفوسهم ، وإلى
الشرق العظيمة النائدة ولحد الصانع والاستغلال المشهود ؟

أرسل محمد علي باشا أوامره إلى ابنه إبراهيم بأن يحكم تجارة الحرر
في الاقطار السورية ، ويحصل الاموال الاميرية ، ويبرع السلاح من السكان
ويحدم في جيشه . وكان إبراهيم في ذلك الوقت يقيم في مدينة يافا .
فحين بعد عدته لتعيد تلك الاوامر ، التي كانت خطوة أولى نحو الفتح
النهائي ، الذي مبيت به الجيوش المصرية في البلاد التي احتاجتها بالاتفاق
مع أهلها . وكان ذلك العمل الذي أقدم عليه محمد علي باشا وابنه إبراهيم ،
فأتمه الخلاف الذي حصل يعاقب مد ذلك الحين ، فأقصى إلى تمديد
الثورات ، واتساع العلاقات ، وانضمام عرى الاتحاد بين القاهرة والقدس
وبيروت ودمشق

اداع إبراهيم على الملا أوامر أبيه ، فتحمل السكان وعقدوا
الاحتجاجات ونشوروا فيما بينهم ، وانتهى الأمر بأن قامت الثورة في عهد
فلسطين ، في شهر مارس (آذار) سنة ١٨٣٤

شخص إبراهيم إلى القدس ، وأرسل في طلب رعماء البلاد ومشاع
المبارز وأصحاب بوحاهه ، لتداول معهم أو حملهم بالوعود والوعيد على
الهدوء والسكينة

وعقد في أوائل ابريل (نيسان) سنة ١٨٣٤ اجتماعاً عاماً حضره
عشرات من قادة الرأي في القدس وها وهايس وغيرها من امدت
الفلطينية . وعض في ذلك المجلس شيخ وقور من اسرة طوقس
المقدسية ، واستأذن من التشد امصرى أن يقص عليه قصة يتناقصها
الباس في البلاد منذ مئات السنين

فقال ابراهيم :

— ما حثت أيها الشيخ لسامع الاقاصيص ، وراكم في هذه البلاد
ممرمين بها . فاني لا نخط مدسه ولا أحصر علكا ، الا ويهمس أحكم
طالما أن يقص علي قصه أو يذكركى محادثه وقعت في زمن مصرى

فأجابه الشيخ طوقان :

ولكن القصة التي أريد الاقصاء بها اليك لها العائد ، ذات معرى
قد تستعد منه وأنت في عنوان شائك . فاصع الى شيخ أحمى النون
كتفيه وقربته من القبر

وقص الشيخ طوقان على ابراهيم القصة الآتية :

في اليوم العاشر من ربيع الثانى سنة ٥٨٢ للهجرة . التي فرسان
يمطوي كل منهما صهوة حواد عربى أصيل ، في الطريق الوعره المؤدة
من مدينة صور إلى حصن عكا . فأوقف الفارسان حوادهما ،
واطنقت من بين شفاههما ، في آن واحد ، هذان الكلمتان :

— يا لحاسن الصدف !

وقال أحدهما :

— كنت مرعاً اليك يا عمر لوداعك الوداع لأخير ، فن التحاق
بحبش سيدى الكوت رودمير ، المراط على مقربة من ها
فأجاب الآخر :

وكت من ناحيتي أيساً مسرعاً اليك يا فيليب ، لوداعك الوداع
الأخير ، قل التحافى بحيش السطان صلاح الدين الراحف على موقع
الأفرنج في هذه الديار
وترحل الفارسان ، وتعانفا طويلا ، وحلسا على حافة الطريق ،
فوق صحرة تشرف على البحر الهادى ، وحملا ببنادلات الحديث
والذكريات ...

كان فيليب دورسال الفرنسى جنديا في خدمة السكوت رودمير ،
الذى كان غارب في صفوف الصليبيين ، وينقل من ميدان الى ميدان
برحانه وعناده ، على حسب الظروف والاحوال ومقتضيات الحروب
وحدث ذات يوم ، في إحدى المعارك التى دارت رحاها في جبال
بابلس ، أن اتحنى فيليب ناحية من ميدان القتال ، فاداه أمام حرج
بفقد دمه بمرارة وبث من الأم . فاقترب منه الجندي الفرنسى وعرف
فيه اطلا عربياً مشهوراً ، كثيراً ما رآه فيليب في الميادين ، وكان الأفرنج
أنفسهم يعترفون له بالشجاعة وبفرون له بالسالة ، لأنه لم يكن بين
أبطال ذلك العهد المحيد من يسكر على صاحب الفصائل والخصال فصائله
وخصاله

كان الحرج بطب ماء ، حمله اليه فيليب ، وعندما روى العربى
ظمأه ، فتح عينيه وتمتم قائلاً :

افئلى الآن ايها الجندي الصدى ، فاني راحل عن هذا العدم قريبر
العين بعد أن وبيت الواحب حقه . وأرجو أن يكون النصر في هذه
للموقعة لاعلام المسلمين !

فقال له فيليب :

وهل سمعت يا ابن الاكارم أن أحداً من رجال رودمير احبر

على حريق أو نهجم على اعرل ؟ لقد عرفك يا عمر التهامي ، وشاهدت
ممالك في الميدين . وثق أن الحدي الذي تراه الآن أمامك يحل فيك
الشهامة والاماء : سأعقد حياتك . وقد تسبح لك الفرصة في مسهل
الايام فتفقد حياتي !

وانتهت تلك المعركة ما هرام المسلمين . ولكن فيليب دورسان الثمري
لم يلحق برفقه ، عندما اندفعوا في مضاردة اعدائهم ، لم يركب حواده ،
وحمل معه عامراً التهامي الحريح ، إلى مكان معزل في الجبل ، حيث بقي
ليسته بقربه ، وضمد جراحه ، وأعاد اليه الحياة

وتوثقت عرى الصداقة بين الرحلين ، فانتقلا معاً إلى جمال لسان ،
حيث أقاما مدة من الزمن ، ميدين عن الحصون والقلاع وساحات القتال
وكانت الحوادث تتنازع وتندرع في أثناء ذلك ، ويران الحرب
تدلع الستار في كل مكان بين المسلمين والصليبيين . فقل عامر ذات
يوم لفيليب :

— أي صديق . انتق أحسن إلى ديار أهل ومضارب عشرين .
فأقصد إلى وادي التيم حيث يرلون ، وأقضي بينهم مدة من الزمن .
ثم أبعث اليك ماخاري أو أوافيك في عزلتنا هذه !
فأجابه فيليب :

أي أدرك بصديق الدافع الذي يحملك على ذلك . لاني أشعر
به أيضاً ، وأرعب مثلك في سدهب إلى لأهل والحلان . فأقصد من
ماحقني في عكا . حيث يرل رجال رودمير ، وبينهم حوتى وأبساء عمى .
ولن تفرق لأيام يساً يا عامر

وافترق الصديقان على أمل اللقاء !

وكان اللقاء في اليوم العاشر من ربيع الثاني سنة ٥٨٢ للهجرة .
فقد حل عامر التهامي في مضارب عشرينه بوادي التيم ، وقول

بالهليل والكبير ، وكان القوم يطوفونه ميتاً . وعلم الرجل أن الملك
الناصر يوسف صلاح الدين قد أوفد رسله إلى القبيلة يطلب قيامها
إلى القتال ، والتحاقها بجيش المسلمين في طبرية

وعلم فيليب على أثر وصوله إلى عكا أن الملك هـ حي ، الصبي قد
أوفد رسله إلى الإمارات والحصون والقلاع المسيحية ، يطلب من رجالها
الاستعداد للحرب ، ومواثنته إلى محيرة طبرية للقاء المسلمين والقضاء على
حيثهم

ورأى عامر ، ورأى فيليب ، أن الواجب يقضي على كل مهمة
بالسير حيث تتمر السلطة العليا . وأراد كل مهمة قتل اللحق بأحواله
أن يعود إلى صديقه ويودعه الوداع الأخير

واتجه عامر إلى عكا للقاء فيليب . . .

واتجه فيليب إلى لبنان للقاء عامر . .

وشاءت «صادقات» أن يلتقي في ذلك الطريق المؤدي من صور إلى

عكا . . .

وكان بينهما حديث وكلمات دموع وكان فراقا صار كل من الطرفين
العدوين الصديقين ، إلى حيث يدعوهم الواجب ، مدياً نداء الدين والمثل

قرر صلاح الدين السير في القبال إلى النهاية ، واترع الاماكن
لمدسة من بنى الصليبيين ومراثمهم وأفيالهم وأسافقتهم ، فاصق
الحرب من عفاها . ونادى بقومه أن هوو إلى الجهاد قل أن يعد
لعداء عدسهم للدفاع ، وتصل الامداد التي وعدوا بها من بلاد العرب ،
والتي تحملها اليهم سفنهم المدينة فوق مياه البحار

وانقصت سه كاملة والحرب سجال بين العريقين . فتارة يصحك
الصر للمسلمين ونارة يحس في وجوههم . وسالت الدماء حول اسوار

المدن وفوق قم الحال وفي بطون الاودية ، من عكا الى اورشليم الى
نابلس الى الكرك والصحراء

وأراد السلطان أن يضرب صرة قاصية ، عندما بلغه ان جيشا لحا
قطع البحار الى سواحل لسمين . فحشد كتائبه في الكرك ولشونك .
ورافقه هناك جيش من حلب بقيادة زين الدين داردم ، وجيش من
دمشق بقيادة قنطار الحمي ، وجيش من البادية بقيادة مطهر الدين
كوكي ، وعبرها من الجيوش جهرها الامراء والقواد من حدود مصر
الى تحوم العراق ، فزحف السلطان تلك القوة الهائلة الى بلدة طرية
الحصينة

وكان الافرنج من ناحيتهم قد جمعوا جموعهم وساروا للقاء المسلمين ،
فان انصلوا الى ساحل البحر ، فالتحم الجيشان في موقعه فاصلة ، في يوم
الست الخامس والعشرين من ربيع الثاني سنة ٥٨٢ للهجرة ، الموافقة
لـ ١١٨٧ للميلاد

قائل الفريقان قال الاسود ، وقد أيقن كل منهما ان الأرض
المقدسة ستؤول الى من يعقد له النصر في تلك المعركة ، فالتفتت الركب
بالركاب ، وتصارعت الرءوس على الاعناق ، وارتفعت صيحات المغاربي
الى كد الغصاء ، وغصت قوائم الخيول في اهر من الدماء ، وتساقطت
الحطب كداس فوق كداس . وبعد ساعات من طعن وصرب لم يدون
النار مع مثلها ، تبدلت صفوف الافرنج ، ودب اليأس من القور في صدورهم ،
ورأى الخوذة حمسة من امرائهم يهرون على الارض محذلين ، فصاح
أحدهم : « العدو عن القتال خير ووفى » فردد آخرون هذه
الكلمات . وما هي الا ساعة حتى تراحت كتائب الصليبيين ، واندفعت
تطلب النجاة في جبل حطين

ولمب اهرام العدو صدور المسلمين حماسة ، فاطلقوا في مطاردة

الصليبيين، وأحصوا بهم في حطين، حاطة السوار بالمعصم، فتحوّلت المعركة
إلى مدحجة هائلة، وهرب من لافرنج - وكان عددهم نحو ثمانين ألف
فارس وراجل - عبر نضعة - لاف طلبوا لأمان من صلاح الدين. فمَرَّ
السلطان بالكف عن القتال، وأُخذ الأسرى إلى قلاع المسلمين في بلاد
الاسمعية

وعندما اجتمع فواد الحشّ الطافر، بعد معركة طرية وحطين،
حول سلطانهم المحبوب المطاع، قال لهم صلاح الدين:
لقد دون حبشا السبل سمى اليوم في حبة الدهور. ويحق
لمسلمين بعد هذا النصر المبين، أن يعملوا من حبس حطين كعبة ثنية،
يججون إليها مكبرين مهلبين مستبشرين!

— وماذا تريد يا عامر أن تصنع بهذا الرجل؟
ألقى صلاح الدين هذا السؤال على عامر الهيمى، فأجاب السطل العرني:
— مولاي، وعدني في ميدان القتال، عندما مررت أمامك
وسبق بحصص الدم الاعداء، أن تحبسي إلى رعدة واحدة أقصي بها إليك
بعد انتهاء المعركة. وهذا قد حثت إلى مولاي طاماً منه الوفاء بالوعد.
وما كان صلاح الدين يوماً من الحاشين!
— حدثني دن يا عامر تطبب العقو عن حندي مسيحي، حاول في
البدن أن يضرب سيفه عنق صلاح الدين! قد ذلك لأسير الذي
تحدثني عنه، هو أخيه ذلك الرجل لدى اشتد سيق بسيفه. وكان
يراد أحدي على حين عرة

أعلم ذلك يا مولاي. ولو كان ذلك الرجل حدياً خملاً، لما رأيت
مى هنأماً بأمره. لكنه من أبطال الصليبيين العدودين، ومن فرسانهم
المعابرة. وقد أنقذ هذا الرجل حياتي، فاقسمت أن أنقذ حياته، وأقابل

صنيحه بثله ، عندما تسبح الى الفرصة ، وقد سنحت اليوم !
طلب صلاح الدين أن يؤتي إليه بذلك أحد الصليبي ، فوافق الخو
د إليه فيليب دورسال ، صديق عمر النهمي ورفيقه وصاحب الفصل عليه
فقال صلاح الدين .

لقد حاولت قلبه بهذا ، ونحن الآن نعمو عليك ! فهو نحفظ
لنا جميل الذكرى على صليحنا هذا ؟

فأجاب فيليب ، بعد أن ألقى نظرة على حاشية السلطان
أيها المولى ! أنت نعمو عني احانة لرعيه عامر النهمي ، لدي
تقدت حياته فأراد اليوم أن يفقد حياي . فلت إذن مدسا لك عطف
أو معروف . وانما أنا مدين بهما لي هذا الصديق الوفي . ولولاه لما
عفوت عني ، بل لضربت عنقي !

فقد صلاح الدين يده إلى فيليب دورسال وقال :
— وددت والله لو لم يطلب عامر النهمو عني . انكى أصدر ذلك
العفو من تلقاء نفسي ، مكافأة لك على صبر حثك ، واعترافاً مني لشجاعته .
فصاح أيها البطل هذه اليد التي لم تصفع عبرايدي الشجعان الصديدين .
لقد أحنت عامراً إمامي إلى رعيه ، وعفوت عليك . وصعب على ذلك
اسي أن احتفظ بك سراً ، ومنت يا أخي حر طريق

هجر عامر عشيرته ، وهجر فيليب قومه ، وعاش الاثنان معاً ثلاث
سنوات كاملة ، في حبات السامرة ، وأقام في صومعيتين . وانعكس كل
مهما على الصلاة ولعمادة على حسب تعاليم ديه ، وكان الدس بقصدون
اليهما للترك منهما ، والاصفاء إلى ارشاداتها
وأندما رعبتهما لكل من كان يقرب منهما ، في أن رقدار قدما
الاجبر حساً إلى حسب ، في حل ريتون في اورشليم ، سواء أكانت الديه

المقدسة في أيدي المسلمين أم في أيدي الصليبيين

وفي سنة ١١٩٣ للميلاد ، كان لصاعد الى جبل الزيتون ، يرى تحت
شجرة وارفة الظل ، قبرين صغيرين ، يملو أحدهما شاهد من حجر ،
ويملو الآخر صليب من خشب
فقد مدت رغبة الصديقين الأخيرة . ونام الاثنان يومهما الايدي
في تلك الشجرة ، في سماع حل الزيتون . وللمرة الأولى في التاريخ ،
تجاوزت الشارتان - صيب فيليب وشاهد عامر - وكانت ذلك دلالة
مهموسة على أن القلوب في استطاعتها أن تتصافى ، مهما كانت العقائد
الدينية اراسحة في الصدور ، وأن الناس جميعاً إخوان في السراء والضراء ،
والدين قديان !

أراد الشيخ طوقن المقدسي أن يقول لاراهيم ، القائد العظيم ايدي
سكره النصر فراح يقلب صبر لحن للدين كانوا له عوناً على اعدائه ،
بن العامر حبر من النحاصم . وإن في استطاعة المصريين ان يعيشوا مع
ابناء البلاد التي فتحوها في صفاء وهناء . فقد حتم الشيخ قصته بهذه
الكلمات :

أكر صلاح الدين يا مولاي عاطفه الاخلاص عند رحلي ،
ومعا عن حدى من حدود الاعداء . أفلا يحمل كُنت يا ابن محمد علي
أن نكر عاطفه الاخلاص عند أمة بأسرها ، ونسمع عن محاربتها في
عادتها وتقاليدها ، وهي التي حاربت معك لاعداء ، وامترحت دماء ائمتها
بدماء حدودك في الميادين ؟

سكت ابراهيم باشا هنيهة ، ثم قال :

— قد نكون مصيباً فيما ذهبت اليه أيها الشيخ . ولكن وأمر
اي صريحة ولا سبيل الى مخالفتها !

حتى محمد علي باشا ان يدقق عليه السكان في فلسطين وسورية
ولبنان ، كما انتقصوا من قبل على الدولة العثمانية ، فاراد أن يحتاط للامر ،
ووقع في ذلك الخطأ الشنيع
وكان السكان يقولون : « يظهر أن عرب مصر يريد أن يتعداها
قبل أن تتعشاه ! »

وأضمرؤا له الشر منذ ذلك الوقت

والعريب في ذلك كله ، أن الذين انتقصوا على ابراهيم باشا وحيدته ،
في بادئ الامر ، هم المسلمون والدروز ، وأن الذين طلوا له مواليين محصين ،
هم النصارى اللسايون

قامت الثورة الاولى إذن في فلسطين ، واستمرت ستة أشهر كاملة .
وقعت في خلالها ، بين الثائرين وحمود ابراهيم ، معارك ومساوشات عديدة ،
كان فيها النصر تارة لمؤلا و تارة لاولئك ، إلى أن محبت سياسة
التفريق التي عمد اليها ابراهيم لتهدئة الحالة ، فانهت الثورة بالقضاء على
الفاعين بها ، وفرار بعض زعمائهم إلى الصحراء

وبما كان ابراهيم يحارب الثوار الفلسطينيين بنفسه ، قامت ثورة
أخرى في دمشق في شهر مايو (ايار) سنة ١٨٣٤ . فقمى عليها شريف
باشا في مهبها

وتأمر سكان طرابلس على الفتك بالحامية المصرية ، فساد اليهم الامر
خليل ، ابن الامير بشير الشهابي ، على رأس الف مقاتل من نصارى لبنان ،
فتك بهم ، وقص على زعمائهم ، واقعد الحامية المصرية من الهلاك .
وكان ذلك في شهري يونيو ويوليه (حريران وتموز) سنة ١٨٣٤

وما هدأت الحالة في طرابلس ، حتى قامت ثورة أخرى في صابنا
وعكار وحسن الاكراد . فرحب القائد المصري سليم بك والامير
خليل وفرسانه اللسايون على الثائرين ، في شهري اغسطس وسبتمبر

(آب وايول) سنة ١٨٣٤ ، ممر العصاة من وجه الجيش لراحف ،
وفض سليم بك والامير خليل على رعمائهم ، ورسولهم إلى اللادقية
وضر بلس مكين بالحديد ، فعى بعضهم إلى قبرص
ولكن تلك الانتصارات م تنصع جداً للقلاقل ، بل تصاعف بسببها
عدد الخصوم ولاءده ، ولم يعد في استطاعة اراهيم أن يطمئن على
سلامه جيشه ، ون يعتمد على أحد من حلفائه السابقين ، غير الامير
بشير وابنائهم وسكان لبنان الموارنة

انشودة العير

كان « عبدالله آة عدرة » صاحب قلعة « المرقب » بين الرعما
الذين قبض عليهم سليم بك والامير حميل ، في ثورة عكار . وكان
إبراهيم باشا يعلم ان ذلك رعيم العير يكرهه كرها شديداً . فأصدر أمره
باعداد لاسير لانه أهان ضابطاً مصرياً و شترك في الثورة علناً
وبعد حكم لاعداد في عدته آة عدرة ، في سوق اللادقية ،
ودهش المصريون عندما سمعوا ، في اثناء اعدام الرجل ، أصوات النساء
ترتفع بالثناء

نعم ، كانت النساء الساعات لعبدالله آة عدرة ، يشدن باصوات
تقطع بباط الفلوب ، أنشودة حربية ، تعرف عندهن بانشودة العير
ولهذه الانشودة قصة . . .

كانت تلك انبلة ليلة عير في قلعة « المرقب » حيث اجتمع الاشراف
و مرسان حول رعيمهم قائد ذلك موقع الحربى المدح . وتلاأت في
القاعة الكرى وجوه السيدات الصاحكة ، وانسامتهن الخلاة .
وارتفعت في ارجاء المكان أنغام الموسيقى «تورية» ولاناشيد الدبية
والقومية

كان القوم يحتفلون بعيد ايلاد ، وذلك في سنة ١١٧٢ مبيجة ، وقد

عقدوا مع أعدائهم هدنة ، تعهد الفريقان بالامتناع عن الحروب
والغزوات في خلالها

وكان الصليبيون والمسلمون يلجأون إلى ذلك في المواسم والأعياد ،
ولا تنطبق السيوف من أعمدها ، إلا بعد انقضاء المدة المتفق عليها
أما قلعة « المرقب » التي كان يقام فيها الاحتفال ، فقد بناها العرب
في سنة ٤٥٥ للهجرة الموافقة لسنة ١٠٦٣ مسيحية ، في بلاد « الاسماعيلية »
أو « الحشاشين » كما كانوا يسموهم ، على قمة جبل يشرف على البحر .
وكان في استطاعة من يقيم في تلك القلعة أن « يراقب » الطريق المؤدية
من طرابلس إلى انطاكية ، والطرق المتشعبة منها إلى المناطق الحلبية
الداخلية . ويعرفها الأفرنج باسم قلعة « ماركا » أما العرب فقد أطلقوا
على ذلك الحصن اسم « قلعة المرقب »

وانتزع ذلك الموقع المسيحي من العرب ، القائد الصليبي روجيه أمير
انطاكية ، في سنة ١١١٧ للميلاد . وانتقلت القلعة فيما بعد إلى
« فرسان الهيكل » الذين تعهدوا بالاحتفاظ بها ، والسيطرة عليها على سلامة
المواصلات ، بين حصون الأفرنج وقلعهم على سواحل سورية ولبنان

وفي تلك الليلة التي كان الفرح فيها شاملاً ، وصل إلى أسوار الحصن
الحارحية فارس عربي ، طلب من الحراس أن يرسلوا العبر على الخنادق
المملوءة بالماء ، لكي يدخل الحصن ويقال قائده ، ما دامت الهدنة قد
أعلنت ، وما دامت الأيام أيام عيد ، لا حرب فيها ولا قتال ، ولا عذر
ولا حياة

وترحل الفارس ودخل القلعة . وما وقع بظر الحراس عليه حتى
عرفوه ، لأنه كثيراً ما كان يتردد على قائد الموقع
وعندما بلغ خبر وصوله مسامع المحتشمين في قاعة الحصن الكبرى ،

لم يظهروا شيئاً من الامتناع ، بل وافقوا على أن يشاركهم الصيف
العرب في فرحهم ولهموم ، وأوفدوا اليه رسولا بدعوه للدخول
لكن الفارس لم يدخل ، بل أقصى الى الرسول رغبته في أن يرى
الفتاة « بلاش » ربيعة سيد الحصن ، لانه سائر الى ميادين القتال ،
ويود أن يودعها ويودع حمة الموقع في شخصها
ولم يماع أحد من الخالسين في قاعة الحصن في خروج الفتاة للقاء
الفارس العربي ، لانهم كانوا جميعاً على ينة من أمرها ، يعلمون أن
الفارس أعقد حياتها في إحدى العروات ، وأنها تحمل له في صدرها
عاطفة حمة قوية ، محروجة بالاحترام وعرفان الجليل

هرولت بلاش الى صحن القلعة ، حيث كان الفارس العربي ينتظرها
ملتحفاً ردائه الأبيض ، تحت الريح الشاهق العائم في وسط المكان
وألفت لفتاة نفسها بين دراعى ذلك العريب ، قائلة بصوت يندو
فيه القلق والاضطراب :

« علاء الدين ! علاء الدين ! ماذا أسمع ؟ أعانده أنت الى ايادي
حقاً كما انتت مد لحطة ؟ ألا يعيد اذن سلطانكم الشجاع السيوف الى
الاعتماد والراحة الى النفوس ؟ أكتب لكم أن تقضوا حياتكم كلها في
كر وفر وهجوم ودفاع ، تنقادكم الافذار من نصر الى هزيمة ومن
هزيمة الى نصر ؟ أما هذه الحالة من آحر يا علاء الدين ؟
فصم الشاب العربي الفتاة إلى صدره ، وداعب حداثتها المسترسلة ،
وقال بصوت لا يقل اضطراباً وقلقاً عن صونها :

هكذا شاءت الافذار يا بلاش ، بل هكذا شاءت لامم الافرنجية
التي تنتمين اليها ، والتي دفعت حواصل الصيبين الى هذ الشرق . نرى
أفوم نواحي كعربي ومسلم في صفوف العرب والمسلمين ، كما يقوم

أصدقائك و... قومك و... واحمهم كافرين و... صاري ، في صفوف الصليبيين .
أريدني حاشاً باليهود ، حاشداً لسادتي ، محجاً عن تلبية نداء الدين -
ديني أنا ما بلانش *

- كلا يا صديقي . لا أريدك هكذا ، بل أريدك دائماً ، دائماً حافظاً
للهود ، طائفاً لسادتك ، أول الدين للنداء . لقد أعدت حياتي بإعلاء
الدين من موت عقق . وكنت في ذلك اليوم العصب مثل السيل
والشرف والروءة . واني أحفظ لك الجبل على حسن صديقك ، كما أن
قومي يقرون لك بذلك الصنيع الحسن . فأنت هنا دائماً بين أصدقاء
أوفياء ، سواء أكان في أيام حرب أو في أيام سلم . ولكني رغب
اليك في شيء واحد وهو أن لا تطيل عيشتك عني . وأن ترور هذا
الحصن مرة أو مرتين في السنة هذا كل ما أطلبه منك . وأعدك
بأنني سأفكر فيك ليلاً ونهاراً . وأرفع صلواتي إلى الله عز وجل
إلى الله الذي بعده قومي كما بعده قومك بإعلاء الدين - بأن يدفع
عنت الادي . ويحفظ حياتك ، ويعلمك سعيداً ... سعيداً كما أريد أنا
أن تكون ... سعيداً على الخصوص في الحب بإعلاء الدين *

- وهذا ما أرجوه لك يا صديقي *

حقق الله رجاءنا ، وسأطلب من الله أيضاً ، في هذه الليلة
التي نحفل فيها بميلاد السيد المسيح ، أن لا يمنح موت حمداً سعيداً عن
الآخر *

وسأطلب منه أيضاً أن لا يبعث عبي لمرة الاحرة إلا بالقرب
منك يا بلانش . الوداع

- بل إلى اللقاء يا مقدي من الموت . إلى اللقاء القريب اكن
شجاعاً ، ولكن لا تخاف نفسك ولا تقنصم المخاطر طائشاً
- إلى اللقاء . *

رجل علاء الدين السجاري عن حصن ابرق في ذلك الليل الذي
 أراد الله أن تكون السماء فيه صافية لادبهم مرصعة بالجوهر . وعاب
 الفرس العربي الكريم عن الانطار معسلا في الظلام ، والمساء مظلم
 من أعلى البرق الشاهق ، باشرة حمراء ، لا يبيض ، مشيرة به لتحية الصديق
 المسافر ، بينما كانت الرياح تداعبها لمفجعتها العردة
 ووجهت الفتاة فحاة بالكاء ، فاقبت الخمر لا يبيض من يدها ،
 وحملت الرياح على أجنتها ، ودفعت به الى حيث تمتد الطريق الوعرة ،
 من سوار الحصن إلى أسفل الحبل
 ونظرت الاش إلى الخمر في طيرانه ، وما هي إلا دقيقة واحدة ،
 حتى سمعت الغناء صوتاً بعيداً عرفت من برانه ، بصبح فرحاً .
 سحله في صدري ، وسبكون لي درعاً يرد عني أسنة الرماح !
 إلى اللقاء !

في يوم من أيام الشهر الثاني عشر سنة ١١٩٢ للميلاد ، الموافقة لسنة
 ٥٨٨ هجرية ، وصل مدينة طرطوس . في رابعة النهار ، شح هرم ،
 بحر منه حراً ، وعلى ظهره كيس مدهل يعمد فيه قوته ، وفي وجهه
 أن حرج يبيع ، وشهورة البص . تجلل رأسه وتساقت على كعبه
 كانت المدينة في ذلك اليوم في فرح ، لأن الكنيسة التي شيدها
 الصليبيون ، وهدمها السطاح صلاح الدين يوسف في سنة ١١٨٨
 قد أعيد ترميمها واصلاحها ، بعد أن عقد الصبح بين السطاح
 وريكاردوس قسب لاسد . وكان الناس في ذلك اليوم يقيمون الرميات
 استعداداً للاحتفال بعيد الميلاد
 مر الشيخ الفريب في المدينة قاصداً الى الكنيسة الكبيرة ، فالتقى
 في راحتها نكاحن حليل من كهنة الصليبيين فسأله قائلاً :

— أفي استطاعتك يا حصرة الالب أن تعطيني أجراً عن حصن

المرقب ومن يقيم فيه الآن ؟

— نعم يا أخي . في استطاعتى أن افعل ذلك إذا كان الامر يهمك .

أقاصد أنت الى ذلك الموقع للنبع ؟

— نعم . إنني أسير اليه على قدمي ، منذ شهر

— إن الحصن لا يزال كما كان منذ عشرات السنين ، في حوزة

فرسان الميكل

— والفتاة بلانش ؟ أتعرف عنها شيئاً ؟

— الفتاة بلانش ؟ لقد ررت السعة في العام الماضي ، ولكنني ما

عرفت فيها فتاة بهذا الاسم . غير أن في الحصن اليوم سيدة تدعى

« بلانش » هي روضة الكونت هكتور ، الذي نلت مسامحك بلا

شك أساء انتصاراته الباهرة ووقائع الرائعة . إن روحته تدعى « بلانش »

نعم . وابنته الصبية تدعى كلونبدة . . .

آه . . . شكراً لله . . . استودعت الله !

— بسلامة الله يا أخي !

وكانت تلك الليلة أيضاً ليلة عيد في قلعه المرقب ، حيث اجتمع

الاشراف والفرسان في سنة ١١٩٢ ، كما كانوا مجتمعين في سنة ١١٧٢ ،

فلأدت في القاعة الكبرى وجوه السيدات الصاحكة ، وانتساماتهن

للحلاية ، وارتفعت في ارجاء المكان ابعام الموسيقى الوترية والاباشيد

الدينية والقومية

وكان القوم يمتثلون — في تلك الليلة ابصا — بعيد الميلاد السعيد

وفي سكون الليل ارتفع وراء الاسوار صوت يطلب من الحراس

الادخول

من يكون ذلك الشيخ المنهدم ؟ به بلاشك درويش حط عليه
الرمي ، أو متبول قدر ، أو حاح ندرقه السير على قدميه إلى بيت
القدس

أزل له الحراس المعر قدح . وحل في ناحية من الساحة قنالا
للحد انه يرغب في رؤية السيدة زوحة السكوت هكتور . فامعص الحد
ولكهم حملوا الحرا إلى السيدة ، لأن التقاليد تقضي بان لا يرفض لاحد
طلب في أيام الاعياد

حزحت بلاش إلى ساحة الحصن ، وانحبت إلى الركن الذي حاس
به العريب ينتظر . فإذا بها أمام رجل لا تعرفه

— بلاش !

اسمعت هذه الكلمة من فم العريب الشيخ ، فتنفضت المرأة لسماعها
هذا الاسم يطلق فعاة من بين شعبين مرتجفتين ، وقالت بدهشة
مروحة شيء من العصب :

— من أنت ؟

أنا . . .

سكت الرجل وعض على شفتيه . ثم وضع يده في صدره . وتناول
منه شيئاً شره أمامه . هذا المرأة ترى حمراً أبيض ، باصع الياس ،
يخفق مضطرباً وقد لدت به حطرات السيم !

— علاه الدين !

— نعم علاه الدين يا بلاش !

— أنت ؟ على هذه الحالة ؟ هنا . . . انهض . امهض من مكانك

وقص على قصتك

— لا . لا استطيع البوص ، فقد حارت قواي . وما حثت إلى

هذا إلا لكي ألقى نحي في هذا لركن المعزل من أركان حصنك يا بلاش

هكتور . . . هكتور . . .

دوى صوت السيدة في ارجاء القلعة ، فاسرع الكونت هكتور ،
روحها ، تصحه استه ، وهي في الخامسة عشرة من سها
هكتور . لقد اقصيت اليك عبر مرة يا حبيبي العربي عما حدث
لي من زمن بعيد ، يوم هاجمنا الاعداء وأحرقوا بي الخطر من كل
صوب ، فأتقدي فارس عربي شهيم نبيل
— علاء الدين ؟ —

— انظر : انك ترى متقدي أمامك !

— هذا الشيخ الهرم ؟

م دفع علاء الدين رأسه ، وقال بصوت عادت اليه ببرات الشباب :
— هذا الشيخ الهرم أيها المولى ، لم يسع بعد التحسين من العمر .
لكن لويلات والمصائب التي حلت به ، والعذاب الذي قاساه ، والصرب
المرح الذي نحملة صبر وثبات ، كل ذلك جعله يشيع قبل الأوان
كانت بلاش قد حسنت على الأرض بحاب مقدها ، وأرهمت أديمها
تستمع اليه ، فقال :

— وقعت أسيراً في حروب عصفان ممد عشرين سنة . فقدني
الصبيون الى قلاعهم وحصونهم . ثم أرسلوني مع من أرسل من
إخواننا العرب الى بلادهم . . . نعم الى بلادكم أيها المولى ، حيث طافوا
ما كما يطوف الأروصون نوحوشهم ، لكي يتفرح علينا الناس في المدن
والعري والخفول !

— ماذا تقول يا علاء الدين ؟

— الحقيقة . وقد فررت من الأسر ، وهمت على وحيى في بلاد
لا أعرف لعة أهلها . فسرت من قطر الى قطر ، متكرراً ، باسطاً يدي
للذول . أعمل العذاب وشطط العيش . وليس لي غير أمية واحدة

وهي أن أرى ، لا دي فل أن أموت ، وأن أموت في هذا الحصن بلاش
ستعيش يا علاء الدين . ستعيش وسيدك نحن ما الحقه بك
بنو قومنا هناك من ضرر !

ما حثت لكي أعيش بل لكي أموت . وقد حقق الله رجاء ما
بلاش : ما طلبنا منه هنا ، مئتي عشرين سنة ، ألا يسمح بموت
أحدنا بعيداً عن الآخر ؟ وقد أراد الله أن تعمص عيني بيدك . اى
أشعر بالحياة نسل من حمى اسلا ، فدون لك اليوم يا بلاش .
الوداع ! الوداع الأخير ! إن هذه الليلة ليلة عيد عندكم يا كوت ، فارحوا
ألا تمكروا على أنفسكم صعو هذه الأفرح . انكم تحرمون ارادة البيت
الأخيرة . وارادتي الأخيرة هي أن تدفون في سفع هذا الحبل . بين
تلك الصحور الشاهقة ، وأن تكون ذلك على نعام الموسيقى ، وعلى
لحن أشودة العيد ، التي كانت بلاش الغناء نعيمها مئتي عشرين سنة ،
والتي أرعب الى بلاش الروحة والألم أن نعيمها الليلة أيضاً !

وفي ليلة عيد الميلاد سنة ١١٩٢ ، دون علاء الدين السجاري في
سفع الحبل ، على طريق قلعة المرقب ، على أنعام أشودة العيد . وأب
صديفته بلاش ، التي أقدها من الموت فكان صبيه الأسر والتعذيب
والقتريد ، إلا أن تقيم على قبره شاهداً حمرت عليه هذه الكلمات
باللغة العربية : « في ذمة الله . انا لله وانا اليه راجعون ! »

وحمل الناس يتناقلون مد ذلك العهد العبد ، أشودة العيد ،
حتى اذا ما سبها قوم ، وضع غيرها قوم آخرون . وصل السكان في
أفراحهم وأراحهم على السواء ، وفي أيام الحروب والقتل والثورات ،
وفي أيام السلم والطمأنينة ، يعون « أشودة العيد » التي تجمع بين
الحب والشجاعة والمروية والاحلاس . وسواء أكان صاحب قلعة

« الرقب » مبيحاً ثم مدياً ، عربياً أم أحدياً ، فان « أنشودة العيد »
كانت تنتقل الى صاحب القلعة بانتقال القلعة اليه ، كأنها حرة متم
لبحارة الصفاء ، والاسوار الصلحة ، والابرار الشاهقة ، التي يؤلف
منها ذلك الحصن النيع
وهذا ما جعل النساء - في ايوم الذي أعدم فيه عبد الله آلاء عذرة
في اللادقية ، يشدن على مسمع من الجند المصري « أنشودة العيد ! »

السَّيْطَانُ فِي الدَّيْرِ

إذا توجلت في صحراء سيب ، محتطباً من حواد أو راكباً سيارة
أو سائراً مع الاصعان « تطوى اليد طياً » - فمرح على ذلك الدير
المعرب الذي يبدو لك هناك ، في سمع جبل موسى ، أشه بقلة حصينة ،
شيد أسوارها أقوام من المردة لصد عروات العراة وعارات المعربس

ذلك لدير يعرف الآن بدير « القديسة كاترينا » ويتصح من
الوثائق والمخطوطات المحفوظة في مكتبة القبة ، أنه شيد في المكان

الذي ظهر فيه الرب لموسى الكليم ، وسمه لوحة الشريعة وأوصايا

وإذا وصلت إلى ذلك الدير ، وولجته بعد استئذان الرهبان المقيمين

فيه ، فإذهب مسرعاً إلى تلك المكسة ، واخث بين وثائقها

ومخطوطاتها ، إذ كنت من هواة لبحث في محافل التاريخ وحوادثه

اعظموسة المهمة ، فإليك سوف تخرج من بحث «نتيجة» تتحدث تسهين

بالتعب الذي عانيته للوصول إلى ذلك الدير

وبين الحوادث التي نصمها أوراق السجلات القديمة في دير القديسة

كاترينا ، قصة « شيطانين »

الشيطان الأول يدعى تيوبيلوس . . .

والشيطان الثاني يدعى فوزان الأدرعى . . .

ولبدأ بقصة الشيطان الثاني :

ترك ابراهيم باشا أعوانه وصباط جيشه وحلفاءه الاسايين بحارون
الثائرين في الشهاب ، وانصرف من ناحيته الى مصاردة العصاة في فلسطين ،
فكان عود لحلات معه ، ومحوص عمار المعارك في مقدمة جيشه .
وكان الثائرون يستسلمون في القتال . عبر ان الدائرة كانت في معظم
الاحيان تدور عليهم ، فيهرعون الى الحلال أو الى الصحراء ، وانقضى
عن الجيش المصري الضعف لن يفتي أثرهم ، وأن ابراهيم باشا لن يخاطر
بنفسه ويرجاله ويلحق بهم

وكان بين الثائرين في حان فارس ، شيخ من عربات الصماء ،
يقود كوكبة من الفرسان ، وبشن العارة على محاربي الجيش ومستودعات
أسلحته ومؤونه ودخيره . وسم ذلك الشيخ « دوران » الادري ،
نسة إلى مدينة درعا

عجز ابراهيم عن احصائه ، وعزم في النهاية على أن يبر اليه بعنه
على رأس قوة كبيرة ، فلا يمود أدرجه الا والشيخ دوران في قصته
طن دت يوم انه وصل الى بيته ، عندما أصدق جيشه بهصة وعرة
مسلحة ، قيل له ان عدوه معتمهم فيها . ولكن الجيش لم يجد في تلك
لهصة أحداً ، فان الشيخ دوران الادري كان قد أحلاها وانعد
برحاله عنها ، قبل أن يصل اليها ابراهيم باقل من ساعة

غير ان القائد المصري وجد في كهف صغير ، رعباً مرتكراً إلى
صحرة ، وفي سنامه ورقة كتبت عليها هذه الكلمات :
« لا تحاول للسجيل يا ابراهيم فلفض على الشيطان أهون عليك
من النفس على فوزان ! »

فاستشاط القائد المصري عيظاً . وانطلق من حديد في طلب
عربي . . .

وكانت مطاردة جيونية ، في الجبال والسهول ، والهضاب والصحاري

وبعد خمسة أيام لم يفز فيها ابراهيم بطائل ، جاءه أحد جواسيسه
بالخبر البقيس : « الشيخ فوزان الادريعي نفذ الى سيناء وقصد إلى دير
السيدة كاترينا القائم في وسط الحان . »

فصاح ابراهيم :

— الى الدير !

عندما أشرف القائد المصري على مكنى الرهبان ، أمر جنوده
بالدول عن حيولهم ، وأوفد الى الدير رسولا يطلب من رئيسه
الاسراع لمقابلة « الباشا »

ولم يصل الرسول الى الدير ، لانه التقى بالطريق الرئيس قادما الى
المسكر مع بعض الرهبان . فعاد معهم الى ابراهيم ، وكان قد جلس في
خيمته ينتظر رجوع الرسول

نهض ابراهيم وحج الى باب الخيمة لاستقبال القادمين . والابتسامه
على فمه ، ويادرم قائلا :

لست أصبر لكم تشرأبها الساك الارار . لكى أطلب اليكم
أن تحرخوا الرجل الذى فرغ اليكم ، ونظفوه في هذه الصحراء ، لآسى
حققت به لكى أثبت له ان القمص عليه أسهل من العيص على الشيطان ،
خلافا لما يقول

فأجابه الرئيس :

ان نغور ان الادريعي با مولاي الامادى البيضاء على هذا الدير .
فانه حليم الرهبان من قديم الزمان . وقد أحلص لنا أعوانه اود في
السماء والضراء . وبعد ما حادنا منذ يومين هاربا من وجهك ، القبا
اليه الجبال من فوق أسوارنا ، ورفعنا مع رحاله الى داخل ديرنا .
لان هذا الشيخ المسلم يحقد نفسه في أمن واطمئنان بين رهبان البشارى

سكت ابراهيم وحمل بيطر الى رئيس الدير ، وهو معتقد ان
الرهبان سيرفضون تسليم الضيف الى عدوه
واستطرد الرئيس قائلا :

— غير ان الشيخ فوران الادرعي ايها الامير ، كان يعتقد في
هذه المرة ان نعمه قد اول ، وانه واقع في قصتك بلا ريب ، وان
مادد النجاة قد سدت في وجهه
فقاطعه ابراهيم قائلا :

— نعم . لاني كنت عارضا على مطاردته الى الهامة ، والحق به الى
حيث يذهب

فقال رئيس الدير مبشرا :

— لم يكن فوران لادرعي حدثا منك ايها الامير ، لانه لم يعرف
الخوف في حياته ، ولان عماله مد بمومة أظفاره الى الآن حملنا
طنق عبه نهم و شيطان الصحراء ، واداك ذلك صديقا ان القبض
على الشيطان هون من المص عليه ، فصدقه يا مولاي !
— إذن . . . مادد فوران الادرعي ان نعمه قد اول وان

مادد النجاة قد سدت في وجهه ؟

فسمع رئيس الدير دمة ترققت بين جفنيه ، واجاب :

— لانه سقط عن سور الدير وهو يندلي الى الدخول ، وكسرت
ساقه ، واصبح عاجزا عن الحراك
فوجم ابراهيم وقت متأثرا :
— اذن ، لقد عفونا عنه !

— لكنه لم يعد في حاجة الى عفوك . فقد مات منذ ساعة ، عند ما
قلت عليها رحالك
— كيف ؟

- كان فوران الادرعى يحبس معه مما رعد ، بعده لئلا هذه
 الساعة . وقد تحرع السم عندما ترى له شبح العار من بعيد . فان
 ذلك العربى يا مولاي كان يؤثر الموت على الوقوح اسيراً
 سكت الرئيس هيبه . ثم نهض مستأدياً وم بالاصراف وقت :
 - انتم صيغوا اليوم أيها الأمير . فقد رحل رجال فوران الادرعى ،
 وتوغلوا في الصحراء تاركين لنا حثه رعيهم . وسحتفل بدفنها عدداً ،
 فوريها التراب في سمح هذا الحبل . على مفرة من المكان الذي يصم
 رفات « شيطان الدير »

نهض ابراهيم ومد يده لمصافحة الرهائن . ووعدهم انه سيورهم
 قبل غروب الشمس ، ويترك في اليوم التالي في الاحتفال بدفن لبيب
 وشيع رائبه الى خارج الحيمة . ولكنه ستوقف الرئيس وسن
 مستقبها :

- ومن يكون « شيطان الدير » الذي عرمنه على دفن « شيطان
 الصحراء » بجانب قبره ؟
 فاحاب الرهائن بصوت واحد :
 هو نيوبيلوس !

من هو نيوبيلوس ؟
 لدع ابراهيم باشا . أحد صباه من الراحة في حيمته . ولستطلق وراء
 الشيطان لاوب . بعد ان ترك الشيطان الذي حثه همدية سبها لرهائن
 بأيديهم ويكفنونها ويعدونها للفقر الاخير

جلس الامبراطور يوستينيوس الثانى على عرش بيزنطة في سنة ٥٦٥
 لجيلاد ، على اثر وفاة عمه يوستينيوس الشهير . روح الامبراطورة

تيودورة ، المرأة العائسة المبهمة ، التي دونت اسمها في بطون البارح
باحرف لن تمحى ، والتي نبغت في ميادين السياسة والحب والحرب
على حد سواء

وكانت الامباطورة « صوفيا » زوجة الامباطور يوستينوس
دات سلطان على روحها ، كما كانت من قبل الامباطورة تيودورة دات
سلطان على يوستينيانوس . كانت الاقدار أثبت الا أن تكون
الامباطورية الرومانية الشرقية في ذلك العهد ، حاصصة لارادة النساء
دون ارادة الرجال

كانت صوفيا من النساء اللواتي لا يطنن بران قلوبهن وأحسامهن
عبر الحب العقيم والعرام العاسد . فحدثت عن عشاق بين الاشراف
والصعاليك ، والكهول والشبان . وحملت نفسها مشاعاً بين
هواة الخودت العرامية وطلاب الحب الموسوع . فأعدت الى برنطة ،
من هذه الناحية ، عهد تيودورة ، ابنة مروم الوحوش التي رومها
جمالها الى سرير الملك

أحبت صوفيا من الرجال أشكالا وأنواعا ، وضافت في معدنها غاذخ
من جميع الاحاس والمذهب . فمر في ذلك الخندع ليوم واحد أو ليلة
وحيدة ، الروماني والبرطي والسوري والعينيقي والعربي
وامصري والبربري

ولم يقف في وجه الامر طورة التعطشة الى العرم . الناحية في كل
مكان عن الرجال الأشدهم الاقوياء ، غير رجل واحد ، أو بالحرى فق
واحد ، رحر المرأة ولم يؤثر فيه اغواؤها . وبلغ به الامر الى ضربها
«صاء صرنة مؤلمة على كتفها ، كتمت الامر طورة حرها ، لا خوف من
الشاب الذي لم يكن له حول ولا طول ، ان حوفاً من العار والمصيبة
ذلك المني هو تيوفيلوس الرومي ، الخليل الطلعة ، المقتول بالعديد ،
الساحر العينين

جاء به الامبراطور يوستينوس من قرية نائية ، حيث كان الشب
 يرعى لمشية ويروم الحبول ويصارع الثيران . وجعله جندياً ثم صابغاً
 في حرسه . غير أن الشاب طن مخمطاً بحمقه الزبقي ، وطعه الشرس ،
 وطل عائشاً بين الناس كما كان عائشاً من قل بين الحيوانات
 رأته لامر طوره وهي تطوف في نكبات احد ، في احدى ليالى
 الشتاء الباردة . وكان الشب غاري الذراعين والصدر والظهر ، يدعب
 فرساً جامحاً ويحاول احصاءه . والعرق يتصب من جبينه
 راق الامر طورة مطر ذلك المعنى القوي الشجاع ، الذي لا يؤثر فيه
 الرد ، والذي لا يحيا لانقائه الى الاصواف والعراء
 وحاولت امرأة ان ترمي الرجل وتستهويه . لكن تيوفيلوس
 لم يؤخذ بمحادثتها ، ولم يدع لسهام عييبها معداً الى صدره . خفت عليه
 الامبراطورة لعاشقة لعائيه ، وأصمرت له الشر وبيت له الانتقام

سائرت الاقدار يوستينوس في نادية الأمر ، وساعدته الظروف
 والاحوال ، فانتصر على أعدائه الكثيرين ، ورد لفاتل عن نجوم ممكته
 الشاسعة ، وناد الى شعله الظمأبيه . ولكن لمجهود العظيم سى بدله
 ذلك الامبراطور في صباه ملكه ونظيم شؤونه ، أدى به الى حطرم
 يكن في الحسبان

قدم لامبراطور في سنة ٥٧٣ على اعمال تتم عن اضطراب عقلي
 ظاهر . فهدت الامر طورة صوفيا الى اشهر اطباء المملكة في حصه .
 واتضح لهم ان يوستينوس مشرف على الجنون

وفي سنة ٥٧٤ تمت لدى الامر طورة ولدي الاطباء وعظماء
 المملكة ، أن لمسكين مصاب بالجنون ، وأنه لابد من احتبار أشخاص
 يتولون الحكم بجانبه

وفي انظار ذلك ، حملت الامباطورة مصدر الاوامر إلى أنسابها ،
باسم روحها ، بعد موافقة لامباطور المعتوه عليها . وكان أول أمر
صدرته صوفيا ، موقفاً عليه باسمها ، مجهوراً بمخيم الامباطور .
يوسقيوس ، أمراً بي تيوفيلوس ، الصابط في الحرس ، إلى دير حد
سباء ، بحجة أن الرجل مسكون وأن شيطاناً رجياً قد أخذ من جسمه
مفرأ له .

تهمة باطلة كانت عقلية القوم في ذلك الوقت تميل إلى تصديقها .
وقد ساعدت طماع الرجل النرسة على اثبات التهمة واصدار
الامر بالقبض

وأرسل يوفيلوس الرومي ، الذي احتقر الامباطورة ورحمها
ورفض ما عرضته عليه من عرام تيم ، إلى دير سباء للاقامة فيه بين
الرهان والسك ، إلى أن يطرد الشيطان منه وتعادره الروح
الشريرة .

عشاً حاول الرجل أن يدفع عن نفسه ، وأن يثبت أن ليس للشيطان
علاقة به . وأخيراً تارثأه ، فأهوى مصاهمة أخرى على الامباطورة
صوفيا ، أمام وزير الامباطورة « تيبروس » ، فأخذ عمله هذا رهاناً
جديداً على حلول الشيطان فيه

ولكن تيوفيلوس لم يثبت أن أصيب بالجنون . على أثر وصوله
إلى دير وحسه فيه ، فخرج ذات يوم من الحجرة إلى مكان مسجونا
فيها ، بعد أن كسر قيوده وتخلص منها ، وصعد إلى أعلى الأسوار والقي
نفسه إلى الخارج فقط على الأرض حثة مهشمة هامة

ولم يدون تيوفيلوس أو « الشيطان » كما كان يسميه سكان الدير
في مقبره التي يروى فيها الرهان والسك رقادم الأخير . بل نقلت حشته
إلى سطح الجبل ، ودوت في حفرة بين الصخور ، حيث تبقى السور

وكناهم ، ولم يقل أحد من الرهائن بنو عيسى قريش لـ شيطان ،
صلاه الاموات ، لان الله لا يقبل نفس من انعمه اليه مقرر له
و هو حفر بين الصحور ، في الناحية الشرقية ، لعثرت على عظم
لشيطان تيوفيلوس ، الذي راح صبية الظم والاستداد ، ولدى يعتقد
الباس ان روحه قد ولت الى الحبيب مقر الشبطين ، بينما هم يعتقدون
ان روح الامراطورة صوفيا الفاحرة ، تقبى في حنة الخلد بين الملائكة
والارار والقديسين !

بحوار ذلك المكان ، الذي كان الرهائن يعتقدون ان عظم
تيوفيلوس مدفونة فيه ، حفر الجماعه حفرة وأعدوها لدفن حنة صديقهم
وحليفهم فوزان الادري
وفي اليوم التالي ، شهدت تلك الصحور السماء والحجارة الركابيه
والرمال السوداء منظرآ لم تألفه من قبل
فقد حمل الرهائن المسيحيون على ان كانواهم نفس ذلك الشيخ العربي
المسلم ، ومنوا به الى مقره الاحير ، بين صفين من الحدود المصريين
و مر بهم حدوده بأن يحبوا الميت النحية الاحيرة ، ويرافقوه
صلاتهم . فارتفعت اصوات الحدود بالتكبير ، على ، عام اليوقيس التي
كانت تنقرها ايدي الرهائن !
ورقد شيطان الصحراء بحوار شيطان الدير !



سيف الأمير

كان ذلك اليوم يوم فرح وحوار في الاسرة الروسية العريقة في
الحب والنسب ، فقيم مهرجان عظيم احتفالاً برفاق الاميرة الشبانة ،
اميرة رب البيت الوحيدة ، وهي من أربع فتيات روسيات حملاً ، وأفتكهن
لحظاً

وكان العريس ضابطاً في الجيش الماسوي ، حاض عمر حروب
كثيرة ، وسافر الى روسيا حيث التقى بالفتاة الغائبة في حفلة ساهرة ،
فطلق بها وهامت به ، ولم يتردد والدها في أن يرفضها إلى ذلك الحادي
الباسل

وبعد حفلة ارفاق ، تقدم الأمير الروسي من صهره ويده سيف
بديع الصنع مرهف النصل ، وفن :

- ليس عدي يا بني هديه تليق بك أكثر من هذا التار ، الذي
حرج من مصارع روسيا في الجيل الخامس عشر ، ونقشت عليه من
الجهة الواحدة صورة المدراء مريم عليها السلام ، ومن الجهة الأخرى
صورة الصليب المقدس وبعض الصناعات ، التي إذا ما تلاها حامل السيف
قل حوصه المعركة ، كتب له النصر وفار على عدوه فوراً ميبك . خذ
يا صديقي وتقلده ، وليحفظك الله ويدفع عنك شر لاسان وعاديات
الزمان !

وأحد الصابط « ورمرر » السيف التاريخي من يد الأمير ، ووضع
على صورة العذراء قلة ورع واحترام ، ثم على حين زوخته قلة حب
وهيام ، وتقلد السيف وسط ذراعه مقبها وقال :

— لن أحون وصنك انتاه !.. ستسمع عن فعالي وهذا السيف الى
حبي ، مايسرك ويطربك. أما اد قلب لي الدهر طهر المحن واصطمرت
الى سبيعه ، فاني لن أسمه إلا الى بطل رفع مي شأنا واكثر خطوة
لدى إله الحرب والسلام !

سنة ١٧٩٧

سنة دموية مروعة ، نفع فيها مدوك أوروبا وطعانها في أبواب الحرب ،
وحدوا حوافهم الحرارة ، وسيروها إلى ميادين القتال ، لاطفاء
يران الثورة الفرنسية الدأحة ، ودره الخطر الدم المسث من
ذلك التكانت الباريسي ، حيث قام أساء الشعب ورفعوا عقيرتهم
صائحين :

— إن لشعب حقوقا هصمتوها يا أرباب التيجان ، وعيكم
نحو رعاياكم واجبات تقاعستم عن ادائها ، فالشعب الآن ينتم لعه
ويهمس من سانه ، طالبا أن ترد اليه تلك الحقوق ، سامعا اليها عند
الحسام وروس الحراب !

وتدفقت جيوش الثورة على الدول الاوربية ، تفتح المدن وتحرر
الامصار ، وتصدت لها جيوش أوروبا بأسرها ، ترد عرواتها وتدفع
خطرها

واحار القائد نوبارت حبال الالب . وانحدر بحبشه على ربوع
ابطاليا . فسحق الحوافل المساوية سحقا ، ووصل الى أبواب مدينته
« ماسو » الحصينة فأحاطها برحاله ، وصيق على حاميتها الحناق فاضطر
قائدها الى التسليم

ولم يكن ذلك القائد الذي حابه القدر غير الصايط ورمزر ، روح
الروسية الحسام وحامل السيف المحيد التاريخي . وقد عهد اليه
ميكه بعد أن أعم عليه بلفظ « قائد » بالدفاع عن ماتو وصد غارة
الفرسين عن حصونها

أرسل ورمزر سيفه الى يونابرت مع هذه الكلمات :
— أقمت ألا أسلم هذا الحسام الا الى بطل أرفع مني شأنًا
وأكثر حظوة لدى إله الحرب والسلام . وها قد وجدت ذلك البطل .
فجدد السيف وادخل المدينة طائرًا منصورًا

سنة ١٧٩٩

سنة أخرى دموية مروعة . انتقلت فيها الحرب من العرب الى
الشرق ، فزل الجيش الفرنسي الى السواحل المصرية ، ورحل على
فلاضيق وسورة لانشاء مملكه عربيه واسعه ، كيون يونابرت الشاب
رأسها وسلطانًا عليها

لندن اخلترت كانت لقائد الشاب بالمرصاد . فأرسلت اساطيلها الى
عكا . وصاغت حاكمها احمد الحرار . ووصعت قواها تحت تصرفه
للدفاع عن مدينته

وكان ما كان من حصار وكر وفر ومراسم تفنن يوحدهت الجيش
الفاتح فتكا ذريعًا . فها يونابرت الامر ونحث عن حليف يساعده
على العدو العميد ، وقرر أن يطلب المعده من الاسد الانساني بشير
الشهاى الكبر ، الراس في عريه ، هالك في « بيت الدين »
أرسل القائد الشاب الى الامير كتنانًا يطلب فيه المدد بالرحا
والمؤونة ، وأرسل مع الكتاب سيفًا وقال :

هو السيف الذى سمعته إلى قائد حامي ماتو والمساوية عربون

حصونه . فحذره يا امر الحبل هدية منى ودليل اخلاص ومودة .
 واسرع إلى برحالك للاستيلاء على عكا . ولما راه بك ممكاً على لبنان
 فأخذ الامر السيف وأرسل يقول للفرنسي :
 - سأسرع إليك رحالي ، ولكن بعد استيلائك على عكا !
 فكان أمير البحر شد دهاء من الفائدة العتي . وعاد الجيش الفرنسي
 أدراجه إلى مصر ، وداق بونابرت جيبك للمرة الأولى طعم لاهرام
 المر . . .

مصت على ذلك الحدث ثلاثون سنة . فرأت ربوع فلسطين حيثما
 آخر يتدفق سلبها من الحبوب ، فلا يحول دونه جيش الا ويعرقه قريقاً .
 ذلك أن عربي مصر ووالها محمد علي الكبر ر د أن يمثل الدور الذي
 مثل فيه بونابرت فأرسل ابنه ابراهيم على رأس حدوده ، وأمره ألا
 يعود إليه إلا حاملاً معاً - - -
 وبعد الاستيلاء على غزة والمعدل في حال فلسطين ووهادها ،
 بعث ابراهيم إلى صديقه بشير يقول :
 - كن على استعداد لسيفد الحطة إلى وصفها في مصر ، عندما
 حدثنا رائراً ورتت علينا صيفاً

وكان الامر عند حسن الظن به . ومشى مع رحاله ، وقد تفقد
 السيف المهود ، على عاصمة الامويين حيث كان القائد التركي بعد العدة
 للدفاع . وكانت موقعة « المرة » الشهيرة . وفي صباح اليوم التالي دخل
 الخيفان ابراهيم وبشير عاصمة سورية فنجين
 وادي بشير ولده خليلاً وقال :

لقد حصت عمار المركة والى حبي هد التار الذي أرسله إلى
 بونابرت . فحذره يا منى وسر على رأس حيثك مع حليف أليك . فهو

بليق ما كف الإبطال ولم يحمله قبل اليوم عبر الأبطال
وشهد خليل معارك سورية والآنصول مسلطاً سيفه على رموس
الاعداء . ولم يخرج من واقعة الأ والصبر حليقه وسيفه غصب بالدماء

وحارب الأمير خليل ابن الأمير شير الثائرين من أبناء البلاد بعد
أن حارب الأراك ، والسيف المشهور إلى حسه ، والصبر معقود الألوية
له ولرحاله

واستراح السيف من عمده فترة من الزمن
ثم انطلق من جديد يلعب في الفضاء ا

سنة ١٨٣٧

في أواخر شهر نوفمبر (تشرين الثاني) من تلك السنة قدم الدورور
شورتهم المائلة ، التي رعرعت مركز ابراهيم باشا في سورية ، وحملت
موقعه منذ ذلك الوقت محموقاً بالخطر . وقد الحش المصري بقيام
الدورور عليه ، معونة أشد لكان مراساً وأرسلهم قدما في الحرب ،
وقتل من رجال ابراهيم عشرة آلاف بطل
طل الدورور يحاربون المصريين ويمتكون بهم من شهر نوفمبر سنة
١٨٣٧ إلى شهر أغسطس (آب) سنة ١٨٣٨ وكانوا يخوضون
المعارك وهم يهشدون اشددم ويرددون اهاربهم الحربية :

حنا بني معروف نحمل الجارولو جار

نهوى للزند فتيلك مائنداريه

وسيقوا الحذب تيري كل زنار

وسلاحنا لو صدى بالدم نجليه

اراد ابراهيم باشا ان يحد أولئك الدورور الذين لم يخضعوا قط ، لا

برعنائهم ومشايخهم . فكانت النتيجة أن هوى في وجهه دفعة واحدة ،
وفكوا بالجملة الأولى التي رحمت عليهم بقيادة علي أغا البصلي
وسار اليهم محمد بشا على رأس قوة أخرى ففكواها أيضاً
وقتلوا قائدها

ولم تكن الحملة الثالثة التي كان يقودها أحمد ميسكي باشا وبصحبه
شريف باشا ، أو فرحطاً من سابقتها . فقد انهزمت وقتل من رجالها
عدد كبير ، وبلغت أضرار هذه الانتصارات درور وادي النجم ولسان
فهبوا لنجدة اخوانهم

وكان الأمير خليل قد أوفد ابنه الأمير محموداً لمساعدة المصريين ،
وحاصره الدرور في حاصبيا وأمرع الأمير خليل إلى محدته ويده
السيف للعبود

ونتمكن الأمر من انقاد رجاله . واشتد الدرور الثائرون عن
لبن بقيادة شلي العربيين رعيم تلك الثورة ، واضموا إلى اخوانهم في
حوران واللحاه وحبل الدرور

ورؤى اراهيم ان لاسدين إلى احصاء الثائرين إلا بالقيام اليهم على
رأس جيش لحب . فطلب نجدة من أبيه ، وفي شهر ريل (بيان)
سنة ١٨٣٨ ، كان اراهيم قد حشد في حوران عشرين ألف مقاتل ،
قسمهم إلى أربع فرق تولى قيادته إحداهم . ووضع على رأس الفرق
الثلاث الأخرى شريف باشا وسليمان باشا الفرنساوي ومصطفى كامل
باشا

ووقعت بين الفريقين معارك قتل اراهيم بها فاقت هولاء ما سبقها
من معارك بين جيشه والترك ، وطل الدرور يحاربون أربعة شهور
أخرى ، تارة في اللحاه وتارة في وادي النجم ، إلى أن تم الاتفاق بينهم
وبين اراهيم على التسليم والاحلال إلى السكينة ، مقابل أعفائهم

من التحيد والضرائب والسخرة والسباح لهم بحمل السلاح
وكان ذلك في ٢٢ اوجسطس (آب) سنة ١٨٣٨

لعب آل الاطرش في تلك الثورة التي قام بها الدورور في حوران
واللحاج دوراً عظيماً . وم الذين آلت اليهم فيها بعد الزعامة على حمل
الدروز ، في ظروف تلخصها فيما يلي :

كان حمل الدورور في قبضة الامراء الحمدانيين ، فتوسعوا في الحكم
وبسطوا سلطانهم على السهول المحاذرة وعلى القبايل الصاربة على حدود
الجل . ولكمهم كانوا طاعة طامعين مستعدين . فدب الكره شيئاً فشيئاً
في نفوس أتباعهم . وأخذ الزعماء الآخرون يتحينون الفرص للانقضاض
عليهم وانتزاع السلطة من أيديهم

وكان آل الاطرش في مقدمة أولئك الزعماء وعلى رأسهم الشيخ
اسماعيل . فجمع الرجل اعضاء أسرته وطلب اليهم أن يكونوا على أهبة
الاستعداد لاغتنام الفرصة الساعية ، والاستفادة من الطوارئ .

وشاء القدر في ذلك الوقت أن يمر في مدينة عري ، عاصمة الحمدانيين
بائع مواسى جاء الجل لتصريف بضاعته

لكن المسكين أساء الاختيار ، لانه دخل بلاداً لا يخلق أهلها لحام .
بل يعتبرون خلق اللحي عاراً شنيعاً ، وكان الدورور في ذلك الوقت يقسم
بلحيته كما يقسم بشرفه أو بالعزة الالهية

وصل البائع الى عري وطلب المثل بين يدي امير الجل . فاذن له
الحمداني ودخل . ولم علم بأمره وبالاسباب التي حملته على طلب المثل
بين يديه ضحك وانتفت الى قائلاً :

يحمل إلى يا هذا أنك عريب عن هذه الديار . فاعلم أنه لا يوجد
عندنا من يخلق لحيته لكي تشتري منك اللواسى . ولكك سوف

تعد في « القرية » من يتناع مواسيك كلها ، فاذهب الى الشيخ اسماعيل
الاطرش واعرض عليه بضاعتك ا
قال الحمداني هذا تهكما محصومه الطرشان . ولم يظن مانع المواسي
الى تلك الحيلة ، فاكب على يد الرعيم يقبلها ، شاكرًا له نصيحته ،
مؤكدًا أنه سبسرع الى « القرية » مقام اسماعيل الاطرش وأسرته
ويعرض عليهم مواسيه للبيع ا

زل الرجل ضيقًا على شيخ القرية ، عملاً بالقاليد المرعية هناك ،
وفانحه في أمره راجيًا منه أن يتناع ما يشاء من المواسي وأن يساعدته
على تصريف الباقي بين أفراد أسرته
فاتعش الشيخ اسماعيل وسأل البائع :
— من أوفدك إلى يا رجل ؟
فأجاب السكين :

— عرست بضاعتى على الحمدانيين فأعرضوا عنها ، وقالوا لى إسي
لن أحد في الحبل كله من يخلق لحيته إلا أنت وأهل بيتك
فتارتازر الشيخ للالهانة التي لحقت به ، ودرك أن الحمداني قد
انحد ذلك البائع الحاهن آلة بيده ووسطة لتحقيره وإدلاله . فسادى
رحال بيته ، ولما أحاطوا به تناول المواسي من حفية الرجل وصاح
بقومه :

— ليأخذ كل منكم موسى ا
فوقع الجميع في ارتباك وحيرة ، وسألوا رعيمهم :
— ما معنى هذا ؟
فأجاب اسماعيل والشرر بتطايير من عيبيه :
— إنها هدية من الحمداني ! ذهب اليه هذا البائع الغريب وعرض

عليه مواسيه ، فأرسله إلينا قائلاً : إن عشيرة الطرشان هي الوحيدة في

جبل الدروز التي يخلق رجالها لحاماً

فصدرت من الصدور صرخة واحدة :

— إنها لاهانة !

— وأية اهانة ! لا يضلها إلا الله !

ولم في قبضة كل منهم حزام مسلول

فقال الشيخ اسماعيل وهو يكاد يخنق غيظاً :

— إلى أين ؟

فكان الجواب واحداً :

— إلى عرى !

جمع آل الاطرش جموعهم ، وانضم اليهم الاصدقاء والاصار .
فهاجموا الحمدانيين في عاصمتهم وعقر دارهم ، ووقعت بين العرقين
معركة هائلة لا يزال الرواة يتحدثون بها . قتل النصر للشيخ اسماعيل
وأبناء أسرته ، وانزعوا من الحمدانيين الزعامة وبادوا شيخهم وكرم
زعيمها على جبل الدروز

والمصل في ذلك كما رأيت عائد إلى نافع الواسي ، الذي لولاه لما
تأحنت بيران الغضب في قلوب الطرشان ، ولما هبوا كرحل واحد
للاتقام من عدوم وعمو العار الذي لحق بهم

أخذ الدروز إذن إلى السكبة . وأعادوا السبوف إلى أعمادها .
وعاد الصفاء إلى ما كان عليه بينهم وبين المصريين من ناحية ، وبينهم
وبين الموارنة أنصار الأمير بشير الشهابي من ناحية أخرى

وعاد سيف الأمير خليل الى غمده أيضاً
ولكن الى حين !

سنة ١٩١٣

كان الناس يتوافدون لزيارة سيدة حليلة في مدينته ، حوبيه ،
السميرة ، الواقعة على سفح جبل كسروان من حبال لبنان ، مطهرين
احترامهم لتلك السيدة ، وهي عصن ناي من الدوحة الشهية العطيفة
« الست ملكة » هو الاسم الذي تعرف به زملة الأمير فايز
الشهابي ، ابن الأمير سعد ، حميد سيد لبنان بشير الشهابي الكبير
وكان السيف الانزي المجيد في حوزة « الست ملكة »
ولكن للايام علواً وهبوطاً وعراً وشقاء ، كما أن للحبوش في
ميايدين القتال كراً وفرماً ونصراً وانهمازماً

كان الأمير بشير عياً ، وكان أحفاده لا يعلكون شيئاً
دارت الايام دورتها ، وصبح أسياد الامس أفراداً من أبناء الشعب ،
على ان الكثيرين من أبناء الشعب كانوا أوفر مالا من أسياد الامس
لكن حصاد الأمير العظيم كانوا أغنياء بتاريخهم المجيد ، وبالأناثار
الى احتفظوا بها عن آباءهم وأجدادهم

في شهر يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٢٧ ، نشرت الصحف في
مصر الخبر الآتي :

« تنكر الصحف من الكتابة عن سيف الأمير بشير الشهابي
الكبير حتى كانت حكاية هذا السيف حديث المحالين في بيروت
« فاه بعد ما قرر مجلس الوزراء اللبناني شراء هذا السيف من

وارثته الشرعية امري لثرائه وارث آخر هو الامير كامل عامر شهاب
من أحفاد الامير الكبير .

فماذا حدث ؟

حدث أن السيدة الحليّة ، صاحبة السيف الاثري ، اضطرت الى
التخلي عنه

ذلك لأنها كانت في حاجة الى المال . . .

بالقسوة القدر . . . حميدة شير تضررت الى بيع سيف بشير بعد
أن كان بشير قاصداً على ثروة لسان من أدماه الى أقصاه .
وتدخلت الحكومة في الامر وباله من تدخل شنيع معب . . .
أرادوا أن يشتروا سيف الامير من حفيده الامير ، حددوا له ثمان مائة
دعاً . . .

خسبون دعاً لسيف يعود تاريخه الى الحيل الخامس عشر ، شهد
الاماركة في حال الكرمات والالب ، وفي سهول ايطاليا ، وفي ربوع
مصر ، وفي وهاد فلسطين ، وفي لبنان وسورية والباسول ، وتقلمه
قواد وأمرأ يعترهم التاريخ ويمجد العالم أسماءهم

لكن أميراً شاباً ، من الاسرة الشهابية ، هب لدفع هذا العار عن
السيف الاثري ، بل عن حكومة بلاده ، فقدم ملعاً من المال يعوق ما
دفعته تلك الحكومة ، لحال دون المقايضة على هدية بوبارت مقايضة
التحار على السلم

هدا ما فعله في سنة ١٩٢٧ الامير الشاب كامل عامر الشهابي ، الذي
استحق شكر وطنه وأبناء عشيرته ، فاحتفظ به بسيف الصورة -
كما يسمون ذلك الاثر العفيس - وظل سيف الامير لاسرة الامير



الساحرة

كانت العظماء والصمايك على السواء يستشيرون تلك الساحرة
ويعتقدون في صحة تذرؤاتها

فقد استشارها نابوليون بونابرت فكانت معه صادقة
واستشارها ابراهيم باشا فكانت معه صادقة
واستشارها آخرون فكانت مع الجميع صادقة
ما اسمها ؟

لم نسح به لاحد . وكان الناس يعرفونها باسم « الساحرة » فقط
هل هي مصرية أم عربية أم تركية أم شركسية ؟

— أيها الجيود ! من أعلى هذه الالهram أرسون قرناً تطير اليكم !
بهذه الكلمات خاطب بونابرت حوده ، وقد امتدت صفوفهم
المتراصة في السهل وتاهت لصد هجمات « مراد بك » وفرسانه .
وكانت موقعة انتهت بانهرام المليك وعرفت تلك المحررة الدموية في
التاريخ باسم « معركة الالهram » أو « معركة اسنه »
وفي اليوم التالي توجه بونابرت إلى المصارب التي تحولت إلى
مستشفيات ، يتفقد الجرحى والمشوهين ، ويعري أولئك الجيود
المساكين ، الذين تقوى سواعدهم يفتح العزاة الافطار والامصار ،
وبدماهم تشرى الصوالة والتهجان

طاف القائد في ذلك للكان يسأل كلاً من أولئك الحرحى عن اسمه
وحالته ، حتى وقف أمام من لم يتجاوز بعد العشرين ربيعاً ، وقد أصيب
في وجهه بصربة سيف قطعت أذنه اليسرى وفلذة من فككه الأسفل :
— من هذا ؟

.. شاب مصري طلب أن يقاتل المليك في صفوفنا فأجسأ الى
طله ، وقد أصيب بهذا الحرح وهو يعد أحد رجالنا
... حساً . ابدلوا في سبيل انقاده جهودكم ، واثقوني به بعد شعاعه
ومدحمة أساييع مثل القى المصرى بين يدي قائد الفرنسيين
فسأله بومارت بواسطة أحد التراحة :
ما اسمك وما هو الداعى الذى حملك على مقاتلة المليك في
صفوفنا ؟

اسمي حسن ، وقد قاتلت في صفوفكم طلباً للانتقام

.. من ؟

من مراد بك

.. ولدا ؟

— لانه قتل أبى

ولأى سبب قله ؟

— لن أروح بهذا السر لأحد بامولاي ، بل سأدفعه في صدري ،
فيذهب معى الى القبر . لقد حاربت مع حدودك حباً الى حن ، وسأظل
واحداً من رجالك والحق بك الى ملاك . فان الساحرة تنأت لى بأنى
سأموت بعيداً عن وطني
.. أية ساحرة ؟

— لا يوجد عدداً سواها ، وهى تقيم في عارها هالك على مقربة

من الحرم الاكبر

وكان بونارت يعتقد كثيراً بالخرافات والسحر ويقصد الى العرافين
يستطلعهم الغيب . فما سمع كلام حسن المصري حتى أحدثته الرغبة
في أن يستطرق تلك الساحرة . فطلب من بعض قواده أن يرافقه ،
وسار في مقدمتهم الشاب حسن إلى مسكن المرأة

دخلوا ، وإذا بهم في حجرة صغيرة ، لا يبعد فيها الا الباب الصيق
كأنها نحتت في صخرة صماء لتقيم فيها الساحرة مع الارواح والابالة ،
بعيدة عن موطن البشر في معزل عن العالم وخصوصاته

كان القائد يظن أن محوراً شمطاء ستفاله في داخل ذلك الحجر .
ولكن حاب ظنه ، إذ أن المرأة التي انتصبت أمامه كانت في مقتبل
العمر ، جميلة الطلعة ، ترندي ثوباً فاخراً ، ويدها عصا كالصولجان .
فاقتربت منه وحيته مبسمة وقالت :

— أهلاً بالقائد الأكبر

ثم التفت الى الآخرين وحينهم أبصراً ، ومدت يدها الى حسن
مصافحته ، والفت نظرها على ما كان يحيط بها من تماثيل وحجارة
وصدى ، ثم حدثت في بونارت ، ووقفت واجهة لا تندي حراكا
وكان في وسط الحجرة موقد أشعلت النار فيه ثلاث السكبان
وهجاً ، وزادت الحرارة شدة والصدر انقباضاً ، وحجم السكون النام
على الجميع . لكن صوت حسن ارتفع خافتة :

— تعلين لماذا حالك القائد مع حاشيته ، إذ لا يزورك أحدها
إلا مدفوعاً برغبة واحدة . تمنى إذن المستقل . . .

حدثت الساحرة أمام كومة من الصدف ، ثم نهضت وقد تناولت منه
ملء قبضتها ، وتمتمت كلمات لم يفهمها أحد ، وبحركة رشيقة ألقت
الصدف من يدها على قدمي بونارت ، وأسرعت الى مرجل مملوء بالماء
فطارت فيه طويلاً ، ورفعت رأسها ببطء وفاحت بهذه الكلمات :

— أرى عرشاً كبيراً بجانب قبر كبير !

كان لبوّة الساحرة في نفس بوناپرت وقع شديد

— أرى عرشاً كبيراً بجانب قبر كبير !

ردد الفانح هذه الكلمات ، ثم ردها وردها أيضاً ، وكان يكثر
من الطواف في ضواحي القاهرة ، يقضي ساعات طويلة متفلاً بين
مدفن الملوك والماليك ، ناظراً الى نجمة يسطع في الغضاء سائلاً نفسه :
— أيتحقق الحلم يا ترى ، وأعيد في هذا الشرق تشييد مملكة
الاسكندر . فاحس على عرشها ، وأدونها ، في هذه القرافة ، فوق
هذا التل المشرف على القاهرة ؟

ثم يشك في صحة تفسيره أقوال العرافة الجميلة ، فيتقطب حبيبه
ويعود الى سؤال نفسه :

— ماذا نص هذه المرأة ؟ يسم لي النصر اليوم ثم يعس في وحيي
عدي ، فاشيد مملكة لا أعم بالعيش فيها ولا أتركها لاسأني من بعدى ؟

عاد الفرنسيون من مصر الى أوطانهم ، وكان بوناپرت يسعى الى
العرش الفرنسي بعد ما أفنت معه عروش الشرق . قتم له ما أراد ، ودوخ
الممالك وأسقط التيجان ودك العروش

وكان حسن ، الشاب المصري ، قد تبعه الى فرنسا حيث طل في
خدمته واشترك في جميع الحروب والعروات والفتوحات

سنة ١٨١٥

حان إله الحرب أعظم قائد عرفه التاريخ . فسقط نابوليون الاول

عن عرشه وتشت أنصاره والمقربون اليه في طول البلاد وعرضها

سنة ١٨٢١

صعدت روح الرجل العظيم الى خالفها . لتؤدي الحساب عما أتاه
ذلك الرجل من حسنات وسيئات . . .

سنة ١٨٤٠

أصبح حسن المصري شيخاً حاور الشيخ ، وكان يعمل في حانه
بباريس ، يخدم الرائس ويعيهم أناشيد بلاده العربية
وفي تلك السنة عاد الى ذلك الحدى القديم شئ من الفرح
والطرب ، عندما تألفت حماهير الفرنسيين لاستقبال حنة الامراطور ،
وقد جاءوا بها من حرية القديسة هيلانة ، ذلك المعنى العيد الثائى .
عملاً بإرادة نابليون وتنفيذاً لرغبته الاخيرة

وقد مات حسن بعدما طعن في السن ، وتيسر له الوقوف أمام ذلك
المعبد . ولعله كان يدكر جيداً كلمات الساحرة :

— أرى عرشاً كبيراً بجانب قبر كبير —

عندما عاد ابراهيم باشا الى مصر ، في سنة ١٨٣٥ ، حطرت له أن
يرور الساحرة في عارها ، حيث زارها من قبل نابليون بونابرت ،
وأن يستطلعها الغيب كما فعل القائد الفرنسى

وأعادت الساحرة تمثيل المنظر الذى مثلته من قبل

حدثت أمام كومة من الصدف ، ثم بهتت وقد تناولت منه ملء
قبضتها ، وتمتت كلمات لم يفهمها أحد ، وبمركبة رشيقة ، ألقت الصدف
من يدها على قديم ابراهيم ، وأسرعت الى مرسل مملوء بالماء ، فطرت

فيه طويلا ورصت رأسها مطه وهاهت هذه الكلمات :
أرى جيشا يطلو بسرعة الى الامم ، ثم يتقهقر بسرعة الى
الوراء !

حذق فيها ابراهيم البصر مبسما ، وهز كتفه وقال :
— انعمدين أسي حثك لاستطلاع العيب ؟ إن نعمي يا امرأة يسطع
في القساء فيمرق نوره الحجب ، وينشئ عا كتب لي في صفحة القدر !
فاقتربت المرأة منه وقالت وهي تنظر اليه وحده لوحه :
— كان يودي أيها القائد أن تكون الساحرة كاذبة وأن يكون
بحمك صادقا !

— وهذا ما سوف يكون !
— لننظر ما يجبه لك الغد . فان الغد لناظره قريب !
— لقد استظلمت بوبارت العيب فهل صدقت معه نبوءتك ؟
— لا بد أن يكون قد صدقت معه ، ولا بد أن تصدق معك
— في أي عقد من السنين أنت ؟
— ليس للساحرات أعمار !
— في أي بلاد رأيت النور ؟
— في بلاد الجن وليس فيها مطامع ولا حروب !
— سوف أعود لزيارتك بعد أن يتم لي النصر
— لن نجدني في هذا المكان يا ابراهيم !

عاد ابراهيم الى سورية حيث كان الثائرون قد استأنعوا هجومهم .
فكان ما كان مما ذكرناه ، ثم هدأت الحالة في داخل البلاد ، ولكن
عقبات سياسية جديدة قامت في وجه الفرقة العثمانية ، وأثمرت الدسائس
الأوربية معاد السلطان الى التحكك بابراهيم ، وفي شهر يونيه (حزيران)

سنة ١٨٣٩ ، رحب ابراهيم الى الامام لملاقاة جيش حافظ باشا
والتقى الجيشان في در ، في الرابع والعشرين من يولييه ،
وطحن المصريون أعداء طحاً في تلك المعركة ، وفتحت طريق البواغير
من حديد أمام ابراهيم

ومات السلطان محمود الثاني في أول يولييه (تموز) سنة ١٨٣٩ ،
قبل أن يبلغه خبر انهزام جيشه في تريب

سنة ١٨٤٠

أشد السنوات شؤماً على ابراهيم .

ففي تلك السنة انتقم عبه الاصدقاء الذين ظالموا عول عليهم في
حروبه ، والذين لم يحسن السياسة منهم فقلوا له طهر الحق ، وثاروا
في وجهه مع من ثار من أبناء البلاد الآخرين

أولئك الاصدقاء هم سكان حال لبنان ، الذين أرهقهم ابراهيم
بالصرائب وأصر على رفع سلاحهم وإقامة نظام للحكم في حالهم لم يألفوه
من قبل . فتمردوا وثاروا على المصريين وعلى أميرهم بشير الشهابي ،
الذي ظل الى النهاية محاصراً لحليته ، فأفقدته ذلك الاخلاص الامارة
والحرية ، فمات متفياً بعيداً عن وطنه

بدأت الثورة اللبنانية في شهر مايو (أيار) ١٨٤٠

وكان يقود اللبنانيين في تلك الثورة بعض لامراء الشهابيين
حشوم الأمير بشير ، وبعض أمراء آل أبي اللع ، والمشايخ آل الخارث
وحيش وأل حداد ، والأمير حنجر الحرفوش وأبو ممر عانم وأحمد
داغر وغيرهم من أبطال الحروب

ودارت رحى القتال بين "ثائرين وحود ابراهيم باشا . وكان
النصر يحالف هؤلاء حياً وأولئك أحياء . وما انتهت تلك السنة

الشؤومة ، حتى كانت الدول الاوربية قد اعتسعت العرمه وتندحات في
الامر ، وشدت أرر الدولة العثمانية ، ففي الجيش المصري محاسن فادحة ،
واضطر الى التقهقر والانسحاب شيئا فشيئا من البلاد . وكان اسرعه
سريعا كما كان زحفه من قبل سريعا
وصدقت الساحرة !

كانت سنة ١٨٤٠ اذن حاتمة عهد المصريين في سورية ولبنان .
فعاد ابراهيم الى مصر ، وانصرف مع ابيه الى ادارة الشؤون الداخلية
بعد أن منى بالفشل في حروبه وغزواته . وسأل عن الساحرة التي لم يس
سوءتها ، ف قيل له إنها رحلت دون أن يعلم أحد بمقرها
فتذكر ابراهيم ما قالته له في سنة ١٨٣٥ :
— أرى جيشا يسطق بسرعة الى الامام ، ثم يتقهقر بسرعة الى
الوراء !

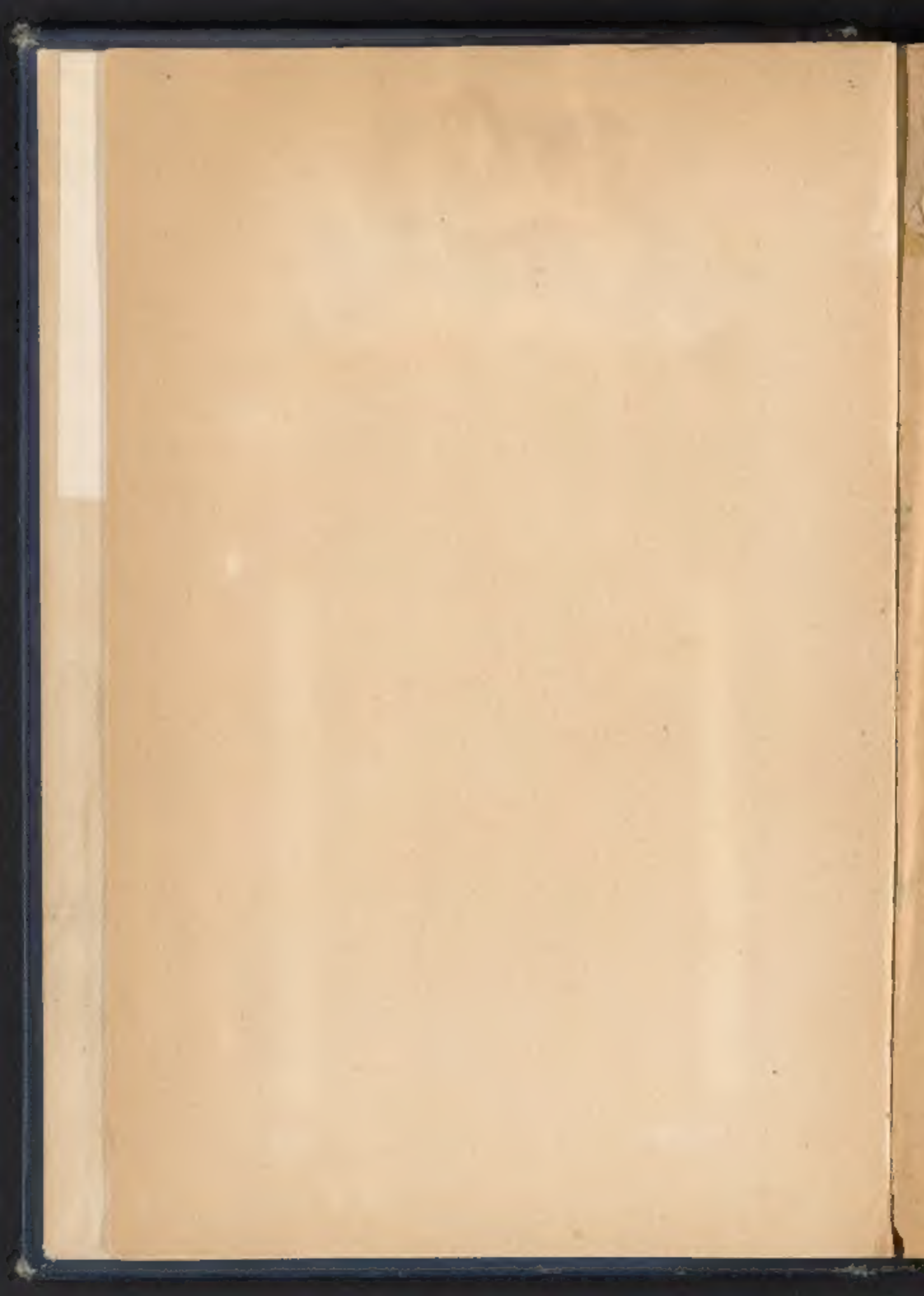
عكاه . . . الزراعة . . . قونية !
ثم زب !
ثم ثورات ، فتورات ، فتورات !
لذة الانتصار — تعيقها بسرعة مرارة الانكسار !
ثم العودة الى مصر بعد ثمانية اعوام
صدق الساحرة !

« تم الكتاب »

فهرس

صفحة	صفحة
١٢١ الشيخ والراهب	٥ مقدمة
١٣١ الأب والابن	١٧ نحية ورحاء
١٤١ كوتاهية	١٩ دوة بنت النصيري
١٤٧ حليلة الوهاية	٢٧ دموع سليمان
١٥٥ صاح	٣٧ خيط المنكبوت
١٦٥ الصريح الخاوي	٤٧ رهرة المرب
١٧١ حطين	٥٧ السلطانة والدة
١٨٣ أنشودة العيد	٦٩ الأحد الثأر
١٩٣ الشيطان في الدير	٧٩ قبر العاشقين
٢٠٣ سيف الأمير	٨٩ أمراح وأنراح
٢١٥ الساحرة	٩٩ انتقام المواراة
	١٠٩ خرساء البادية








AUC - LIBRARY



DATE DUE

 A.U.C. 19 OCT 1993	 A.U.C. 17 MAR 2001
 A.U.C. 5 NOV 1993	



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الأمريكية بالقاهرة

٣٤

